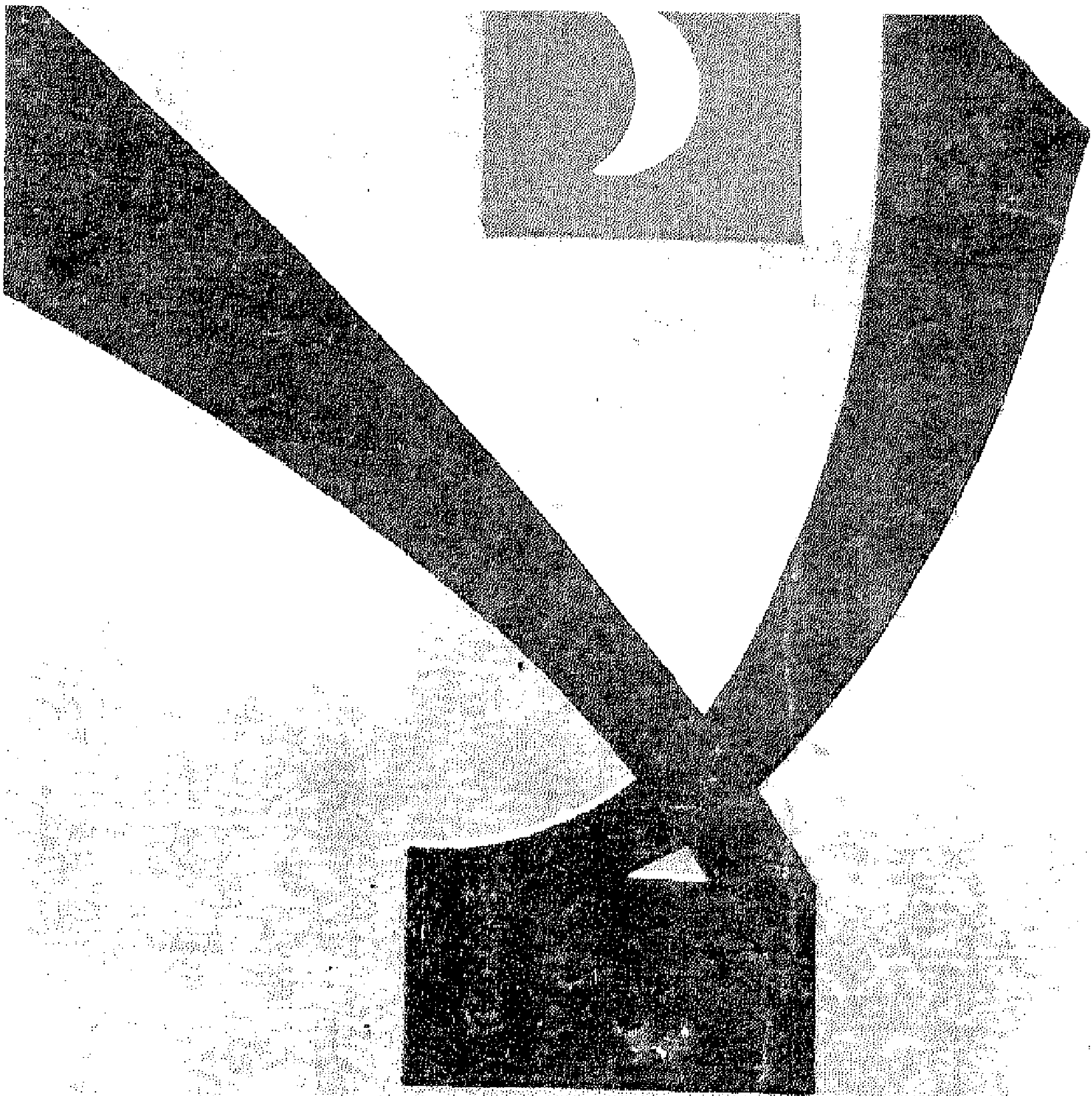


للعنف

دراسة علمية
في تكوين
الضمير الإنساني

د. سيد عويس

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

KITAB ALHILAL

العدد ٤٥٤ ـ صفر ١٤٠٩ ـ اكتوبر ١٩٨٨

NO · 454 — october 1988

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية اثنا عشر جنيها ، وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا أو مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عاليه عند الطلب .

كتـــاب الهــــــلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة الفنان :
محمد أبو طالب

لا للعنف

دراسة علمية في تكوين الضمير الانسانى

بقلم

د. سيد عويس

دار الهلال

المقدمة

أرجو ان يوافقني القارئ الكريم على ان مطلب « السلام » للانسانية مطلب يرحب به كل ذي عقل راجح ، وان مطلب « العنف » للانسانية مطلب مدمر ولا يقره ذو عقل راجح .

والملاحظ ان الانسانية قد عانت من العنف على مر التاريخ منذ وجد الانسان على وجه الارض الوانا واشكالا .. وكان الافراد الاقوياء يستخدمون اساليب العنف الرهيبة لكى يحققوا مصالحهم ضد كل انسان يعارضهم سواء كانت هذه المصالح مادية او معنوية . حدث كل ذلك عندما كان الانسان فى الكهوف او كان عضوا فى قبيلة او اداة طيعة فى يد الاستعمار بكل الوانه .

وكانت اساليب العنف التى تستخدم عديدة ، ولعل اسلوب القتل كان احدها ، والحروب التى لاتفرق بين المحاربين وغير المحاربين قد اشتعلت منذ ان اشتعلت وفى جعبة القوى الاسلحة المدمرة .. التى تفتك بالاضعف دون ما ذنب او جريرة الا ان يكون قد يطالب بحقه فى الحياة .. وقد يشكل هذا المطلب عقبة في سبيل طمع الاقوياء او جشعهم .

وقد عاصرت حربين عالميتين الاولى والثانية ، وعشت مع اعضاء اسرتى وساكنى الحى الذى اعيش فيه العنف والظلم والظلام والاظلام جميعا . وفى ضوء هذه الخبرات أكتب الكتاب الحالى وموضوعه « لا .. للعنف » .

وأرجو أن يتفضل القارىء الكريم بملاحظة ان عنوان هذا الكتاب مستعار من الرسالة التى تفضل « قداسة البابا بول السادس » بالقائها بمناسبة الاحتفال بيوم السلام العالمى فى اول شهر يناير عام ١٩٧٨ . وتتضمن هذه الرسالة الانسانية ضمن ماتتضمن الدعوة الى ابناء المعمورة كلهم ، دون ماتفرقة بين الدين والجنس والنوع ، لكى يعيشوا فى سلام ، والسلام كما يراه قداسته ، هو مفهوم يشع الجلال والبهاء والوداعة . ومن أجل ذلك فهو مفهوم ممجّد والانسانية فى حاجة ماسة الى تحقيقه على الأرض ، وبكل تواضع محمود قال قداسته فى رسالته الانسانية ان « السلام » ليس من اختراعنا وانما اتانا من « المملكة غير المنظورة » مملكة السماء . اننا نحس بسموها عندما نتلو متواضعين ونكرر هذه التلاوة :

« المجد لله فى الاعالى وعلى الارض السلام وبالناس المسرة » (لوقا ٢ : ١٤)

ويذكر قداسته تأييده للسلام اذ يقول : « يجب ان يسود السلام فالسلام ليس مطلبا مستحيلا بل ميسورا » . انه بلاغ للناس وان هذا البلاغ يتجدد فهو بشارة عظيمة ، انه ايضا بشارة منذ بزوغ عام ١٩٧٨ وعلى مر الزمان للناس قاطبة . فالسلام عطية تعطى ويجب ان تعطى لكل الناس الذين يستطيعون بل يجب ان يستطيعوا قبولها ، ويضعونها فوق قمة ارواحهم وبرامجهم وآمالهم فضلا عن سعادتهم . فالسلام ليس حلما مثاليا او انه مجرد شىء جذاب لايتحقق . ان السلام هو ، بل يجب ان يكون ، حقيقة ـ حقيقة دينامية وان يسود فى كل مرحلة من مراحل الحضارة ، انه الخبز الذى لانعيش الا به ، وهو ثمرة الارض التى نحيا على اديمها ، بل

هو ثمرة « العناية الالهية » ، وهو ايضا نتاج العمل الانسانى .

والسلام ماهو الا معادلة أو موازنة تحيا بالحركة وتعطى دائما الطاقة الروحية وطاقة العمل ، انه الذكاء والشجاعة الحية ، ومن ثم ونحن على مشارف عام ١٩٧٨ نرجو أعضاء المجتمعات الانسانية ، الرجال منهم والنساء ، وبخاصة أصحاب النيات الطيبة من القادة ذوى انماط السلوك السوية الجماعية الذين يعملون من أجل حياة المجتمعات الانسانية سواء أكانوا من رجال السياسة أم من المفكرين ام من الناشرين أم من الفنانين أم الذين يعملون فى مجالات الرأى العام والاعلام أم من المدرسين في مدارسهم ، أم من مدرسى الفن والدعاة الى الصلاة فضلا عن المخططين وعمال اسواق الاسلحة فى العالم ـ نرجو الجميع بلا استثناء ان يبدأوا مرة ومرات فى التأمل الامين الكريم من اجل سيادة السلام فى عالم اليوم .

وتقويم السلام لكي يسود لايختلف عليه اثنان من ذوى العقول الراجحة ومن الذين يملأ صدورهم الايمان ، ونجد فى وقتنا الراهن من يحاول ان يرفع رايته فى « منظمة الأمم المتحدة » وبخاصة فى « الجمعية العامة » ، لهذه المنظمة التى عقدت اجتماعا خاصا لمناقشة مشكلة نزع السلاح . ومع ذلك فاننا نلاحظ مع الاسف الشديد ان ظاهرة الازدواجية ترفع رايتها فى عالمنا المتمدين فى الوقت الراهن ، حيث نلاحظ ظاهرة الحماس المتعمد لظاهرة العنف . ويرجع وجود ظاهرة العنف ، بالضرورة الى الفساد الذى يستشرى فى الضمير الاخلاقى الذى لم يدرب التدريب السوى ولم يساعد بتحقيق ذلك الهدف النبيل . بل على العكس نجد أن التفاؤل الاجتماعى يتبدد روحيا وذوقيا مما يؤدى الى عدم الالتزام

بالامانة من أجل الأمانة ، وبكل ماهو جميل وسعيد فى القلب الانسانى : أى مايملأ القلب الانسانى بالمحبة الحقيقية النبيلة الصادقة.

والمعلوم ان العنف كظاهرة لايمكن ان يعنى ابدا الشجاعة انه مجرد انفجار او تبديد اعمى للطاقة التى تنحط بالانسان الذى يباهى باستخدامه ، الى مستوى الانفعال النفسانى المزرى ، والملاحظ ان العنف هو نشاط غير اجتماعى وذلك لانه يستخدم اساليب .. نفس الاساليب .. التى تسمح له لكى يسبب ارتكاب الجرائم .. ومن ثم فالسكوت على حدوثه يعنى مؤامرة صامتة ضد الانسانية .. فهو اى العنف يتلاعب اذ يخون العمليات القانونية العادية فضلا على ان من يستخدمونه يعملون بالقوة على تفادى التدابير الاجرامية التى تنحط الى مستوى اعمال الارهاب التى لاترحم .

وقد تضمنت الرسالة البابوية ايضا بعض التحذيرات اذ تقول ان العنف هو عدو للسلام ، وان الحروب المحلية والقومية ومايتخللها من الوانٍ من العنف التى تسبب الكوارث للآمنين والمحاربين على السواء ، كما تضمنت التأكيد على أن معنى « نعم » للسلام يتسع ليكون « نعم » للحياة ، وأن السلام لايجب ان نذكره ونحن نخوض المعارك الحربية فحسب بل نذكره حيثما وجد الانسان . وان هناك ـ بل يجب ان يكون ـ السلام الذى لايحمى فقط هذا الوجود من التهديدات التى تسببها اسلحة الحرب فقط ولكن ليحمى ايضا الحياة ضد كل خطر وكل النكبات وكل هجوم غادر .

ان حفظ الحياة هو هدف الاهداف .. ان رحم الام ومهد الطفل هما اول الحضنين اللذين ليس فقط يحميان السلام ولكنهما ايضا يحميان الحياة بل ويبنيان قواعد السلام :

« هو ذا البنون ميراث من الرب ثمرة البطن أجرة »
(مزمور ١٢٧ : ٣)

والذى يختار السلام ويعارض الحرب والعنف ، يختار آليا الحياة ، والاهتمام بمتطلباتها الضرورية .

وقد اعلنت الرسالة التى كتبت خصيصا بمناسبة الاحتفال بيوم السلام العالمى المشار اليه انفا فى يوم ٨ من شهر ديسمبر عام ١٩٧٧ ، وتفضل الأخ الاستاذ الدكتور ميشيل فرح باعطائها لى لكى ادرسها واكتب فى ضوئها دراسة القيها فى احتفال « لجنة العدالة والسلام » فى تمام الساعة السادسة والنصف مساء يوم الخميس ٢٦ من شهر يناير ١٩٧٨ بقاعة النيل ، شارع بنك مصر القاهرة .

ولما كنت اصغر مقاما من المتحدثين اللذين تفضلا بقبول الحديث فى هذه المناسبة وهما قداسة البابا شنودة والاستاذة الدكتورة سهير القلماوى ، فقد بدأت حديثى وتفضلت الاساتذة الدكتورة سهير القلماوى فألقت حديثها بعدى ، وكان ختام الاحاديث ختام مسك تفضل قداسة البابا شنودة الثالث بالقائه .

وكان الحضور جما غفيرا شرفه بعض الاباء القساوسة كما شرفه المريدون والاب الكبير بطريرك الاقباط الكاثوليك ورئيس لجنة العدالة والسلام والسادة اعضاؤها .

ومهما يكن من الامر فان الموضوعات المدونة فى الكتاب الحالى تتضمن عدا المقدمة والخاتمة مايلى :

أولا : من مفاهيم الدراسة الحالية .
ثانيا : دراسة عن السلوك الانسانى
ثالثا : امثلة حية معاصرة عن بعض انماط العنف

رابعا : أمثلة حية تاريخية عن بعض انماط العنف .
خامسا : العمل من اجل السلام .

ولعل القارىء الكريم قد لاحظ ان هذه الموضوعات قاصرة عن تحقيق اهداف مايجب ان يتضمنه الكتاب الحالى . واننى اذا اعترف بذلك ارجو ملحا ان يغفر لى هذا القصور . فالموضوع الذى يتحدث عنه الكتاب الحالى هو كما ذكرت من قبل موضوع الحياة بحلوها ومرها وبنسيمها واعاصيرها . واننى فى خبراتى المحدودة لا استطيع ان الم بكل عناصره العديدة التى وجدت على الأرض ماوجدت الحياة ، حياة الانسان أشرف المخلوقات :

« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » (ك الاسراء : ٧٠)

ومهما يكن من الامر ايضا فالرجاء ان يتقبل القارىء الكريم .. هذا الكتاب قبولا حسنا ، وليعلم اننى على الرغم من الوان شقاء الانسان من الوان العنف التى تنفث العداوة حيث نجد الصراع بينها وبين الوان السلام العادل والسلام الروحى ، فان التفاؤل يجب ان يكون ديننا .. ففى ضوء الخبرات الانسانية نلاحظ ان الشر لاينتصر باستمرار وان الوان السلام ، وان توارت عوامل وجودها ، عندما تكون الظروف الاقتصادية والسياسية والتسلط الغاشم والقوة المستبدة تبدو انها السائدة ، تنتظر الظروف المواتية لكى تظهر وتسود .

واكرر قولى انه فى ضوء خبراتى المحدودة لا استطيع ان ألم بكل العناصر العديدة لموضوعات هذا الكتاب ، اذ كتبت ما

كتبت عنها ، فاننى كتبتها بوصفى « ياء » المفكرين المصريين فى المجتمع المصرى المعاصر .

ولايسعنى وقد عرضت موضوعات الكتاب الحالى فى الصفحات التالية الا ان اتقدم بالشكر العميق الخالص الى اعضاء اسرتى الكريمة : زوجتى وابنتى آمال وتيسير وابنائى احمد وسمير ومسعد على تشجيعى للقيام بتأليفه وبخاصة فى الظروف التى اواجهها فى حياتى الراهنة التى تعنى كبر السن والتى تظللها ظلام عدم الوفاء الدامس .. فكان لهذا التشجيع الانسانى الرائع الحافز الاكبر لأعيش .. وان اكتب ما كتبت ، حياة مشرقة ارجو من الصميم ان تكون مثمرة لاعضاء المجتمع المصرى الخالد الذين يعملون جاهدين على ارساء قواعد السلام العادل .

ولن انسى ماحييت فضل السيدة الزا ثابت التى لولا حفزها لى ماديا ومعنويا لما خرج هذا الكتاب الى النور .. وانتهز الفرصة فادعو الله جل وعلا لسيادتها بالشفاء العاجل من مرضها راجيا لسيادتها ان تتمتع بالصحة والعافية .

وان انس لا انسى فضل الاخ الفاضل الحاج محمد شوقى والسيدة الفاضلة حرمه الكريمة على تعاونهما على نسخ موضوعات هذاالكتاب على الالة الكاتبة راجيا لهما ولابنائهما التوفيق والسداد .

والرجا التوفيق

د . سيد عويس

مصيف جمصة السياحى شهر اغسطس عام ١٩٨٨

من مفاهيم الدراسة الحالية

١ ـ مفهوم العنف والسلام في التراث الثقافي الاجتماعي المصري :

واذا اتحدث عن هذين المفهومين فانني اتحدث في ضوء خبراتي كباحث علمي اجتماعي مصرى .. وهذه الخبرات تكون ، بالضرورة ، خبرات محدودة ، ومع ذلك فانني ابادر بالقول بانها خبرات منتظمة (أى علمية) تتضمن نتائج بحوث ودراسات علمية قمت باجرائها او الاشراف على اجرائها في ظل المناخ الثقافي الاجتماعي المصرى ، والخبرات التى اتحدث عنها ، مع ذلك قد تتضمن في بعض الاحيان بعض الانطباعات وبعض الاراء ، وان كان همها الاول ان يقتصر على الحقائق .

وارجو ان يغفر لى القارىء الكريم اذ حاولت دراسة مفهوم « العنف » دراسة علمية بقصد محاولة فهمه فهما موضوعيا ، اى محاولة التعرف على معناه وعلى بعض انماطه وعلى بعض صور التعبير عنه ، فلعل التعرف على هذه الامور ، وغيرها ان تيسر لى ، وان كان ذلك بالضرورة غير كاف ، التعرف على مايواجهها من امور بمفهوم « السلام » .

ومفهوم العنف ، لغة بضم العين ضد الرفق او الاخذ بالشدة والقسوة ، والملاحظ ان مفهوم العنف فى هذا الضوء غير التعنيف ى التعيير واللوم .

وارجو ان يعلم القارىء ان مفهوم العنف فى هذا الحديث يقصد به « العنف الانسانى » اى الذى يصدر عن البشر من بني الانسان .. فالعنف موجود بين الانسان والطبيعة وبين الانسان والحيوان وبين الحيوان والحيوان ، ولكننى اتحدث عن لعنف بين الانسان والانسان ايا كان هذا الانسان ذكرا ، كان او انثى ، رجلا كان او امرأة ، شابا كان او شابة ، صبيا كان او طفلا الذين يعيشون تحت سماء مصرنا الخالدة سواء اكانوا معاصرين ام غير معاصرين .

والملاحظ ان العنف لايحدث بين الافراد فحسب ولكنه يحدث كذلك على مستوى الجماهير ، وقد يكون تلقائيا ، اى لم يخطط او ينظم له من قبل . وذلك على عكس مايصدر من انماط السلوك العنيفة عن بعض الجماعات او التنظيمات الاجتماعية او الثقافية او الدينية او السياسية المنظمة ، كالجامعات والاحزاب والتنظيمات المهنية .

وفى ضوء احدى الدراسات العلمية التى قام بها المركز القومى للبجوث الاجتماعية والجنائية ، فسر « العنف الجماهيرى » بأنه عنف الجماهير ضد ممثلى السلطة . وهو فى ضوء طبيعته « سلوك عدوانى ايجابى » بدنى او مادى ضد بعض ممثلى السلطة (او ضد فئات اخرى) موجهة من بعض افراد الجمهور ـ على اساس انتمائهم لجماعات معينة او دفاعهم عن قيم معينة تتعارض مع قيم المجتمع بوجه عام ، او تتعارض مع القيم التى يرعاها ممثلو السلطة الذين وقع عليهم العدوان ، وارجو ان يلاحظ القارىء عبارة « تتعارض

مع قيم المجتمع بوجه عام » فهى عبارة غامضة على الرغم من ان البحث رجع الى احد المراجع الاجنبية لتفسير هذه العبارة او لتبرير وجودها فى المتن (انظر بحث العنف التلقائى الجماهيرى فى المجتمع المصرى ، ١٩٧٦ صفحات ٤٤ ـ و٤٨ ـ ٤٩) لاننا نلاحظ ان الاخذ بظاهرة الثأر موجود فى بعض المجتمعات المحلية فى المجتمع المصرى مثلا ، وارتكاب احدى جرائمها يتضمن بالضرورة العنف الجماهيرى ضد الاشخاص (القتل) او الاموال (تسميم المواشى) او الاداب (صيانة العرض والشرف) اوحتى ضد الدولة او ممثليها (فترات الانتخابات) وفى ضوء البحوث والدراسات العلمية نجد ان ظروف الحياة المعاشة فى ظل مناخ ثقافى له ذاتية ثقافية معينة تجعل اعضاء هذا المجتمع المحلى مهما كان مستوى تعليمهم او مكاناتهم الاجتماعية ذكورا كانوا او اناثا تغرس فى نفوسهم قيم ظاهرة الاخذ بالثأر ويتمثلونها وهم اطفال ويعيشون بها ولها واذ تختار احدى الجماعات (العائلات الكبيرة) احد اعضائها لارتكاب ماتمليه عليه جماعته من جرائم قام بذلك ، واذ يفعل من اختير ما امر به فان قيمه لم تتعارض مع قيم مجتمعه المحلى وان اعتبرت خرقا لقانون العقوبات المصرى .. لذلك فاننا نرى ان القضاة الذين يحاكمون الجانى يأخذون فى الاعتبار عادة ماتمثله من قيم يعيش بها ولها والتى تحدد انماط سلوكه فنجد هؤلاء القضاه لايحكمون عادة على الجانى باقصى العقوبة التى ينص عليها قانون العقوبات المصرى .

ونذكر بهذه المناسبة ان شخصية الانسان منا تتكون محدداتها وملامحها عند بلوغ الفرد منا سن الخامسة أو السادسة ويرى البعض ان هذه المحددات والملامح تبقى

مابقى الفرد حتى يصير شخصا اى فرد صاحب شخصية اجتماعي . وقد لايرى البعض هذه المقولة حيث ان محددات شخصية الانسان منا وملامحها تتغير بتغير التجارب والخبرات الاجتماعية التى يواجهها فى حياته . والملاحظ ان محددات شخصية الانسان قد تكون ادواره الاجتماعية التى يتوقع المجتمع الذى ولد فيه ويعيش ان يؤديها . وقد تكون محددات تكوينية تتعلق بالتكوين الجسمى والبيولوجى للشخص . او محددات ثقافية اجتماعية وهى تعنى الخبرات التى يواجهها الشخص منذ ان يولد وحتى الوقت الذى تدرس فيه هذه الشخصية .. وقد تكون محددات عقلية ونفسية تتعلق بصحة الشخص العقلية او النفسية اى ضعفه العقلى او ماقد يصيبه من مرض او امراض عقلية او نفسية . ومن ثم فانى ارجح تغير شخصية الانسان تغيرا مقصودا او غير مقصود . ولعل التغير المقصود يكون اقرب الى الصواب .

وكما ذكرت آنفا اننا نلاحظ ان مفهوم العنف الوان وانماط ، وان الشعور بالعداوة صور وأنماط ايضا . والملاحظ ان الشعور بالعداوة فى احد انماطه ـ النمط الفردى او الشخصى ـ ماهو الا انفعال يندفع من شخص معين ضد شخص أخر . وقد يكون هذا الشعور بغضا مقنعا ، او يكون فعلا بغيضا موجها ضد شخص ، وما الفعل البغيض الموجه ضد شخص الا تعبير ظاهر عن الشعور بالعداوة ضده .. فنحن نلاحظ بوضوح ان تهديد اى شخص بالقيام بفعل بغيض او توجيه هذا الفعل البغيض ضده يثير عادة انواعا متباينة من الاستجابات فى نفسه قد يكون الشعور بالعداوة احدها ، والمقصود بالتهديد هنا هنا هو الخوف الحقيقى او حتى الوهمى من امور بغيضة مثل الاذى او الضرر او التحقير أو

حرمان الات حرمانا على مستوى معين ، وقد يتحقق هذا التهديد ايضا عند اعاقة شخص معين من فرصة فهم نفسه حق الفهم ، او من توقع هذا الشخص تحقيره او تقييده .. وقد يتحقق هذا التهديد كذلك اذا خشى الشخص من رفض الاعتراف بحاجاته المشروعة او رفض الاعتراف بحقوقه كعضو فى جماعة معينة .

واذا كان مفهوم « العنف » فى هذه الدراسة هو « العنف الانسانى » فانى اذ اتحدث عن « مفهوم السلام » اعنى ايضا « السلام الانسانى صحيح ان « السلام » فى ضوء التعاليم الدينية قد يكون اسما لله جل وعلا ، تماما كمفهومالمحبة ، ومع ذلك فارجو ان يعذرنى القارىء اذا ذكرت ان معنى مفهوم السلام هنا قد يكون التحية بين اعضاء المجتمع وقد يكون الامان او الصلح او النجاة من الآفات فضلاً عن السلامة (على المستوى البشرى) والبراءة من العيوب .

ومهما يكن من الامر فان مفهوم السلام هو ضد مفهوم العنف بالمعنى الذى ذكرناه من قبل . والملاحظ فى الحياة الانسانية ان الشعور بالعداوة (وليد العنف بصوره وانماطه) يوجد كما يوجد الشعور بالمحبة (وليد السلام بصوره وانماطه) والملاحظ ايضا فى هذه الحياة اى الحياة الانسانية ان هذين النوعين من الشعور الانسانى فى صراع مستمر . فهما فى الواقع سمتان من سمات هذه الحياة ، والصراع بينهما هو فى الحقيقة سنة الحياة ، وكلنا يعلم ان الشعور بالمحبة ، محبة الناس بعضهم لبعض ، فى ضوء تراثنا الثقافى المصرى ، هو هدف كل الاهداف ، والشعور بالمحبة ، محبة الناس بعضهم لبعض ، فى ضوء قيم المجتمع المصرى المعاصر ومبادئه ومثله العليا هو ، ايضا غاية كل

الغايات وفضلا عن ذلك ، وربما مع كل ذلك ، فهو فى ضوء التراث الثقافى الانسانى ، امل كل الامال .

واذا كان الشعور بالعداوة والشعور بالمحبة ، كما سبق ان ذكرت يتصارعان ، فاننا نجد ان الدعوة الى العنف الانسانى والدعوة الى السلام فى محيط البشر يتصارعان كذلك ويعنى مفهوم « الصراع » في الدراسة الحالية ، اى معناه الاجتماعى ، هو « عملية اجتماعية وموقف يحاول فيه اثنان او اكثر من الكائنات البشرية او الجماعات الاجتماعية ان يحقق كل اغراضه ومصالحه ، ومنع الاخر من تحقيق ذلك لو اقتضى الامر القضاء عليه وتحطيمه ، ويرتبط الصراع جوهرا بوجود حدود لمصادر الاشباع المختلفة ، وفى معناه السوسيولوجى يتضمن بالضرورة كائنات انسانية ، وهو مثله مثل الشعور بالعداوة ذو درجات من الشدة والانتشار تبعا لاهداف واغراض اطراف الصراع ، ويعد الصراع ظاهرة عامة تلحظ فى مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية وفى الاقتصاد والسياسة والدين والمعايير الاخلاقية وبين الطبقات وفى اللغة (التنابذ بالالقاب التى تحدث فى المشاكسات مثلا) وقد يكون الصراع داخل الجماعات الاجتماعية او بينها .

واذا اعتبرنا الصراع نوعا من التفاعل الاجتماعى بمعنى انه عملية من العمليات الاجتماعية فانه يجب التمييز بينه وبين « المنافسة » وقد يرى البعض ان الصراع نوع من التنافس ، يحاول المتنافس ان ينظم فيه جهوده وقوته ، املا فى الفوز ولذلك يرون انه اقسى عملية بين العمليات الاجتماعية او انه نوع عنيف من التنافس ، ومع ذلك فهناك فارق بين المنافسة والصراع فالوعى شرط ضرورى للصراع فى حين ان هذا

الوعى ليس ضروريا بالنسبة للمنافسة بل ان هناك انواعا من المنافسة تكون لاشعورية . هذا ويعتبر كل من الصراع والمنافسة اشكالا للنضال والكفاح .

ومع ذلك فالملاحظ انه اذا كان مفهوم « العنف » يوجد فى المجتمع المصرى المعاصر على مستوى الجماعات او على مستوى الافراد ، فان التراث الثقافى لهذا المجتمع يتعطر بمفهوم « السلام » ويكفى لتأكيد ذلك ان نذكر ان الكتاب المقدس قد تضمن مفهوم « السلام » بصوره وانواعه ١٣٣ مرة كما تضمن مفهومى « العداوة والاعداء » وهما وليدا مفهوم « العنف » بصورهما وانواعهما ٤٠ مرة ، وقد ذكر مفهوم « السلام » لفظة ومشتقاته فى مواضيع عديدة فى القرآن الكريم ، فى صوره واياته ١٣١ مرة كما تضمنت مفاهيم « الاعتداء والعدو والعداوة والعدوان » وهى وليدة مفهوم « العنف » بصورها وانواعها ١٠٤ مرات .

٢ ـ مفهوم الضمير الانسانى فى التراث الثقافى الاجتماعى المصرى .

ان مفهوم « الضمير الانسانى » لغة هو « استعداد نفسى لادراك الخبيث والطيب من الاعمال والاقوال والافكار والتفرقة بينها ، واستحسان الحسن واستقباح القبيح منها . والملاحظ ان الفرد منا لايولد وعنده « ضمير » وحتى كبار السن منا لانستطيع ان نجد عضوا من اعضاء اجسامهم كالكليتين وعضلة القلب والرئتين والغدد مثلا اسمه « الضمير » وقد يرى البعض ان الضمير هو النفس التى قد تكون نفسا مطمئنة او نفسا لوامة . واذا كان لايولد الانسان وعنده ضمير فلابد اذا اخذنا بالمعنى اللغوى للضمير ان يتكون كلما ازدادت عوامل تكوينه فى خلال مراحل حياته مرحلة بعد مرحلة . اى

ان يربى الشخص منا لكى يدرك الخبيث والطيب من الأعمال .. الخ .

والمعلوم ان مفهوم « التربية » لايعنى مفهوم « التلقين » وعلى الرغم من ان معانى ودلالات المفهوم الاول تتعدد فاننى ارى انه ينبغى ان تفهم التربية على انها « عملية تغيير » بواسطتها ينمو الانسان ويزدهر وتتفتح ملكاته وقدراته . وهو اى الانسان ، اذ يفعل ذلك فانه يكون نفسه ويتحول هو ذاته مع تكوينه وتحويله الاخرين ، والبيئة التى يعيش فيها . ان عملية التغيير هذه تهدف اولا وقبل كل شىء الى اعداد المواطن (الانسان) لكى يستطيع ان يؤدى ادواره الاجتماعية التى يتوقعها منه المجتمع الذى ولد فيه ويعيش ، انها عملية تكوين الشخصية اى عملية جعل « الفرد » شخصا ، أى فرد له شخصية اجتماعية ، اى يكون المواطن شخصا ذا اتجاهات فكرية نحو من يحيط به من الناس سواء كانت هذه الاتجاهات مما يفيد او يضر المجتمع وجماعاته ، وتكون فائدته للمجتمع وجماعاته فى ضوء قيم هذا المجتمع . ويكون ضرره فى نفس هذا الضوء . اى ان قيم المجتمع وجماعاته قد تكون اهدافها حميدة ، اى قيم بناءة تكون من وراء انماط سلوك اعضاء المجتمع . اقصد افكارهم واتجاهاتهم ونظرتهم نحو الامور والاشياء والاشخاص ، اى نحو الحياة التى يعيشونها او التى يصنعونها او التى يحاولون صنعها على السواء . وهى قيم اهدافها حميدة لانها تدعو الى الخير ولا تدعو الى الشر . واعنى بالخير كل مايعين على العمل الصالح من اجل الاخرين فى ضوء مايدرك عضو المجتمع عن طريقها ماهو خبيث من الاعمال والأقوال والافكار فيتجنبه وفى ضوء مايدرك هذا

العضو عن طريقها ماهو طيب من الاعمال والاقوال والافكار ، فيعمل به . ومن ثم فانه يصبح انسانا او فردا ذا شخصية عنده ضمير يستحسن كل ماهو حسن ومحبوب ويستقبح كل ماهو قبيح ومكروه .

وفى ضوء التاريخ نجد ان المصريين القدماء قد عرفوا منذ الماضى السحيق عن طريق التفكير والتأمل ان الرجل الفاضل يسمى « محبا للسلام » وبالنص الحرفى « حامل السلام » وهذا التعبير فى ضوء مايعنيه هو تعبير اخلاقى مافى ذلك من شك حيث يمكن التعرف على الفاضل (صاحب الضمير) بعلاقاته بمن حوله . وعلى النقيض منه ماوصل اليه هؤلاء الاقدمون عندما اطلقوا على كل من يخطىء فى حق من حوله اسم « حامل الجريمة » او « المجرم » ولعل القارىء الكريم اذا اطلع على امثال « بتاح حتب » (حكيم مصرى قديم) التى يرجع تاريخها الى الدولة القديمة او من عام ٣٤٠٠ الى ٢٤٧٥ ق . م (الأسرة الخامسة) يرى انها تقوم شاهدا على تقدم الاختمار الخلقى . او مايمكن ان يسمى مولد الضمير الانسانى وتطوره . ولعل المثال التالى يوضح مااقول (انظر كتاب « سيد عويس » قراءات فى موسوعة المجتمع المصرى القاهرة دار روزاليوسف ابريل عام ١٩٨٨ صفحة ٩٦) :

« لاتكن متعجرفا بسبب علمك ولاتنتفخ اوداجك لانك رجل عالم استشر الجاهل كما تستشير العالم ، لان حدود الفن لايمكن الوصول اليها ، وليس هناك فنان كامل فى براعته . الكلام الطيب اندر من الحجر الاخضر الثمين ، ومع ذلك فانه يوجد احيانا فى حديث الجوارى العاملات فى طحن الغلال بين احجار الرحى »

وقد علق « جورج سارتون » فى كتابه تاريخ العلم : الجزء الاول ، القاهرة ، دار المعارف الطبعة الثالثة ديسمبر عام ١٩٧٦ على هذا المثال قائلا : « من الواضح ان هذه العبارة وامثالها لاتتعلق بالفن او العلم او الدين ، ولولا هذه العبارة وامثالها لاستحال بقاء اية حضارة مدة طويلة » (انظر صفحتى ١٢٩ - ١٣٠)

وتعنى الصفات التى يتحلى بها الانسان ذو الضمير الانسانى الذى يحب السلام ، فى ضوء التعريف السابق ، وفى ضوء ظروف مجتمعنا المصرى الراهنة ، ان يكون مواطنا صالحا يعرف حقوقه ويؤدى واجباته التى يتطلبها هذا المجتمع . وقد قدمت حقوق عضو المجتمع المصرى المعاصر متعمدا فالملاحظ ان المصريين منذ ان عاشوا على ضفاف النيل يعطون اكثر مما يأخذون ويواجهون الازمات الاقتصادية والسياسية التى تواكبها عادة المشاكل الاجتماعية التى تتضمن ضمن ماتتضمن الوانا عديدة من الانحرافات ، منها واهمها معاناة الشباب منهم من القلق المرضى وارتكاب الجرائم وتعاطى المخدرات ومن التطرف السياسى او الدينى .

واذ ادعو الى السلام فاننى ادعو الى السلام القائم على العدل . والملاحظ ان مفهوم « العدالة » قد نبت من تربة مصرنا الخالدة منذ الاف السنين فى شخص الالهة « ماعت » ، ومنذ اينابنوس المصرى » اول اسقف كرسه « مرقص فى عام ٦٤ ميلادية » نجد ايات الكتاب المقدس تتلألأ بمعانى حقوق الانسان وتنشر نورها فى اعماق قلوب المصريين المسيحيين وتعطر المناخ الثقافى الاجتماعى المصرى منذ ذلك الحين :

« العدل العدل تتبع لكى تحيا وتمتلك الارض التى يعطيك الرب الهك » (سفر التثنية اصحاح ١٦ : آية ٢٠) و« هكذا قال الرب ، احفظوا الحق واجروا العدل . لانه قريب مجئ خلاصى واستعلان برى » (سفر اشعياء اصحاح ٥٦ : اية ١)

ثم عانقت الايات القرانية الكتاب المقدس التى تعطر بها المناخ الثقافى الاجتماعى المصرى منذ ان اقيم اول مسجد فى مصرنا الخالدة فى عام ٢١ هجرية الموافق عام ٦٤١ ميلادية :

« .. واستقم كما امرت ولاتتبع اهواءهم وقل امنت بما انزل الله من كتاب وامرت لاعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا اعمالنا ولكم اعمالكم لاحجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير » (٤١ ك الشورى آية ١٥)

و« ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » (١٦ ك النحل : اية ٩٠)

دراسة عن السلوك الانسانى

٣ ـ متصل السلوك العدوانى الانسانى :

ارجو ان يغفر لى القارىء الكريم اذا كنت استعرت « مفهوم المتصل » لاشرح تدرج السلوك العدوانى الذى كما ذكرت انه وليد العنف ، وعلى الرغم من اننى لم اقصر فى سرد بعض انماط هذا السلوك اقصد السلوك العدوانى ، فاننى تحت هذا العنوان ساحاول ان اذكر ماتبقى دون ماتكرار حتى لايمل القارىء من التكرار .

وقد استعرت مفهوم المتصل من علم الاجتماعى الحضرى وهو يعنى التغيرات المتدرجة بين درجات التريف والتحضر على اساس انه من الممكن تصنيف المجتمعات (المحلية) المختلفة وفقا لنقاط معينة على هذا المتصل . ويفترض من أجل ذلك ان المجتمعات المحلية تتدرج بشكل مستمر ومنتظم من الريفية الى الحضرية ، وفقا لعدد من الخصائص ، وان هذا التدرج تواكبه بالضرورة اختلافات او فروق متسقة فى انماط السلوك . ونحن نلاحظ فى الوقت الراهن ان مدن المجتمع المصرى المعاصر ، وبخاصة مدينة كمدينة القاهرة الكبرى قد تريفت ، بمعنى ان انماط السلوك الانسانى لمن

يعيشون بين جنباتها قد اختلطت واصبحت اقرب الى انماط الريف . فقد نلاحظ مثلا ان « الاتوبيس العام » قد يكون مزدحما بمن يحمله من الركاب الذين يبغون الوصول الى مواقع عملهم او الى مدارسهم وجامعاتهم ، فاذا بالسائق يوقف « الاوتوبيس » حتى يتيسر « للكمسارى » ان ينزل لجلب كوبين من الشاى مثلا من المقهى الذى وقف امامه ولايتحرك الاوتوبيس من مكانه على الرغم من الاجسام المكدسة سواء كانت اجساما لاطفال او لشباب او لرجال او لنساء حتى يحضر الكمسارى المطلوب . وتصرف السائق والكمسارى فى هذه الحالة هو تصرف من يملك الشارع وكأنهما يسيران على « الزراعية » فى الريف المصرى . ومثل هذا النمط من السلوك الريفى نجده عندما تجمع كناسة « الشارع » او « المنزل » وتحرق بلا مبالة فى احد اركان الشارع امام المنزل ! واصبحت انماط السلوك الريفى تملأ المناخ الثقافى الاجتماعى فى هذه المدينة وغيرها من المدن والمراكز فى المجتمع المصرى فى الوقت الراهن ، ولعل ذلك يرجع الى الهجرة الداخلية غير المنتظمة سواء كانت هجرة داخلية من الريف الى الحضر او هجرة الى مدن مصر ، قد تكون مؤقتة نعم ، ولكن المهاجرين يحملون على اكتافهم عناصر ثقافة اوطانهم التى جاءوا منها . وقد تختلف هذه العناصر جذريا مع عناصر الثقافة المصرية .

والمعلوم ان انماط التعبير عن العنف عن طريق السلوك العدوانى سواء كان الاخير ضد الافراد او ضد السلطة وممثليها ، كما سبق ان ذكرت عديدة . وفى ضوء متصل السلوك العدوانى الانسانى الذى اتخذته نبراسا كما اوضحت نلاحظ ان هذا السلوك قد يبدأ سلبيا ثم يتدرج الى ان يكون

ايجابيا . واقصد بذلك في ضوء المقصود من الدراسة الحالية ان عدوان الشخص قد يوجه ضد ذاته عن طريق ايذائها وذلك (بالانتحار مثلا او بالادمان بانواعه) . وقد يوجه ضد الاخرين عن طريق الاعتداء على الاموال (السرقة مثلا) او الاعتداء ضد الاداب العامة (ظاهرة البغاء مثلا) او يوجه ضد الدول (التجسس لحساب دولة اخرى) او يوجه ضد الاشخاص (الضرب والقذف والقتل مثلا) .

وفى ضوء ماسبق ، اى فى ضوء ، « المتصل السلوك العدواني الانسانى » الذى تبنته الدراسة الحالية ، ارجو ان يلاحظ القارىء الكريم العلاقة الحميمة بينه وبين « علم الاجرام » والمقصود بهذا العلم انه يهدف الى دراسة الظاهرة التى تسمى عادة بظاهرة « الاجرام » او ظاهرة « الجريمة » . والملاحظ ان علم الاجرام قد يكون علما نظريا او علما تطبيقيا . ومهما يكن من الامر فانه كعلم استقرائى . مثله مثل العلوم الاستقرائية يهتم بملاحظة الحقائق (الوقائع) ملاحظة دقيقة بقدر الامكان ويحاول بكل الاساليب المتاحة التعرف على عوامل الظواهر الاجرامية ومن ثم فهو فى هذه الحالة يهتم اول مايهتم باحدى مناطق اهتماماته الا وهى التعرف على « عوامل الجريمة » او مايسمى بعلم أل (Etiology) . واذا كانت المادة التى يهتم بها علم الاجرام هى ظاهرة الاجرام ، اى الجرائم التى ترتكب واعضاء المجتمع الذين يرتكبونها فضلا عن الاجراءات القانونية التى تتصل بهذه الجرائم من قريب او من بعيد ـ فانه من المستحسن محاولة تعريف مفهوم او ظاهرة الجريمة ، والملاحظ ان هذا المفهوم كاحد المفاهيم الانسانية له صور عديدة فضلا عن انه مفهوم فضفاض ، اى له معان عديدة ايضا . وهى اولا وقبل كل شىء انماط من

السلوك اذا اداها المواطن او امتنع عن تأديتها ، فى ضوء قانون العقوبات ، يستحق العقاب .

وقد يرى البعض ان مفهوم او ظاهرة الجريمة ينتمى الى فئة الافعال اللااخلاقية ومع ذلك فالملاحظ انه ليس كل الافعال اللااخلاقية تكون بالضرورة جرائم .

ويجب التأكيد على ان مفهوم علم الاجرام بمعناه الواسع لاينتمى فقط الى علم الـ (Etiology) بل ينتمى ايضا الى علم الـ (Penology) وعلم الـ (Criminalistics) .

والملاحظ انه منذ منتصف الستينيات من القرن الحالى قد ظهرت حركة مميزة من اجل التغيير الجوهرى فى نظرية « علم الاجرام » وتطبيقاتها حين قام بالتمرد طلاب الجامعات والعمال والفقراء ساكنو المناطق المنعزلة فى المدينة (الحوارى) فى البلاد الغربية الصناعية فى ذلك الحين . وكانت اثار ردود الفعل لهذا التمرد ، على الحكومات وبخاصة فيما يتعلق بالتوازن السياسي الاجتماعى ومايتصل به ، ان اوجدت الحوار المتنوع والمناقشات العديدة ليس فقط فى محيط العمل الراديكالى بل فى الفكر الراديكالى ايضا .

ومن ثم اتجه علم الاجرام نحو الراديكالية كما اتجه نحو موضوع « الضبط الاجتماعي » وبخاصة ماتعلق بالمهن التى تهتم بالمساعدة على تأييد وجوده فى المجتمع .

والملاحظ ان تعريف مفهوم علم الاجرام (الراديكالى) مسألة صعبة المنال . ولكننا نجد ان هذا المفهوم يرى ، على وجه العموم ، ان القانون الجنائى والادارة التى تشرف عليه هما جزء من الدولة وان هذه الدولة ان هى الا جهاز قمعى يعمل فى سبيل مصالح الطبقة التى تملك رأس المال (الطبقة

البروجوازية) .

والملاحظ ايضا ان ماهو راديكالى من حيث نسبته الى علم الاجرام لم يكن متحجرا بل اخذ فى اعتباره اختلاف الثقافات وتغيرها فى النظرية وفى التطبيق وقد اهتم هذا العلم منذ بزوغه فى افق المعرفة (اى منذ منتصف الستينيات من القرن الحالى) بالتغييرات الرئيسية المتعلقة بالسلوك الاجرامى ، اى بمعناها ودورها المتاح فى التغيير الاجتماعى ، فضلاً عن الحالة التى تؤدى الدولة وظائفها بالنيابة عن مصالح الطبقة التى تؤيدها ، وهى فى هذه الحالة الطبقة البرجوازية ، وعلى سبيل المثال يمكن ان نتساءل : هل السلوك الاجرامى يعنى انه تأييد للرجعية السياسية ؟ وهل الاشخاص المجرمون هم ضحايا او انهم اشخاص متفردون ؟

والملاحظ كذلك ان علم الاجرام الراديكالى يهتم أول مايهتم فى ضوء عوامل وجوده ، بدراسة مصالح الدولة ، وان حواراته ومناقشاته تدور حول هذه المصالح من حيث انها تخدم الدولة وتيسر وجودها عن طريق الوعى الطبقى أو يكون ذلك عن طريق التعسف البنائى الموجود فى المجتمع . (انظر سيد عويس : المعجم العربى فى العلوم الاجتماعية ، المركز الاقليمى العربى للبحوث والتوثيق فى العلوم الاجتماعية) .

وبالاضافة الى ماذكرته من قبل ارجو ان يسمح لى القارىء الكريم بأن أذكر بعض القضايا التى تتصل به ، وهى قضايا وصلت اليها فى ضوء نتائج احدى الدراسات العلمية التى قمت باجرائها وهى :

ان تقدم العلوم المادية (علوم الفيزياء والكيمياء والميكانيكا مثلا) يكون له أثر فعال على الانسان فى علاقته

مع نفسه ومع الناس الذين من حوله .

- ان معنى ذلك ان العلوم المادية تسبق عادة العلوم الانسانية (علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعى وعلم الخدمة الاجتماعية مثلا) التى تتعلق مباشرة بالسلوك الانساني على وجه الخصوص .

- ان العلوم المادية وغير المادية تزدهر فى ظل الظروف الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية المواتية . وهى أيضا فى تطور مستمر وتتجدد على مر الأيام .

- ان تباين تقدم العلوم غير المادية ومنها علم الاجرام فى المجتمعات البشرية لايرجع عادة الى المستوى الذى بلغته العلوم المادية ولكن أيضا الى الواقع الحي لهذه المجتمعات وعلاقة كل مجتمع بالمجتمعات الاخرى المتقدمة منها والنامية ، فضلا عن واقع الثقافات السائدة فى هذه المجتمعات وتاريخ كل مجتمع منها .

- ان التكامل الثقافى بين العلوم المادية والعلوم غير المادية أصبح قضية لايختلف عليها اثنان . (انظر سيد عويس : علم الاجرام : دراسة مقارنة ، دراسة علمية غير منشورة ، عام ١٩٨٦) .

وفى ضوء نتائج احدى الدراسات العلمية التى قمت باجرائها وموضوعها « حول عقوبة الاعدام فى مصر » (المجلة القومية الجنائية - العدد ٢ - ٣ يونيو - نوفمبر ١٩٧٨ ، صفحات ٩٣ - ١١٧) اتضح لى مايلى :

- ان فئة المجرمين بعامة هم نتاج المجتمع الذى ولدوا فيه ويعيشون . فالمجتمع أى مجتمع كما يستحق المواطنين الصالحين الذين يضمهم فهو أيضا يستحق المواطنين الصالحين (ومنهم المواطنون المجرمون) الذين يوجدون فيه .

ـ ان جريمة القتل جريمة خطيرة وينفر منها المجتمع الانساني مافي ذلك من شك . وذلك لان المجتمع يخسر الشخص الذى قتل أو الاشخاص الذين قتلوا . ومع ذلك فالملاحظ ان القتل في المجتمعات الانسانية لايحدث بالضرورة كمخالفة لقانون العقوبات ، فالحروب والفيضانات والزلازل وحوادث الطيران وغيرها كحوادث المرور تسبب قتل الأبرياء وغير الابرياء من الأطفال والشباب والرجال والنساء .

ـ ان القتلة العاديين الذين يدانون ويحكم عليهم بعقوبة الاعدام لايختلفون كثيرا عن القتلة الآخرين من الاشخاص الطبيعيين كالقتلة في الحروب وحوادث المرور مثلا . ولايعنى ذلك ان يترك القاتل العادى الذى يمثل امام المحكمة ويدان وشأنه ، بل يجب أن تدرس حالته حتى نصل الى بعض الحقائق عن شخصيته لكى نيسر له إعادة تنشئته الى حظيرة الانسانية مواطنا صالحا يحب السلام ويدعو اليه . ولكى يزداد فهمنا للنفس البشرية مما ييسر عمليات التنشئة السوية للمادة البشرية في المجتمع ووقاية أعضائها من الجريمة والجناح والانماط الاخرى التى تكون مادتها العنف بألوانه المختلفة .

ـ ان القاتل العادى أو حتى غير العادى (أى الذى يقتل وهو يحارب بدافع الوطنية أو الذى يرتكب جريمة قتل خطأ أيا كانت مثلا) لايمكن أن يحاسب ويعاقب ، فيعدم الأول ويسجن أو يعتقل الثانى ، مثلا ، على أساس انه يملك مايسمى بالارادة الحرة . ومن ثم فهو مسئول عن تصرفاته وأفعاله . ذلك انه لايوجد انسان يملك هذه الارادة الحرة . وان ردع المجرم الذى يعدم لاطائل فيه وردع الاخرين لايثبته الواقع ، فالجرائم لاتزال ترتكب سواء أكانت جرائم قتل عمد ارتكبت مع سبق

الاصرار والترصد أم غيرها كالضرب الذى أفضى الى الموت والسرقة بالاكراه ، والتزوير والتجسس .. الخ . صحيح ان الانسان منا « البالغ » لديه إرادة ولكنها ليست حرة حرية مطلقة . انها محدودة فى ضوء الامكانات والقدرات . والملاحظ ان القدرات الانسانية قد تكون منتظمة أو غير منتظمة . والقدرة المنتظمة هى التى تستند الى العلم ، أقصد التى تستند الى الفهم الموضوعى للظواهر الانسانية أو المادية . وذلك فى ضوء التعرف على القوانين التى تحكم هذه الظواهر الانسانية أو المادية . ومن ثم نرى أن قدرة الانسان المنتظمة هى قدرته التى تيسر التغيير أن اقتضت الضرورة هذا التغيير .

- ان الاحكام بعقوبة الاعدام قد ازدادت بعد عام ١٩٥٢ (أى فى خلال الفترة من ١٩٥٣ الى عام ١٩٧٣) عنها قبل ذلك (أى فى خلال الفترة من عام ١٩٢٢ الى ١٩٥٢) ومن ثم فان الاشخاص الذين حكم عليهم بالاعدام فى الفترة الأولى قد زاد عددهم . وكانت نسبة من حوكم من هؤلاء امام محاكم استثنائية مثل المحاكم العسكرية ومحاكم أمن الدولة العليا ومحكمة الشعب ومحكمة الثورة فى خلال فترة الدراسة العلمية الحالية (أى من عام ١٩٢٣ الى عام ١٩٧٣ نحو ١٦,٣٪ من الحالات التى عرفت فيها جهة صدور الحكم بالاعدام شنقا أى ٨٩ شخصا من ٥٤٦ شخصا) وقد حوكم ٧٠ شخصا من الـ ٨٩ شخصا فى خلال الفترة من عام ١٩٥٣ الى عام ١٩٧٣ ، أى بعد عام ١٩٥٢ بنسبة نحو ٧٨,٧٪ أما الباقى وقدره ١٩ شخصا بنسبة نحو ٢١,٣٪ فقد حوكموا أمام محاكم استثنائية فى خلال الفترة من عام ١٩٣٢ الى عام ١٩٥٢ .

ـ ليس كل من يرتكب جريمة قتل أو جرائم أخرى تستحق ، فى ضوء قانون العقوبات المصرى ، عقوبة الاعدام يحكم عليه اذا مأأدين بالاعدام ، وليس كل من يحكم عليه بالاعدام بالضرورة ينفذ فيه هذا الحكم .

ـ ان عددا من الذين حكم عليهم بعقوبة الأعدام من المواطنين المصريين فى خلال فترة الدراسة الحالية ونفذ فيهم هذا الحكم ، لايعتبرهم الكثيرون فى ضوء تغير الظروف الاجتماعية والسياسية مذنبين . بل هم فى نظر هؤلاء أبطال وشهداء . والأمثلة على ذلك عديدة . ومن حق القارىء الكريم أن يأخذ بما يراه هؤلاء أو لايفعل ذلك . ومهما يكن من الأمر فان المجتمع المصرى باعدامهم قد خسر ، فى رأيى ، حتما النفع الاجتماعى الذى يكمن بالضرورة فى شخصية كل منهم . وهو نفع فى ضوء مستواهم الثقافى والاجتماعى ، وفى ضوء الاهتمام العام الذى كان يملأ نفوسهم سواء كان اهتماما بالعقيدة أو بالوطن أو بالفكر ، وفى ضوء العصر الذى عاشوا فيه وماتوا ، نفع ثمين مافى ذلك من شك .

وبالاضافة الى ماسبق فاننى أذكر انه فى ضوء وقائع التاريخ نجد الكثير من المفكرين واصحاب العقائد والمثل العليا قد أدينوا ظلما وحكم عليهم بالموت . فقد استقبل حياة الخلود كل من المعبود المصرى القديم « اوزوريس » (أول الشهداء) والفيلسوف « سقراط » (٤٦٩ ـ ٣٩٩ ق . م) ، والقديس « مرقص البشير » (٦٨ م) والامام على بن أبى طالب (٢٣ قبل الهجرة ـ ٤٠ هجرية ، أى حوالى ٦٠٠ ـ ٦٦٠ م) والأمام الحسين بن على (أبو الشهداء : ٦٢٥ ـ ٦٨٠ م) والامام ابو حنيفة النعمان بن ثابت (٦٩٩ ـ ٧٦٧ م) والفيلسوف « جيوراندو برونو » (١٥٤٨ ـ ١٦٠٠

م) لانهم وقفوا صامدين يدافعون عن عقائدهم وافكارهم وكأن لسان حالهم كما قال سقراط لقضاته : « .. سيذهب كل منا فى طريقه ، انا فى طريقى الى الموت ، وانتم فى طريقكم لتعيشوا ، والله يعلم أى الفريقين أهدى سبيلاً » وكما قال الامام على بن أبى طالب لابنه الحسن فى شأن ضاربه « ابصروا ضاربى ، أطعموه من طعامى ، واسقوه من شرابى ، واذا انا مت فلا تغال فى كفنى ، وكبر على سبعا وفى رواية خمسا ، وغيب قبرى »

والتاريخ يزخر بغير هؤلاء الأبطال ، التاريخ القديم والتاريخ الحديث ، والحديث عن صرعى التفرقة العنصرية أو التفرقة الدينية والمعتقلات والسجون ، أصحاب الرى والعقيدة ، طويل طويل طويل ، فنحن فى عصرنا الحالى نعيش خبراتهم فى كل يوم بل فى كل لحظة ، ولعل ذلك يرجع الى ماذكره « العقاد » فى كتابه (العبقريات الاسلامية ، المجلد الثانى ، بيروت ، دار الكاتب اللبنانى صفحة ١٥٩) « .. مسكينة هذه الانسانية! .. لاتزال فى عطش شديد الى دماء الشهداء ، بل لعل العطش الشديد يزداد كلما ازدادت فيها افات الأثرة والانانية ونسيان المصلحة الخالدة فى سبيل المصلحة الزائلة ، أو لعل العطش الشديد الى دماء الشهداء يزداد فى هذا الزمن خاصة دون سائر الازمنة الغابرة ، لانه الزمن الذى وجدت فيه الوحدة الانسانية وجودا ماديا فعليا وأصبح لزاما لها أن توجد فى الضمير وفى الروح كما وجدت فى الخريطة الجغرافية وفى برامج السفن والطائرات »

وقد يلخص هذا وربما يؤكده ماذكره « صلاح عبد الصبور » مؤلف المسرحية الشعرية « مأساة الحلاج »

(الحسين بن منصور الحلاج : ٨٥٨ ـ ٩٢٢ م) الذى كان مشغولا بقضايا مجتمعه فوقفت الدولة ضده وصلبته فى احدى ساحات بغداد ولسان حاله :

« كان يقول :
اذا غسلت بالدماء هامتى واغصنى
فقد توضأت وضوء الانبياء
كان يريد أن يموت ، كى يعود للسماء
كأنه طفل سماوى شريد
قد ضل عن أبيه فى متاهة المساء

كان يقول :
كأن من يقتلنى محقق مشيئتى
ومنفذ ارادة الرحمان
لانه يصوغ من تراب رجل فان
اسطورة وحكمة وفكرة

كان يقول :
ان من يقتلنى سيدخل الجنان
لانه بسيفه أتم الدوره
لانه أغاث بالدماء اذ نخس الوريد
شجيرة جديبة زرعها بلفظى العقيم
فدمت الحياة فيها ، طالت الاغصان
مثمرة تكون فى مجاعة الزمان
خضراء تعطى دون موعد ، بلا أوان
وحين اسلمه السلطان للقضاء

(انظر كتاب : صلاح عبد الصبور ، مأساة الحلاج ، مسرحية شعرية ، بيروت منشورات دار الاداب ، ١٩٦٥ ، صفحات ٢٠ ـ ٢٢)

ورده القضاة للسلطان
ورده السلطان للسجان
ووشيت أعضاؤه بثمرة الدماء
تم له ماشاء
هل نحرم العالم من شهيد ؟
هل نحرم العالم من شهيد ؟

٤ - ظاهرة الشعور بالعداوة وبعض انماطها وعواملها :

تحدثت قبل ذلك عن « مفهوم العنف » وذكرت ان العنف هو سلوك عدوانى ، أو هو وليد الشعور بالعداوة . وذكرت أيضا ان الشعور بالعداوة قد يوجه ضد الطبيعة أو يوجه من افراد إلى أفراد أو من أفراد الى جماعات منتظمة أو من جماعات منتظمة الى جماعات أخرى منتظمة .

وفى ضوء ماسبق نجد ان مفهوم « الارهاب » بمعنى السعى للحصول على السلطة والسلطان بالقوة والعنف ، سواء أكانت الجماعات القائمة بهذا الارهاب من الاقليات أم كانت من جماعات الأغلبية - موجود فى كل زمان ومكان . ولكن الملاحظ ان الارهاب ، الذى يواكبه العنف بالضرورة ، يستشرى فى دول العالم فى الوقت الراهن . وبفضل وسائل الاعلام العديدة التى جعلت من العالم الذى يعيش بنو البشر بين جنباته مجرد قرية صغيرة ، أصبح الارهاب يكاد أن يوجد فى كل مكان فيها . فهو موجود فى الوقت الحاضر فى جميع قارات العالم .

وفى ضوء الواقع نلاحظ ان اساليب الارهاب متنوعة ، فقد يستعمل الارهابيون كل أنواع وسائل العنف (المتفجرات

واختطاف الطائرات أو البواخر أو الاسلحة النارية مثلا) . ونحن نلاحظ ان كل جماعة من جماعات الاقليات أو جماعات الاغلبية يرى أعضاؤها أن أهداف ارهابهم مشروعة : كل من وجهة نظره . واذ أتساءل عن هذه الوجهة النظر ، لكى أيسر على القارىء الكريم التعرف على ماسبق ذكره ، السؤال الضرورى وهو : الارهاب الذى يستخدم الوسائل العنيفة المتنوعة ضد من ؟ فاننى اجد كما يجد غيرى ان الاجابة عن هذا السؤال تكون فى العادة اجابة متحيزة ! وذلك لاننا نلاحظ انه باسم « الوطنية » مثلا تشن الحروب التى يكون ضحاياها الملايين من البشر ، والتى تدمر الحضارات وتقف فى بعض الاحيان أو فى الحقيقة فى الكثير من الاحيان فى سبيل ازدهارها وتنميتها ، فضلا عما تجلبه من الهلع والدمار النفسى للاطفال وكبار السن والمعوقين والمعوقات .. الخ (انظر سيد عويس : المعجم العربى فى العلوم الاجتماعية ، المركز الاقليمى العربى للبحوث والتوثيق فى العلوم الاجتماعية)

واود ان اعترف للقارىء الكريم ان الموضوع الحالى لايقصد أن يتحدث عن مفهوم الارهاب ولكن هدف اهدافه التحدث عن ظاهرة الشعور بالعداوة وبعض أنماطها وعواملها . ولولا أن الصلة وثيقة بين هذا المفهوم وبين ارتباطه بظاهرة الشعور بالعداوة التى هى كما سبق أن أوضحت معناها ، فاننى ارجو ان لايمل القارىء الكريم من هذا التكرار علما بأننى لم أذكر شيئا كثيرا مما سبق . وسيتضح للقارىء الكريم فيما بعد وجاهة هذا التكرار وان كنت مازلت مصرا على موقفى من هذا الرجاء .

وانماط الشعور بالعداوة عديدة . نلاحظ وجود هذا الشعور وهو يوجه من الذات الى خارجها . وفي هذه الحالة يعمل على مستويات معينة . منها مستوى الشعور بالعداوة المركز على أشخاص . معينين . ومنها مستوى الشعور بالعداوة المركز على جماعات معينة أو مستوى الشعور بالعداوة الجماعى ، وهناك مستوى آخر لهذا الشعور يوجه عادة ضد الذات من داخلها ، وقد ذكرت من قبل أمثلة على هذا المستوى منها الانتحار مثلا .

ومن أنماط الشعور بالعداوة مايعتبر عدوانا مزاغا او منحرفا ، اى انه لاينعكس ضد المصدر الاصلى بل يحيد عنه وينحرف ضد مصدر اخر بديل . ويعتبر هذا النمط من الشعورعاملا هاما من عوامل الصراع العنصرى أو الصراع الثقافى . ومن الظروف التى تحدد هذا النمط نجد الوان الاحباط او الحرمان التي يفرضها بعض المصادر الغامضة ، اى المصادر التى يصعب تعريفها او تحديدها ، أو تلك التى يفرضها الاشخاص الذين يكونون من ذوى النفوذ والسلطان على الشخص الذى يمارس هذا النمط من الشعور التى تفرضها المنظمات الثقافية الاجتماعية ذات النفوذ والسلطان ، أو التي يفرضها أشخاص يرتبط هذا الشخص بهم عاطفيا ارتباطا وثيقا (الأشخاص المتطرفون سواء كان تطرفهم سياسيا أو دينيا أو اجتماعيا مثلا) . ومن الظروف التى تحدد هذا النمط تلك التى تمنع الوان الشعور بالعداوة المثارة من التعبير المباشر تجاه مصادر الاحباط الاصلية ، وبخاصة عندما يكون بديل الهدف الاصلى للعدوان متاحا ويكون واضحا ومن الممكن مهاجمته ، بمعنى ان يكون فى وضع لايمكنه من رد العدوان .

ويبدو انه فى حالة العدوان المباشر نجد ، دائما ، قدرا من العدوان المزاغ يصاحبه والذى يضيف الى قوة منطقية الاعتداء قوة اضافية .

ونجد من أنماط الشعور بالعدواة نمطا ، آخر ، واسع الانتشار ، وهو نمط متكرر وعلى جانب من الأهمية ، وهو أيضا نمط من أنماط التكوين العاطفى فى المجتمع الانسانى ، ونلاحظ هذا النمط فى سهولة وفى يسر على مستوى البديهيات ، والامثلة العادية عليه عديدة . منها مثال الطفل الذى يعاقبه والده أو تعاقبه والدته فنراه يدمر لعبته أو يقسو على الحيوان الاليف . ومنها مثال الموظف الذى يعامله رئيسه معامله مهينة فنراه يعكس هذه المعاملة على اعضاء اسرته . ومنها مثال رجل الاعمال الصغير الذى يواجه الفشل فنراه ينضم الى احدى الحركات المعادية للاقليات ..

ومن عوامل الشعور بالعداوة ، من حيث زيادة هذا الشعور ومن حيث انخفاض نسبته ، عامل الاحباط أو احدى دلالاته أو حتى وظيفة من وظائفه . فنحن نلاحظ فى ضوء ظروف معينة انه كلما ازداد احباط رغبات انسانية عامة عند شخص معين او عند اشخاص معينين او احباط حاجات اجتماعية لهم ـ كلما ازداد الشعور بالعداوة عندهم . ومن الملاحظ ان الاحباط . من حيث اثاره المترتبة عليه يتباين . فقد يكون مجرد « حرمان من حاجة من الحاجات التى يحتاجها الانسان عادة او قد يكون احساسا بـ « تهديد شخصية هذا الانسان » ومن المتوقع ان ينتج اشد مايكون من الوان الشعور بالعداوة عن الوان من الاحباط التى تتضمن بعض السمات منها تلك التى تقف حائلا امام الامال العادية او امام التوقعات العادية التى تعتبر من الناحية الادبية توقعات منطقية . ومنها تلك التى تولد

الاحساس بانها غير ضرورية ومن الممكن تجنبها . ومنها تلك التى تعتبر تهديدا لنظام امن الشخصية الانسانية كلها ، اى تهديد لاحساس الشخص بمكانته الاجتماعية ، وهذا يختلف بالضرورة عن مجرد حرمان الشخص من حاجة من حاجاته الجزئية .

ويعتبر الشعور بالعداوة ، كذلك احد وظائف الشعور بعدم الامان ، فنحن نلاحظ فى حدود معينة ، أنه كلما ازداد الشعور بعدم الامان كلما ازداد الشعور بالعداوة . وفى ضوء نتائج بحوث ودراسات علوم الاجتماع والنفس الاجتماعى والطب النفسى نجد ان الاشخاص الذين يشعرون بعدم الامان هم انفسهم الذين يعبرون عن الشعور بالعداوة ضد الاخرين .

ويلاحظ ان القلق المرضى قد يتولد عادة من الشعور بالعداوة المكبوت . وهو بدوره يولد الشعور بالعداوة . والمثل الواضح فى المجتمع المصرى المعاصر مايعانيه اعضاء هذا المجتمع من الشباب وبخاصة الذين فى الفئة العمرية من سن ١٥ الى سن ٢٥ ؛ فى ضوء الظروف الاقتصادية والثقافية الاجتماعية والسياسية ، من هذا القلق المرضى . فهم اى هؤلاء الشباب يعانون ليس فقط من هذا النوع من القلق ولكن من أمور اخرى منها عدم وضوح الرؤية . ومنها عدم وجود القدوة الحسنة ، ومنها عدم الاهتمام باشراكهم فى تقرير مصيرهم وتنفيذ الخطوات الضرورية لتحقيق هذا المصير من اجلهم ومن اجل من يأتى من بعدهم الذى يؤكد لهم المستقبل المشرق .

وقد يتخذ الشعور بالعداوة اشكالا متباينة عديدة ولكنها محددة وتكون بالضرورة نتاجا لانماط معينة من المواقف

الاجتماعية التي ذكرت بعضها فى الفقرة السابقة . مع ملاحظة ان العدوان اذا كان علنيا او حتى اذا كان مقنعا لايكون . بالضرورة ، هو الاستجابة الوحيدة الممكنة لتحقيق التكيف الاجتماعى ، وذلك لان « الانسحاب والسلبية والتسامى والاسترضاء والهروب وغيرها من الاستجابات مثلا » قد تكون فى بعض الاحيان ذات اثر فعال فى اضعاف البواعث العدوانية عند الذين يتعرضون للحرمان او للتهديد . ومهما يكن من الامر فانه قد يكون العدوان العلنى اكثر ارضاء عند الشخص من العدوان غير العلنى . وان تكرار الاستجابات البديلة قد يتناسب طرديا مع قوة الاستجابات المتوقعة بالنسبة لتوقيع العقاب على العدوان ، وان تكرار الاستجابات البديلة قد يتناسب عكسيا مع القوة الحافزة للاستجابة التى تتعلق بتحقيق هدف معين وتكون قد احبطت ، وان العدوان المباشر ، يفترض مع كل ذلك ، ان يكون اكثر ارضاء عند الشخص من العدوان غير المباشر .

وفى ضوء خبراتى فاننى ارجو ان يسمح القارىء الكريم بان اذكر احدى التجارب التى مرت علىّ عندما كنت ادرس للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة بوستن فقد نصحنى استاذى «البرت موريس» رئيس قسم الاجتماع والانثروبولوجيا بهذه الجامعة لانضم الى جماعة من طلبة الدراسات العليا بالجامعة لدراسة مادة العلاج الجماعى تحت اشراف الدكتور « روبرت و . هايد » وكيل المستشفى السيكوباتى بمدينة بوستن فى خلال المدة من يوم ٣١ من شهر مايو عام ١٩٥٥ الى يوم ٨ من شهر يوليو عام ١٩٥٥ . وكانت هذه الجماعة عشرة اعضاء كنت واحدا منهم ، وكان موضوع البحث الذى كان على هؤلاء الطلبة ان يقوموا

باجرائه جماعيا « الشعور بالعداوة »

وكان من نتائج هذا البحث الجماعى بعض اساليب التعبير عن هذا الشعور ، وقد استطاعوا اقصد اعضاء اللجنة وقد ضم اليهم الدكتور المشرف ومساعده الوصول الى ثلاثة وعشرين اسلوبا من اساليب التعبير عن الشعور بالعداوة هى :

الاثارة - كون الشخص متسلطا - التعبيرات البدنية - المعارضة المطلقة - مركز الانتباه - التمييز ضد - المعاملة فى غير احترام مع الانانية - ارباك الاخرين - التعبير عن الاحساس بالسمو - المزاح - الاسلوب العقلى - المعاملة النفعية - الجزع الزائد على الحد - الاعتداء البدنى - الوقاحة - الاسقاط - التحكم التام مع التسليم بذلك - تحميل شخص ضعيف خطايا غيره - عقاب الذات - المعاملة الصامتة - افساد ذات البين - لهجة الحديث - الاذعان دون اقتناع .

والملاحظ ان اعضاء الجماعة المذكورة قد انتهوا الى ان التعبير السليم عن الشعور بالعداوة ، وان كان مجرد اقتراح قدمته الجماعة لتجربته ومحاولة اثبات فعاليته عن طريق التجربة يتفق اجمالا دون ماتفصيل مع مضمون الاية القرآنية الكريمة :

« ولاتستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى احسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » (٣٤ ك فصلت : ٤١)

(انظر كتاب : سيد عويس ، محاولة فى تفسير الشعور بالعداوة ، القاهرة دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، ١٩٦٨ ، صفحتا ١٠٥ - ١٠٦ وصفحة ١١٧)

أمثلة حية معاصرة
عن بعض أنماط العنف

٥ ـ حول مشكلة الانتحار

على الرغم من ان المصريين الاقدمين كانوا يعملون كل مايستطيعون من اجل الخلود اى لكى يحيوا بعد الموت . وعلى الرغم من ان فكرة الحياة بعد الموت احتلت فى انفسهم المكانة العظيمة . وعلى الرغم من انهم كانوا يخلدون الروح فى قول ، وكانوا يؤمنون بالقيامة والبعث وفى كلتا الحالتين كانوا يؤمنون بالخلود الشخصى بعد الموت .

وعلى الرغم من ان المصريين المسيحيين يؤمنون أيضا بالحياة بعد الموت ، حيث يرجع « التراب » (أى الجسد) الى الأرض كما كان وترجع الروح الى الله الذى اعطاها « جامعة ١٢ : ٧ »

وعلى الرغم من ان المصريين المسلمين يجمعون على ان الموت ليس بعدم محض ، وانما هو انتقال من حال الى حال .

وعلى الرغم من ان العنف هو عدو السلام وان الدعوة الى السلام هى دعوة الى الحياة ، وان حفظ الحياة هو هدف الاهداف .

على الرغم من كل ماسبق نلاحظ فى ضوء ماتحدثت عنه عن موضوع « متصل السلوك العدوانى الانسانى » (انظر : ثانيا رقم ٣ من الكتاب الحالى) فاننا نجد من المصريين من يحاولون الانتحار او ينتحرون فعلا . صحيح ان عدد هؤلاء واولئك عدد قليل فى ضوء احصاءات تقارير الامن العام السنوية ، ولكننا نجدهم من حين الى حين باستمرار اى على مر السنين والاعوام . ولعل قلة عدد من يحاولون الانتحار او ينتحرون فعلا من المصريين سواء اكانوا مسلمين ام مسيحيين الذين يمثلون الوحدة الوطنية فى بلادنا العزيزة ، ترجع الى التراث الذى ذكرته آنفا ، وترجع ايضا الى تعاليم الديانة المسيحية والى تعاليم الديانة الاسلامية .

والملاحظ ان الاساليب المستخدمة فى الشروع فى الانتحار أو الانتحار فى بلادنا تعكس ماوصل اليه المجتمع المصرى من مستوى تكنولوجى . فالمصرى الذى يشرع فى الانتحار أو حتى الذى ينتحر يستخدم اساليب لايستخدمها الانجليزى أو الروسى أو الامريكى أو اليابانى . وبالمثل نجد ان عوامل الشروع فى الانتحار او الانتحار عوامل متباينة وذلك لان العناصر الثقافية التى توجد فى كل مجتمع من المجتمعات التى يعيش فيها المصرى والانجليزى والروسى والامريكى واليابانى متباينة كذلك .

وكان اول عهدى بدراسة ظاهرة الانتحار دراسة علمية عندما كنت ادرس الدراسات العليا للحصول على درجة الدكتوراه . كان علىّ ان امتحن امتحانا اترجم فيه فصلا من فصول كتاب باللغة الفرنسية الى اللغة الانجليزية ، وطلب منى ان اقرا كتاب « اميل دوركايم » عالم الاجتماع الفرنسى عن « ظاهرة الانتحار » باللغتين الانجليزية والفرنسية (لغته

الاصلية) واننى اذكر اننى كنت افعل ذلك كل يوم لمدة ساعة لفترة ثلاثة شهور . وكنت اقتدى بعلى ماهر الذى لم يكن يعلم عن اللغة الالمانية شيئا واضطر ليتعلمها عندما شكلت لجنة وضع دستور عام ١٩٢٣ لكى يطلع على الدستور الالمانى للافادة منه . كان على ماهر قد فعل مافعلته ، اقصد اننى فعلت مافعله على ماهر ، وهذا طبعا مع الفارق . كان على ماهر يفعل مافعل عن طواعية فلم يكن امامه امتحان فى اللغة الالمانية ، وكنت مضطرا لاذاكر اللغة الفرنسية حتى اجتاز امتحان الترجمة المطلوب منى قهرا .

وقد درس « دوركايم » مشكلة الانتحار فى مظهرها الاجتماعى ، وذلك من خلال ما يكشف عنه تحليل الاحصاءات الرسمية من تكرار حدوث الشروع فى الانتحار او تكرار حدوث الانتحار فى مجتمع معين ، وفى وحدة زمنية محددة أو على مدى اكثر من وحدة زمنية واحدة ، واقتضى منهج دوركايم الاشارة الى دلالة هذا التكرار وتغايره زمانا ومكانا فى مجتمع واحد أو اكثر . وارتباطه أو مصاحبته لظواهر أو مشاكل أو تغيرات اجتماعية تجرى أحداثها فى نفس الفترة الزمنية أو تسبقها بقليل على مسرح المجتمع موضع الدراسة .

وقد انتهى « دوركايم » فى دراسة ظاهرة الانتحار الى تصنيف معين بعد أن حاول ان يعرف ظاهرة الانتحار بمايلى :

« اصطلاح ظاهرة الانتحار يطبق على أى موت يكون نتيجة مباشرة أو غير مباشرة لفعل ايجابى أو سلبى قام به المجنى عليه نفسه » .

ولكن « دوركايم » لاحظ ان هذا التعريف غير كامل فاعاد

صياغته فيما يلى :

« اصطلاح ظاهرة الانتحار يطبق على جميع حالات الموت التى تكون نتيجة مباشرة او غير مباشرة لفعل ايجابى للمجنى عليه نفسه الذى يعلم انه سيحدث هذه النتيجة »

أما اصطلاح ظاهرة الشروع فى الانتحار فقد عرفه بمايلى :

« هو الفعل الذى لايصل الى حد حدوث الموت فعلا »

وقد اكد « دوركايم » على أن التعريف الاخير لايمكن ان ينطبق على الحيوانات . .

وقد انتهى « دوركايم » فى دراسته عن الانتحار الى التصنيف التالى :

- الانتحار الاثرى (الذى يرتكبه الشخص الانانى أو المحب لذاته) ويرى « دوركايم » ان هذا النمط من الانتحار يكون ناتجا عن عدم تكامل شخصية الفرد فى المجتمع الذى يعيش فيه .

- الانتحار الايثارى (الذى يرتكبه الشخص مفضلا غيره على نفسه) : ويرى « دوركايم » ان هذا النمط من الانتحار يبدو على صور الاستشهاد والتضحية والفداء وموت الجنود في الحروب باسم الوطنية وبقصد استعمار الاخرين واستعبادهم .

- الانتحار اللامعيارى : ويرى « دوركايم » ان هذا النمط يظهر فى فترات الاضطراب واختلال التنظيم الاجتماعى وخصوصا فى خلال الثورات والتغيرات الاجتماعية الحادة وتحت وطأة الازمات الاقتصادية حيث تهتز القيم ذات الاهداف الحميدة وتضطرب عناصر الثقافة فى المجتمع . وقد

وصل دوركايم الى فكرة اللامعيارية فى دراساته الاخرى حتى اصبحت تستخدم فى تحليل عدد من المشاكل الاجتماعية الشخصية . واعطاها مضمونا عكس مضمون التضامن الاجتماعى ، فاذا كان التضامن الاجتماعى يعبر عن حالة من التكامل الايديولوجى الجمعى ، فان اللامعيارية تعتبر حالة من التخبط وانعدام الأمن وفقدان المعايير الامر الذى تصبح معه التمثلات الجمعية منهارة تماما .

ومن الامثلة التى ذكرها « دوركايم » بهذا الصدد مثال الغنى المفاجىء فهو يرى انه احد الدوافع الى الانتحار على اساس ان الفرد الذى أصبح غنيا ولم يكن يتوقع ذلك لا يستطيع ان يكافح الفرص الجديدة التى اتيحت له ، ومن ثم فان حدود رغباته العالية او المنخفضة التى كان يرنو الى تحقيقها ، ودرجات سلم حياته ، اصبحت كلها قد تزعزعت واضطربت .

وضرب دوركايم مثلا اخر عن « الطلاق » وهو يرى انه اذا وقع الطلاق بين الرفقاء فإن نسبة ارتكاب الانتحار تعلو . وان الموقف اللامعيارى الذى يواجهه الازواج المطلقون اصعب من الموقف اللامعيارى الذى تواجهه الزوجات المطلقات . منلك لان الازواج هم الذين يكتسبون اكثر من تاثير الزواج المنتظم .

والملاحظ ان « اميل دوركايم » فى دراساته وبخاصة دراسته عن مظاهرة الانتحار كان فى حقيقة الامر يؤدى دور عالم النفس الاجتماعى على الرغم من معارضته لعلم النفس . كان فى هذه المجالات فى الواقع يعارض « علم النفس

الفردى » وقد تجاهل دور كايم بطريقة منتظمة اهمية « مفهوم القوة » وكان يرى « ان الناس يوافقون على امور معينة لانهم ببساطة يرغبون فى ان يوافقوا . ونجد « دوركايم » اذ يتجاهل السلطة او القوة فانه يتعمد ان يتجاهل ان التعليم قوة وان عوامل الانتاج اذا امتلكها بعض الافراد لايرى فى ذلك قوة ، وكان لايرى القوة السياسية . ومع ذلك فانه كان اهتمامه يبدو واضحا وهو يتحدث عن « مفهوم الثقافة » وكان يفترض ، دون ان يثبت ذلك علميا ، أن ثقافة المجتمع ثقافة متجانسة .

ولابد ان اذكر ان « اميل دوركايم » كان رائدا علميا وهو يدرس موضوع ظاهرة الانتحار او الشروع فيه ، ولكننا نحن نعلم فى الوقت الحاضر اكثر مما وصل اليه فى دراسته من نتائج (انظر سيد عويس : ظاهرة الانتحار لاميل دوركايم ، باللغة الانجليزية المجلةالجنائية القومية العدد الاول ، مارس عام ١٩٧٢ ، صفحات : ١١٢ ـ ١٢٢)

وقد واجهت التفكير فى الانتحار بقصد ايذاء ذاتى عن طريق مواجهة العنف حيث تتنازع الانسان مناخ هذا الموقف ، كمرحلة اولى من متصل السلوك العدوانى الانسانى الذى ذكرته من قبل ، قوتان : قوة القاتل وقوة القتيل معا ، قوة الجانى وقوة المجنى عليه فى وقت واحد . فقد كان تفكيرى بقصد تدمير ذاتى وهدم كيانى واعدام وجودى . فكرت فى القيام بهذه الفعلة الشنعاء عندما لاحظت بعد عودتى من الخارج فى اواخر شهر مايو عام ١٩٥٦ حاملا درجة الدكتوراه فى جعبتى ولم يتفضل احد من جماعتى المرجعية بزيارتى حيث كنت اجتاز محنة التعطل ولم يكن لى مصدر مالى اعيش به واسرتى الصغيرة حياتى الانسانية ، كنت وحيدا اعزل ومنعزلا . وكادت ان تضطرب صحتى النفسية من جراء ماكنت

اعانيه فى ذلك الحين من تناقضات بين حقوقى والتزاماتى وبين الامكانات التى كانت تحت يدى فضلا عن تصورى لتوقعات الاخرين وبخاصة من اعضاء جماعتى المرجعية . وانني اذكر انني كنت ضائعا حقا واحترم اعضاء اسرتى الصغيرة صمتى وعذوفى عن الدنيا .. ووصلت الى نتيجة حاسمة . وجدتنى فجأة افكر فى الانتحار وكانت فكرة لم تمكث الا برهة وجيزة بددتها تذكرى لمواعظ استاذى الشيخ محمود خطاب السبكى حيث كان يندد فى مواعظه بالقتل على وجه العموم (اخذا بالثأر) او بقاتل نفسه . كان يرى ان هذه الافعال ان هى الا جرائم من وجهة نظر تعاليم الديانة المسيحية (قتل السيد المسيح عليه السلام مثلا) ومن وجهة نظر تعاليم الديانة الاسلامية . وكان يؤكد رحمه الله جل وعلا على ان تمنى الموت لايدل على ايمان من يتمناه ، ويذكر الاحاديث النبوية التى تفصح عن ذلك ، ومنها :

عن ابى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لايتمنى احدكم الموت اما محسنا فلعله يزداد ، واما مسيئا فلعله يستعتب » (متفق عليه) .

واننى اذكر مجيىء احدى الآنسات الى « المعهد القومى للبحوث الجنائية » قبل ان يصبح « المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية » وذلك قبل عام ١٩٥٩ وكانت تحمل هذه الانسة دراسة عن « ظاهرة الانتحار لاميل دوركايم » كتبتها باللغة الفرنسية لترينى كم هى بارعة توطئة لكي تنضم الى باحثى المعهد المساعدين فى ذلك الحين . كان قد ارسل هذه الانسة الىّ احد الاصدقاء . ولما لم اكن ادير المعهد ومن بعده المركز . ولا سلطة ولا سلطان فى يدى فاشرت عليها ان تذهب الى الاستاذ المدير فلعله ان يقتنع بشخصيتها ويكون

من نصيبها ان تعمل باحثة مساعدة . وقد حدث ذلك فعلا ومازالت تعمل بانسجام حتى وقت كتابة هذه السطور .

وقبل ان اختم موضوع الانتحار اود ان ابين للقارئ الكريم ان المصريين القدماء أو بعضهم فى ضوء نتائج احدى الدراسات العلمية التي قمت باجرائها (عطاء المعدمين : نظرة القادة الثقافيين المصريين المعاصرين نحو ظاهرة الموت ونحو الموتى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٣) انه لم تكن الحياة فى بلد من البلدان ، غير مصر ، اكثر جاذبية أو اكثر اشتهاء . ومع ذلك فلايوجد ايضا بلد من البلدان ، غير مصر ، أميط اللثام عن الموت ، فيه ، بمثل هذا الوضوح ، ومن ثم فلاعجب اذا كان المصريون القدماء قد حملوا الى درجة التعصب ، كراهية ومقتا للموت ، وخصصوا جزءا غير صغير من اموالهم لتدبير الطرق والوسائل لغلبته ، ولعل هذه الخاصية النفسية الجوهرية ، عند المصريين القدماء ، تكشفها الكلمات الرئيسية للاستغاثة المنقوشة على الكثير من شواهد قبور المملكة المتوسطة . وتحض هذه الكلمات عابرى السبيل على ترتيل الدعوات بالنيابة عن المتوفى :

« انت الذى تعيش وتبقى ، انت الذى تحب الحياة وتمقت الموت ، كل من يمر على هذا القبر ، كما تحب الحياة ، وتمقت الموت ، لهذا السبب فانك تهب لى بكل مافى يديك »

وقد بينت الدراسة المشار اليها انه اذا كان المصريون القدماء منذ الاف السنين ، فى الماضى السحيق ، يخافون الموت ويمقتونه ويكرهونه احيانا ، ولايخافون الموت ولايمقتونه ولايكرهونه احيانا اخرى ، فان المصريين القدماء ، مثل المصريين المعاصرين ، كانوا فى معظم

الاحيان لايخافون الموتى (انظر كتاب سيد عويس « الخلود فى التراث الثقافى المصرى » القاهرة ، دار المعارف ١٩٦٦ ، صفحات ٩٢ - ٩٣ و٢٨ - ٢٩ و٤٤ - ٤٥)

والملاحظ ان انتحار الانسان هو اقصى مراحل ايذاء ذاته ، ومع ذلك فاننا نلاحظ ان شرب « القهوة » و« الشاى » و« التدخين » و« تعاطى الخمر » و« تعاطى المخدرات بأنواعها » هى مراحل من مراحل ايذاء الذات ، والأدمان عليها يؤكد هذا الايذاء . والمقصود بمفهوم « الادمان » هنا فى ضوء تعريف منظمة الصحة العالمية الذى تبنته فى عام ١٩٥٧ انه :

« حالة التسمم « التخدير » الدورية او المزمنة الناتجة عن تكرار تعاطى المادة » وتتميز هذه الحالة ببعض الصفات هى :

- رغبة قهرية للاستمرار فى تعاطى المادة والحصول عليها بأية وسيلة .
- الميل الى زيادة الجرعة .
- ظهور اعتماد نفسى وعادة اعتماد جسمانى للتعاطى
- تأثير مدمر على الفرد والمجتمع

وقد تبنت المنظمة المذكورة مفهوما اخر هو التعود ويقصد به :

« الحالة الناتجة عن الاستعمال المتكرر للمادة »

والملاحظ ان سماتها يمكن تمييزها فيما يلى :

- رغبة (ليست قهرية) للاستمرار فى تعاطى المادة لرفع معنويات المتعاطى .
- عدم الميل الى زيادة الجرعة .
- ظهور الاعتماد النفسى الى حد ما مع عدم ظهور اعتماد

جسمانى مطلقا وبذلك لاتظهر اعراض الانقطاع عند عدم الاستمرار فى التعاطى .

ورأى المتخصصون فى مواد العقاقير المخدرة تداخل استعمال هذين التعريفين وان استعمال تعريف « الادمان » فى ضوء الصيغة السابقة ، يكون فى حقيقة الامر فى غير موضعه الدقيق حيث ان الادمان بالصورة التى ذكرت لاينطبق الا على عدد محدود جدا من المواد المخدرة مثل « الافيون والمورفين والهيروين » فى حين توجد مواد مخدرة اخرى لاينطبق عليها هذا التعريف الا انها اخطر المواد المخدرة التى عرفها القانون مثل مواد « الحشيش والكوكايين والمهلوسات » . لذلك فقد رأت لجنة المخدرات بالامم المتحدة استبعاد هذين التعريفين واستخدام تعريف اخر اكثر شمولا للتطبيق وهو مصطلح « الاعتماد » الذى يقصد به :

« الحالة التى تنشأ من التعاطى المتكرر سواء كان دوريا او مستمرا »

والنظرية الاكثر شيوعا فى تفسير الاعتماد على « العقاقير المخدرة » تقوم على ملاحظة ان الخصائص الاكلينيكية لاعراض التوقف عن التعاطى تكون فى طبيعتها على عكس الخصائص المهدئة للعقار . (المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية : شبعة المخدرات ، دراسة غير منشورة ١٩٨٧) .

٦ ـ بعض جرائم القتل :

ويتدرج « متصل السلوك العدوانى الانسانى » من حالة ايذاء الذات واستخدام العنف فى ذلك للدرجة التى يقتل الجانى نفسه او يحاول الشروع فى هذا القتل ، او تعاطى

انواعا شتى من المكيفات التى تنتهى بفقدان حياته على الرغم من معرفته بذلك ، وقد يكون الاعتداء على الاموال بالسرقة اى باختلاس مال منقول للغير ، او يكون الاعتداء على الاداب العامة التى تنفر منه قيم المجتمع الحميدة . ويكون الاعتداء على الدولة بالتجسس فى غير مصلحتها .. الخ . وقد ذكرنا ذلك وغيره من قبل .

ولاجدال فى ان جريمة القتل من اخطر جرائم الاعتداء على الاشخاص ، ولقد حرمته جميع الشرائع السماوية والوضعية ، واستنكرته جميع المجتمعات فى الازمان القديمة والحديثة . وقد اهتم الكثير من الباحثين فى مجالات علم الاجرام وعلم النفس الاجتماعى فى البلاد الغربية بدراسة هذه الجريمة محاولين معرفة العوامل التى تؤثر على بعض بنى البشر فتدفعهم الى الارتكاب هذه الجريمة .

وكان من هؤلاء استاذى « البرت موريس » الذى آلى على نفسه اجراء بحث عن جريمة القتل . وقد تفضل ، وكنت احد تلاميذه ، ان يشركنى فى جمع مادة بحثه ، وقد اعد المنهج الذى استخدمه قاصدا ان يكون طريقة لدراسة انماط الجرائم الاخرى . وكان هذا المنهج يرى ان التعريف القانونى للجريمة ، وبخاصة لجريمة القتل ، اولى بالاختيار والاعتماد عليه الا اذا كانت نتائج البحث تعد له بالاضافة اليه او بغير ذلك . وكان هذا المنهج يهتم اهتماما كبيرا فى حالات الجرائم (القتل + السرقة + تعاطى المخدرات مثلا) باسلوب ارتكاب هذه الجرائم . فهو اقصد البروفسورالبرت موريس كان يؤكد لنا على ان اسلوب ارتكاب الجرائم يعكس المستوى التكنولوجى للمجتمع الذى ارتكبت فيه احدى الجرائم السالفة الذكر . فالقتل مثلا قد يستخدم فى ارتكابه استخدام

المسدس او البندقية ، وقد يستخدم في ارتكابه اساليب اخرى كالذبح او الضرب بآلة حادة او بغير الة حادة او كالخنق او يستخدم اسلوب الحريق او القذف من مكان عال او من عربة وهى تسير ، والسم والغرق والصدمة الكهربائية او الاهمال المتعمد .. الخ . ويتضمن هذا المنهج الظروف التى تيسر للقاتل ان يرتكب جريمة القتل ، فضلا عن السمات التى يتحلى بها القاتل وبخاصة سمات النوع (الذكور والاناث) ، ومستوى الذكاء وحالة صحته العقلية . وكان دور المجنى عليه او عليها موضع الاهتمام . وكان يرى البرت موريس ان للمجنى عليه دورا فى ارتكاب جريمة القتل وبعض الجرائم الاخرى كالجرائم الجنسية مثلا ، وصلة الجانى بالمجنى عليه كان يراها البروفسور موريس تساعد عل تفسير ارتكاب جرائم القتل . وكذلك المجتمع الذى نشأ بين جنباته والمناخ الثقافى الذى عاش تحت ظله ، فضلا عن الظروف الاجتماعية ككل ، فقد كان يرى ان القوى الاجتماعية هى التى تساعد على تغيير السلوك الانسانى . واهتم منهج البحث بالعواقب الاجتماعية لجريمة القتل وبخاصة ماتعلق منها بحوادث المرور وقتل السياسيين .

ومهما يكن من الامر فان البروفسور موريس كان يؤكد اهمية دراسة جرائم القتل مرارا وتكرارا اذ كان يقول لمساعديه وكنت واحدا منهم انها من الجرائم اللامعة اجتماعيا .

واذا كانت جميع جرائم القتل ، كما يذكر ذلك احد البحوث التى اجراها المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية (انظر : المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية : ملامح جريمة القتل ، عام ١٩٧٠) ـ تتضمن عنصرا من عناصر

العنف وذلك لان الشخص الذى يقتل انما يقضى على حياة شخص بطريقة اجرامية . فان هذا البحث فى ضوء نتائجه يرى ان هذا العنف الذى يصاحب القتل يتدرج من حيث الشدة . فالبعض من القتلة تنتهى جريمته بمجرد القضاء على المجنى عليه ، ولكن البعض الاخر قد يستمر فى عدوانه على المجنى عليه حتى بعد موته كما يبدو ذلك واضحا فى حالات التمثيل بالجثة .

وذكر البحث المشار اليه فى هذا الصدد تصنيف القتلة تبعا لما قاموا به من عنف فى اثناء ارتكابهم لجريمتهم . وذكر ان التصنيفات التى اتبعها « جاروفالو » تتعلق بالطريقة التى ارتكبت بها الجريمة . فعندما يستخدم القاتل التعذيب او يطيل فى عملية القتل بقصد ايلام المجنى عليه ، فانه اى جاروفالو على يقين بان ذلك يرجع الى قسوة القاتل الفطرية ! فليس هناك انسان سوى يستطيع ان يتحمل انين الضحية او منظر تشويه الجثة . فالتعذيب فى حد ذاته دليل كاف على انعدام عاطفة الرحمة حتى ولو لم يكن قصد القاتل واضحا . وذكر هذا البحث ان فى بعض الوسائل المستخدمة فى جريمة القتل نوعا من استخدام العنف اكثر من غيره كما فى حالة استخدام الشنق او الخنق او الطعن باداة حادة كالبلطة مثلا فى مقابل استخدام السم .

- **شاب قتل مرتين فى مدينة القاهرة :**

وفى ضوء احدى الدراسات العلمية الاجتماعية التى قمت بها عن شاب مصرى فى الثالثة والعشرين من عمره ارتكب جريمتى قتل : الأولى قتل فيها رجلا بالاشتراك مع اخر والثانية قتل فيها احدى السيدات بالإشتراك مع اخرين . وقد حكم على هذا الشاب بالاعدام فى كل من الجنايتين - تبين ان

هذا الشاب قد ولد وكان عمر ابيه ٤٥ عاما . وقد ولد بعد ميلاد ثلاث بنات ، ويبدو انه نشأ مدللا ولا يحتمل ابواه (وخصوصا والده) اى شخص يمسه بسوء او اهانة .

وكان فى الاسرة اخوه الاكبر ، شاب مجتهد ، كان محل اهتمام جميع اعضاء الاسرة كان متميزا عن ابناء الاسرة وبناتها فى كل شيء . فله مدرس خاص ليتعلم الموسيقى وحجرة خاصة منفصلة عن باقى الحجرات ، كذلك له دراجة للذهاب بها الى المدرسة .. الخ ومن ثم تحدد للشاب موضوع الدراسة ، تعسفيا ، مستوى معين من الطموح عليه ان يعمل جاهدا للوصول اليه لتحقيق امال الاسرة .

ويبدو ان هذا الشاب لم يأبه كثيرا للسعى فى سبيل تحقيق مستوى الطموح الذى حددته له مكانة اخيه الاكبر خصوصا فى خلال الفترة التى كان ابوه فيها يستطيع ان يرعاه بشخصه واكتفى بالدلال الذى سمح ابوه له به والذى بلغ حد التساهل فى بعض الاحيان .

ان اسرة الشاب قد كفلت له كل حاجاته المادية والمعنوية حتى تركها الى القاهرة ليعيش مع جدته واخته واخيه الاكبر . وكان امل الاسرة ان يقتفى اثر اخيه الاكبر فى التعليم والنجاح فى يسر وسهولة ، وفات الاسرة ان الشاب كان مدللا كان مستمراً الدلال الذى سمح ابوه له به الى حد بعيد ، الى حد انه استطاع ان « يعاند » جميع اعضاء الاسرة ومن بينهم والدته التى كان يحبها وكاد ذات مرة ان ينتحر من اجلها . ونجح الشاب فى استخدام سلاح العناد فى مختلف مراحل حياته .

وأصبح الشاب بفضل هذه المعاملة الثنائية يشعر ببعض الكبرياء الكاذب وانه شخص مهم أو يجب ان يكون شخصا

مهما ولو كان ذلك على حساب شعور الاخرين ومصالح الاخرين ، سواء كانوا اقرب الناس اليه او لم يكونوا . فمثلا يلعب « بتصاص » صغير وقرناؤه يلعبون « بتصاصات » أكبر ، هذا محال فيسرق من « حصالة » اخيه الاصغر ليشترى « تصاصا » اكبر ولا يحاسب على ذلك .

واستمرأ الشاب هذا السلوك غير السوى ، ورفض أن يجارى رغبات الاسرة فيسعى فى سبيل تحقيق المستوى التعسفى للطموح الذى حددته له ظروف اخيه الاكبر ، فبدلا من ان يكون هذا الاخ مثالا يحتذى صار مثالا يكره . اى انه بسبب التمييز فى المعاملة بين الشاب واخيه الاكبر ، ووضع مستوى تعسفى للطموح فى شخص الاخ الاكبر امام الشاب نبت الشعور بالعداوة عنده ضد الاخ الاكبر .

كره الشاب اخاه مافى ذلك من شك . وخصوصا عندما اصبح الاخ الاكبر رب الاسرة الحقيقى (اى عندما كان الشاب فى الرابعة عشرة من عمره ويعيش مع اخيه فى القاهرة) وكرهه . لانه فى مركز احسن ، فهو طالب فى كلية الهندسة ، والشاب مازال فى السنة الاولى الثانوية . كرهه لانه منافسه ، كرهه لانه ابعد من ان يكون مصدرا للتساهل معه . واخيرا كرهه لانه أصبح مصدر هوانه ، فالاخ الاكبر فى حدود قيمه الاجتماعية التى كان يرى ان اهدافها حميدة ، لم يعامله المعاملة التى يجب ان تكون . كان يضربه ويسبه وكان يكشف نقاط ضعفه فى عنف وفى قسوة فى بعض الاحيان .

لم يستطع الشاب ان يصادق اخاه الاكبر رب الاسرة ومثله الاعلى المفروض عليه . وفشل الاخ الاكبر فى تقبل الشاب وحبه واحترامه والاعتراف به ، فذهب الشاب الى الشارع

(الى الشلة) . فلعله ان يجد فيها اشباعا لبعض حاجاته : التقبل والحب والاحترام والاعتراف به .

ومات الاب ، وترك الشاب المدرسة ، وسعى الاخ الاكبر الى ان يلحق الشاب بعمل ثم بعمل ثم بعمل . ولكن الشاب يترك كل عمل لاسباب غير مقنعة . انه ينتقم لنفسه من اخيه الاكبر . انتقم منه قبل موت ابيهما ، عندما كان فى المدرسة بالهرب من المدرسة . وانتقم منه بعد وفاة ابيهما عندما كان يترك كل عمل يلحقه الاخ الاكبر به بدون سبب وجيه .

ويعلل الشاب ذلك بقوله ان اخاه الاكبر كان يجعله يحس امام الناس وخصوصا اعضاء الاسرة « زى الفار » او « اننى صغير وماسواش حاجة » او « انى صغير خالص ماليش صفة » ، وان اخاه الاكبر كان « بيبص لى من فوق تملى »!

ولم يكن الاخ الاكبر وحده يفعل ذلك . بل كان زوج الاخت الكبرى للشاب يخشى من تأثيره على اولاده ، ويمنع اولاده من صداقته .

وفى المدرسة كان المدرسون والناظر وحتى الاخصائى الاجتماعى يعاملون الشاب معاملة غير سليمة . من صورها انه شخص تافه يضرب « الشلوت »

وعن العمل أسأل الشاب لماذا تركه ؟ فيجيب عن ذلك أن احد المسئولين حاول ان يهزأنى او « علشان احفظ كرامتى » !

كان معظم البالغين حول الشاب موضوع الدراسة فى المجتمع الذى كان يعيش فيه ، مصادر هوانه واحتقاره وتفاهته ، ومن ثم مرارته . فهو لم يجد فى الاسرة ماكان يجده عندما كان صغيرا : الشعور بالاهمية . ولم يجد فى المدرسة

الا الاحتقار . ولم يجد في العمل مايساعده على ان لايكون تافها . فذهب الى الشارع حيث المغامرات ، وحيث المكانة الاجتماعية تزداد كلما ازدادت هذه المغامرات .

وجد الشاب في الشارع أشخاصا يواجهون الى حد كبير ظروفا مثل ظروفه : ظروف تشعرهم دائما بان الحياة في بعض صورها شيء لاقيمة له ، ظروف تذكرهم بانهم ليسوا اناسا بل مجرد اشياء وان اعضاء اسرهم ومدرسيهم واصحاب العمل يعيشون على النفاق وبالنفاق ، وان الكثير من امالهم يبدو سرابا .

ان الشاب وزملاءه الذين اشتركوا معه كانوا يسرقون بالدرجة الاولى بقصد الصرف على المأكل والملبس والظهور بالمظهر الذى حرمتهم الظروف منه . اما ارتكاب جريمة القتل فكان وسيلة وليس هدفا في ذاته . وهذا يدل على عدم عراقتهم في ارتكاب جرائم السرقة . فالمجرم الذى يحترف السرقة يهمه ان يسرق فقط ، ويحاول ما استطاع ان يتجنب ارتكاب جريمة اخرى بله جريمة قتل او شروع في قتل .

كان الشاب يسرق ، وكان يصرف كل مايسرقه في اسراف ملحوظ ، ولعله كان يحاول التعويض عما يحس به من تفاهة او حرارة .

وربما كان اتهام الشاب بالشذوذ الجنسى صحيحا . مما زاد في ضوء قيم مجتمعنا في شعوره بعدم الثقة في نفسه ، وخلق فيه الشعور بالتفاهة والدونية ، وربما كان تقبل رفاقه له ، على علاته ، دافعا على التهور في المغامرات ومن ثم استهتاره بالقيم الاجتماعية ذات الاهداف الحميدة التى حاولت اسرته « المحافظة » ان تنشئه عليها . والتى لم تجد من يسهر في

محيط الاسرة او المدرسة أو المنظمة الدينية او النادى الاجتماعى او غيرها من اجهزة عمليات التنشئة الاجتماعية فى المجتمع ، على تثبيتها فى نفسه وبخاصة فى مرحلة المراهقة التى اجتازها تحت سلطان اخيه الاكبر الذى كان فى الحقيقة مصدر معظم عوامل الاحباط التى واجهها الشاب فى هذه المرحلة ، ومن هذه العوامل التمييز فى المعاملة ، وفرض مستوى تعسفى للطموح ، والفشل الواضح فى تقبل هذا الشاب واحترامه والاعتراف به ، ومن ثم كانت كراهيته لاخيه الاكبر ، ومايكنه له من الالوان العديدة من الشعور بالعداوة ، التى انتقلت بدورها عن طريق عملية الازاحة او عملية التحويل الى العالم الخارجى . اى الى المجتمع دون ان يهيىء المجتمع لهذه الكراهية والالوان العديدة من الشعور بالعداوة ، عن طريق منظماته الاجتماعية او اجهزة عمليات التنشئة الاجتماعية فيه ، تطبيق الاساليب السليمة للتعبير عنها ، او يهيىء المجتمع المنافذ غير الضارة الكافية فيه التى ربما كانت يسرت للشاب ان ينفس عن طريقها ، عن هذه الكراهية أو غيرها من الالوان العديدة من الشعور بالعداوة .

ومن ثم نجد تفسير قيادة الشاب لرفاقه وتسلطه عليهم . فقد كان اكثرهم جرأة واستهتارا ولامبالاة لانه اختير له ان يكون اكثرهم تفاهة واكثرهم حاجة الى الشعور بالعداوة ، وان تكون للحياة فى بعض صورها ، فى نظره اقل قيمة (انظر سيد عويس دراسة غير منشورة القيت فى احتفال لجنة العدالة والسلام مساء يوم الخميس ٢٦ من شهر يناير ١٩٧٨ بقاعة النيل)

- جريمة قتل فى المدينة :

فى صباح يوم ٢٧ من شهر اغسطس عام ١٩٦٠ حمل

المدعو (أ) بندقيته المرخصة المملوءة بالرصاص القاتل ، وانتظر السيدة (ر) على محطة « اتوبيس » تقع فى احد شوارع القاهرة المزدحمة ، وهى المحطة التى اعتادت السيدة (ر) الركوب منها ، وهى فى طريقها الى العمل .

لم يعرف احد من الواقفين على محطة الاوتوبيس اى شيء عن المدعو (أ) او السيدة (ر) او عن العلاقات الاجتماعية التى تربطهما او عما يبيته كل للاخر ، لم يعرف احد عن شخصية كل منهما شيئا ، ولم يعرف احد عما يعتمل فى نفس كل منهما شيئا .

وقف المدعو (أ) على محطة الاوتوبيس ينتظر وينتظر . وفى نفسه مشاعر جمة ، متناقضة متصارعة . ولكن لم يلحظ احد من الناس شيئا ، فكل فى طريقه الى عمله او فى طريقه لقضاء حاجاته . مثلهم فى ذلك مثل معظم سكان الحضر . علاقاتهم فى اغلب الاحيان غير شخصية وغير قوية ، وغير متجانسة .

ولم يطل انتظار (أ) على المحطة . فقد جاءت السيدة (ر) لتأخذ اوتوبيسها كالمعتاد فى طريقها الى العمل ، فهى تعمل فى احدى المصالح ، موظفة متواضعة تعمل فى ادارة الحسابات .

واذا كان احد من الناس ، فى الشارع الواسع المزدحم الذى يقع فى وسط المدينة الكبيرة قد لاحظ هذين الشخصين قبل ان تقع الواقعة ، لرأى ان (أ) يتحدث مع (ر) وكأنه يعرض امورا عليها . امور هامة عنده يود لو انها تتحقق فهى تمس كيان نفسه مسا فيه عمق . ولوجد كذلك على وجه (ر) سمات الامتعاض ، وربما سمات التشفى والسخرية . ولو قدر لاحد ان يسمع مادار بينهما من حديث ، لعرف أنهما كانا على

صلة معينة فى وقت من الاوقات ، وانه قد تحطمت هذه الصلة فى الوقت الحاضر ، وانه يرغب لهذه الصلة ان تعود كما كانت ، حتى تعود اليه نفسه المطمئنة ، وحتى يبرأ من بعض الجروح التى ألمت به ، وحطمت كيانه او كادت . ولعرف ان (ر) ترفض رفضا باتا هذه الرغبة فهى لاتريد اعادة الامور بينها وبين (أ) الى مجاريها ، بل تطلب منه صراحة ان يبتعد عن طريقها وان يتركها تأخذ سبيلها فى الحياة دونه .

ولكن لم ير الناس الواقفون على محطة الاوتوبيس شيئا ، ولم يلاحظوا شيئا ، وكذلك لم يسمعوا شيئا مما دار من حديث بين كل من (أ) و (ر) ولم يدر الناس الاخرون الذين يسيرون فى الشارع المزدحم او يلاحظوا شيئا كذلك . ولا يسمعوا شيئا مما دار من حديث بين كل من (أ) و (ر)

لم ير احد من هؤلاء جميعا البندقية المرخصة المملوءة بالرصاص القاتل التى كان يحملها (أ) ولم يروا يده عندما امتدت الى هذه البندقية ، ولا اصابعه عندما ضغطت على الزناد ست مرات ، ولم يروا كذلك الرصاصات الست التى افرغت فى قلب (ر) . ولكن فوجئوا بكل ذلك عندما رأوا شابة يبذو عليها اثار من ملامح الوسامة الصارخة التى كانت ، ولايعدو عمرها الثانية والعشرين سنة ، واقعة على الارض تتخبط فى دمائها ، ثم عندما رأوها جثة هامدة لاحراك فيه ويقف على رأسها رجل لايزيد عمره على اثنتين وثلاثين سنة ، حاملا فى يديه بندقية مازال دخان البارود يخرج من فوهتها ، وكان يبكى بكاء مرا يمزق نياط القلوب . وتطوع حشد منهم للتحفظ عليه . وسارع اخرون يطلبون شرطة النجدة . وجاء رجال شرطة النجدة فى التو والساعة وقبضوا على (أ) بتهمة قتل (ر) . وقف (أ) فى قفص الاتهام امام محكمة الجنايات

بالقاهرة وككل قاتل على صلة وثيقة بالمجنى عليه او بالمجنى عليها ، فقد اعترف اعترافا تفصيليا . فهو قد ولد فى ميت غمر منذ اثنتين وثلاثين سنة ، ونشأ فيها حتى أصبح يافعا . ثم انتقل مع اسرته الى القاهرة المدينة الكبيرة وواجه وهو صبى فى الثانية عشرة من عمره اساليب حياة اجتماعية جديدة تختلف الى حد كبير عن تلك التى كان يواجهها فى ميت غمر ولكنه لم يصطدم كثيرا ، فقد تمكن من التكيف ازاء هذه الظروف الجديدة ، واستطاع بعد ان ترك المدرسة وتأكد من معرفته مبادىء القراءة والكتابة ان يجد عملا فى صناعة الاحذية وحذق هذه الصناعة واتقنها ، وكان طموحا . فلم يرض لنفسه ان يكون صانع احذية فقط . بل سرعان ماتبلور هدفه فى ان يكون صاحب محل يصنع فيه الاحذية ويبيعها ، وعمل فى سبيل تحقيق هذا الهدف ، ونجح . واصبح يملك محلا فى احد شوارع المدينة المزدحمة ، فى احد الاحياء الذى تسكنه اغلبية كبيرة من اعضاء الطبقة المتوسطة من التجار والموظفين ، كما يسكنه الكثير من اعضاء الطبقة العاملة .

تم لـ (أ) كل ذلك .. تحققت اماله ووصل الى مايصبو اليه من مستوى معين من الاستقرار الاقتصادي . واصبح معلما يملك ويأمر وينظم اموره بنفسه ويدبر لغيره ، بعد ان كان « اسطى » يعمل بالقطعة يؤمر وينظم ويدبر له . تم له كل ذلك عندما اكمل الخامسة والعشرين من عمره .

وكان اهتمام (أ) بتحقيق استقراره المعاشى شغله الشاغل . فلم يفكر فى الزواج قبل ذلك وان كان هذا لم يمنعه من ان تكون له حياة جنسية ، او على الاقل علاقات معينة مع أعضاء الجنس الاخر . فقد كان شابا ناجحا ، وكان حديثه

طليا ، يتحدث فى لباقة مع عملائه الذكور والاناث . وان كانت الاناث اكثر اصغاء الى هذا الحديث ، كما كن اكثر اغراء به . فضلا عن ذلك فقد كان (أ) موضع غبطة مرؤوسيه وجيرانه ، وحسد زملائه فى بعض الاحيان

وبعد ان استقر أمر (أ) في محله الذى يملكه ، واستتب له الامر ، واصبح مقصد العملاء والعميلات يشترون منه احذيتهم او يصنعونها او يصلحونها عنده ، رأى (أ) ان يستقر استقرارا من نوع اخر ، استقرار ينظم حياته الشخصية فتكون له اسرة يسكن اليها ، ويحقق عن طريق بنائها بعض رغباته وآماله كإنسان ، وكعضو يعيش فى المجتمع ، وكتاجر يهمه ان تكون سمعته فوق مستوى الشبهات ، وتحقق له ذلك وهو فى السابعة والعشرين من عمره ، عندما وجد بين الاناث من وافقت على الزواج منه ، كما وافقت ايضا على مد يد المساعدة المادية له حتى يستطيع ان يحقق طموحه فى دعم تجارته وازدياد معاملاته المالية .

ولكن اذا كان (أ) قد نجح فى اتقان مهنته ، ودعم سمعته ، والوصول فى السلم الاجتماعى الى مكانته ، وتحقيق مستوى من الاستقرار الاقتصادي ، فانه لم ينجح فى الاستقرار فى اسرته التى سرعان ما اهتزت دعائمها وتصدع بنيانها ، وحل الخلاف بينه وبين زوجته محل الوئام . وانتهى الامر بالطلاق بعد ان استمر الزواج فترة غير طويلة ، استمرت بعدها الشحناء بينهما ، ورفع كل منهما قضايا ضد الاخر .

وعاش (أ) بعد الطلاق وهو يفكر فى الزواج مرة اخرى . وهو لن يعدم ان يجد اخرى من بين من تترددن على محله من عميلات . خصوصا اللاتى يعجبهن شبابه ، ونجاحه ، وحديثه الطلى ، ولباقته الجذابة ، ومن اللاتي يحسن الاصغاء الى هذا

الحديث وتبهرهن هذه اللباقة . وكانت (ر) من اكثر العميلات اعجابا بـ (أ) لكل هذه السمات والخلال ، وربما لبعض الامور الاخرى ، وكان (أ) يبادلها اعجابا باعجاب ويراها كل يوم عندما تتردد على المحل او فى غدوها ورواحها .

كانت (ر) طالبة فى مدرسة التجارة المتوسطة وتقع هذه المدرسة فى احد الشوارع القريبة من المحل الذى يملكه (أ) تذهب الى المدرسة فى الصباح ، وتعود منها فى طريقها الى بيتها بعد انتهاء الدراسة . وفى كل مرة تمر امام محل الاحذية الذى كثيرا مايجتذب انظارها . فتقف امامه لحظات او دقائق او اكثر من ذلك احيانا . تشاهد مافى واجهته من نماذج الاحذية وما طرأ على هذه النماذج وما جد منها ، تعجب ببعضها وقد لايعجبها البعض ، تتلهف على الحصول على نموذج معين ، وقد تجبن ان تناقش صاحب المحل فى ثمنه ، وتتشجع فى الكثير من الاحيان ، وتشترى احيانا ولاتشترى احيانا اخرى ، وعندما تشترى تساوم وتتعامل كأنثى ، تحاول اغراء من يحادثها ، وكثيرا مايكون هو (أ) الذى كان يسمع لها ، ويحدثها حديثه الطلى ، ويحاول ان يبيعها ماتطلبه ، وكان ييسر عليها عملية الشراء ولو على حساب مايجب ان يتقاضى من ثمن . فقد كانت (ر) شابة لم تعد العشرين من عمرها ، فيها وسامة صارخة ، وتملأ جسدها الحيوية ، وفيها جاذبية الانثى اللعوب ، وقد اخذت هذه السمات والخلال بلب (أ) فجاذبها الحديث الشخصى ، وتجرأ فى حديثه هذا ، وشجعته (ر) على ذلك . فتواعدا على اللقاء خارج العمل ، وخارج المدرسة بعيدا عن الناس ، وكثر اللقاء ، وبات كل منهما يحلم حلمه الجميل على الرغم من فارق السن بينهما ، اذ بلغ هذا

الفارق نحو عشر سنوات ، وان كان الفرق بين مكانتهما الاجتماعية يكاد ان لا يكون . الامر الذى شجع (أ) على التقدم لخطبتها من اسرتها التى كانت متصدعة بسبب وفاة الاب . وسرعان ماوافقت الام على هذه الخطبة ، فان (أ) رجل يعمل ويكسب ويستطيع ان يمدها ببعض المساعدة المادية وبعض العون المعنوى .

نشأت (ر) فى كنف امها معظم سنى حياتها . فمنذ وفاة ابيها ، وهى فتاة فى العاشرة من عمرها ، قد كفلتها هذه الام . وكان دخل الاسرة يكاد ان يكفى حاجاتها المتعددة . وكانت الام عندها بعض الطموح ، فأبت الا ان تعلم ابنتها حتى تكمل تعليمها المتوسط على الاقل . ويبدو ان الام لم تكن العائل الذى يستطيع ان يحزم امره عندما تتطلب الامور ذلك . وربما كان يُتم (ر) المبكر عاملا من عوامل عدم استطاعة الام ان تكون حازمة حريصة على بعض القيم الاجتماعية ذات الاهداف الحميدة التى تسود عادة الطبقة التى تنتمى اليها هذه الاسرة

ونشأت (ر) فى هذا المناخ الاسرى مدللة.او شبه مدللة ، وقد ساعد على وجود هذا الدلال انها شبت قوية الجسم صحيحته ، ترى فيه عناصر الانوثة الجذابة تشع وتلألأ كلما زاد عمرها ، وعرفت (ر) كل هذه الامور عن نفسها ، فتركت لنفسها العنان ، ولم تجد من امها الرقيب الذى يهتم بسلوكها ، او الشخص الذى يفسر لها اسرار الحياة ويرى ضرورة الحرص على القيم ذات الاهداف الحميدة التى يجب ان تسود ، والحذر من الزلل ، فكانت لها حياة جنسية مع اعضاء الجنس الاخر ، علاقات تشبع بها غرورها ، وقد تتباهى ببعض تفاصيلها بين لداتها ، على الرغم من انها لم تتعد العشرين

من عمرها وانها مازالت تطلب العلم فى مدرسة التجارة المتوسطة .

اكملت (ر) دراستها ,وعملت فى احدى المصالح موظفة متواضعة ، واحست بكيانها الاجتماعى الجديد ، فملأتها الثقة بنفسها او كادت ، وازدادت علاقاتها بـ (أ) واصبح يزورها فى منزلها تحت اعين امها والجيران ، وكانت زيارته تجد ترحيبا من الام دائما ، فان كل زيارة تأتى فى طياتها بما يشبع رغبتها من مساعدة مادية فى شكل هدايا عينية او نقدية .

وعندما بلغت (ر) من العمر إثنتين وعشرين سنة ، امكنها إن توفر بعض المال الضرورى لاعداد مطالب الزفاف . وعندما ازداد الحاح (أ) على ضرورة عقد القران وافقت فى الحال وتم عقد القران وتم حفل الزفاف ، وكان عمر (أ) اثنتين وثلاثين سنة وعمر (ر) اثنتين وعشرين سنة ، اى ان فارق العمر بينهما يبلغ نحو عشر سنوات .

لم يكن (أ) فى خلال فترة الخطوبة يعرف السر الذى ربط قلبه وبين قلب (ر) . ولم يحاول ان يعرف شيئا . ولكنه كان يعرف امرا واحدا . كان يحبها حبا ملك عليه نفسه ، وقد بدا له فى غمار هذا الحب ان (ر) تبادله هذا الحب الكبير . وانه بذلك موضع عطف امها وبركاتها . ومهما يكن من الامر فهو من وجهة نظر اخرى قد وجد ضالته فى هذه الشابة « المتعلمة » الجميلة الجذابة ، التى تعمل « موظفة »

ولم يكن (أ) يعرف كذلك سر طول الخطبة التى بلغ عمرها سنتين الا ان اسرة (ر) تستعد لاكمالها عندما تتاح الفرصة لذلك ، اى عندما يتم الحصول على وظيفة لها ، وعندما يتم توفير بعض المال الضرورى ، لم يعرف (أ) شيئا غير كل

ذلك . لم يكن يعرف مايساور (ر) من هواجس ولا من مشاعر يشوبها بعض الخوف وربما بعض ملامح العار . ولم يكن يعرف كذلك من باب اولى ، عوامل هذه الهواجس والمشاعر .

ولكن (أ) قد بدا له أنه عرف السر الثاني في ليلة الزفاف ، ومع ذلك فانه لم يعرف السر الاول حتى الان . وكان اذا ألح عليه التساؤل عن هذا السر كان يحاول الاجابة عنه في شيء من الغموض . كأن يطمئن نفسه قائلا انه « الحب » ولا شيء غير الحب .

ولئن كان (أ) لم ينجح في التعرف على عوامل السر الاول حتى الان ، فهو احس نتائجها واثارها في اعماق نفسه وكانت هذه النتائج واثارها في اعماق نفسه هي العامل المهد في محاولة التغاضي عن نتائج السر الثاني واثارها في اعماق نفسه .

كان حفل زفاف (أ) متواضعا جمع الاصحاب والخلان في مودة وحبور . كان حفلا تعطر جوه الاماني والتفاؤل وتحقيق الرغبات الطيبة . وعندما آن انصراف الاصحاب والخلان ومن في حكمهم ، وتأهب (أ) للدخول بعروسه (ر) كان كل شيء ، يجري مجراه العادي ، لم يكن يدور بخلد (أ) ماحدث بعد قليل ، وكان مايدور بخلده يدعو الى الطمأنينة ؟ بعكس ماكان يدور بخلد (ر) وانتهى الامر بان ماكان مستورا قد انكشف ، وكان المستور مفاجئة غير متوقعة صدمت كرامة (أ) في الصميم .

وكان المشهد رهيبا . انثى مازالت في ثوب زفافها تتوسل وتبكي وتلتمس الصفح والغفران .فهي تنتمي الى مجتمع يحدد لها ولبنات جنسها قيما معينة لايجوز لهن ان يحدن عنها

، ولكنها فى ضوء تاريخ حياتها وتجاربها الاجتماعية لم تستطع الا ان تحيد عن هذه القيم ، وتضطر فى ضوء كل هذا ان تخفى كل شىء ولاتبوح به . وهاهى الان تواجه موقفا يكشف وهى كارهة الغطاء عن كل شىء . وطالما حاولت تأجيل هذا الموقف ، وقد نجحت لفترة لاتعدو السنتين . ولكن لابد مما منه بد .

اما (أ) فقد كان الرجل الذى يواجه هذه الانثى التى مازالت فى ثوب زفافها تتوسل وتبكى وتلتمس الصفح والغفران . وهو ينتمى الى مجتمع يعطيه الكثير ويغفر له الكثير . مجتمع يعطيه كما يعطى لابناء نوعه حقوقا لا عديد لها خصوصا تلك الحقوق التى تتعلق بالمرأة واذا اخطأ السبيل او تزيد بما لاينبغى ان يتزيده على هذه الحقوق . فانه لايحاسب الحساب العسير . وكثيرا مايضطر لان يخفى شيئا من هذا القبيل ، وقد نجده على العكس قد يظهر احيانا الكثير المغالى فيه من هذا القبيل ، مباهاة وتفاخرا ، ومع ذلك فان قيم المجتمع الذى يعيش فيه تقف به وبامثاله من الرجال من اخطاء النساء عامة وزللهن خاصة موقف المحاسب القاسى ، وفى بعض الاحيان وخصوصا اذا ماتحددت العلاقة بين الرجل والانثى واصبحت علاقة زوج وزوجة ، يقف موقف المجروح فى كرامته الذى يعطى لنفسه كل الحقوق ، فيؤدى ادوار الاتهام والتحقيق والحكم والقصاص جميعا .

ولكن (أ) ازاء هذا الموقف الرهيب لم يسلك كل مايمكن ان يتوقع من الوان السلوك كان يحب (ر) حبا ملك عليه نفسه ، وقد بدا له فى غمار هذا الحب انها تبادله هذا الحب الكبير . وان ماحدث حدث قبل ان يتفتح هذا الحب فى قلبيهما ، وان ماحدث كان نزوة عابرة لن تعكر صفو الحياة القادمة .

وانه وقبل كل شيء يجب ان يكون رجلا شهما يغفر عند المقدرة ، ويعفو عما سلف ، فالله جل وعلا ستار ، وهو غفور رحيم ، وانتهى الامر به ان اعتبر ماحدث كأنه لم يحدث ، كتم عن الناس كل شيء . واعتبر ماحدث جريمة اخلاقية غير منظورة ، او ربما جريمة جنائية غير منظورة ، وما اكثر الجرائم ، اخلاقية كانت او جنائية ، غير منظورة في المجتمع .

عاش (أ) و (ر) كزوجين سعيدين ، او كزوجين يبدوان انهما سعيدان ، التأمت جروح كرامة (أ) مع الايام ، فهو من وجهة نظره يعيش في ظلال الحب الوارفة فلا يرى الا الجمال والخير والتفاؤل . اما (ر) فبعد ان استردت ثقتها بنفسها كاملة اخذت نفسها بالامال والامنيات ، انها شابة اهم ماتوصف به انها موضع اشتهاء الرجال ، كل الرجال . الرجال الذين لهم مكانة زوجها الاجتماعية ، فضلا عن الرجال ممن هم اعلى مكانة اجتماعية من مكانته الاجتماعية . وكانت (ر) تعتبر الزواج من (أ) صفقة ليست بالضرورة ، من وجهة نظرها ، صفقة خاسرة ، بل على العكس لقد كانت صفقة ضرورية ، ساعدتها على بدء مرحلة جديدة من مراحل حياتها ، ويسرت لها ان تؤمل كثيرا في المستقبل الباسم الذي سيملأ حياتها وسيمدها بما تشتهيه من متع . فأخذت تعلل نفسها بالامال والامنيات ، كما اخذت تتحين الفرص وتتربص بها

وجاءتها الفرصة السانحة . جاءت هذه الفرصة عندما نجحت زوجة (أ) السابقة في الحصول على احكام عديدة ضد زوجها السابق . فقد حكم لها ضده بمؤخر الصداق وبمبلغ كبير من المال نفقة شرعية تستحقها ، فضلا عن بعض الديون التي كان زوجها السابق يدين بها لها

والعجيب ان (ر) لم تكن تعلم عن هذه الاحكام شيئا . فقد

اخفاها عنها زوجها (أ) معللا نفسه بأنه سيقوم بالسداد ان عاجلا وان اجلا . ولكنه لم يستطع السداد فى الوقت المناسب . فالمبلغ المطلوب ، ازاء ظروفه الحالية ، لاطاقة له به ، وفضل ان يدخل السجن ليقضى فيه شهرا وفاء للنفقة التي تستحقها مطلقته . واضطر (أ) ان يخترع قصة غير صحيحة للحصول على موافقة زوجته (ر) على غيابه لبضعة اسابيع . فاخبرها ان دواعى العمل تضطره الى السفر بعيدا عن القاهرة ، المدينة الكبيرة ، لانه على وشك عقد صفقة جلود قد تدر عليه الربح الوفير .

وخيل لـ (أ) انه باختراعه هذه القصة الزائفة انما يبغى اراحة زوجته من معرفة الحقيقة وتفاصيلها المؤلمة ، كما يبغى الحرص على كرامتها وكرامته ، فضلا عن ان ييسر امر غيابه شبه الطويل على نفسها . ولكن (ر) لم تناقشه طويلا او قصيرا فى هذا الموضوع ، ولم تبد اية معارضة موضوعية او غير موضوعية ، بل وافقت للتو والساعة ، وبدأت تداعبها الامال وتعلل نفسها بالامنيات .

دخل (أ) السجن وفاء للنفقة التى تستحقها مطلقته ، ولم يبال بالصعوبات التى ستواجهه فى المجتمع الجديد ، مجتمع السجن ، وارجو ان يلاحظ القارىء ان السجن فى ضوء تعريف المجتمع لايمكن ان يكون مجتمعا بل هو مؤسسة عقابية ، ومهما يكن من الامر فان (أ) لم يبال بشىء فهو يرى انه لم يرتكب جرما ما . لم يسرق مثلا او يزور لم يفعل شيئا ما يشينه كرجل ، ولكن المسألة هى عسر وقتى ، ومن كان ذا عسرة فنظرة الى ميسرة . وهو يعيش فى حب كبير ، ويضحى فى سبيل هذا الحب الكبير ، وكل مايرجوه ان يحافظ على هذا الحب الكبير .

ولكن (ر) حاولت ان تصدق قصة زوجها ، ولكنها فى الوقت ذاته ابت الا ان ترفضها وقد ساعدها على هذا القرار ماكانت تعلل نفسها بالآمال والامنيات ، فأخذت تتحرى صدق هذه القصة ووصلت الى الحقيقة . وهى انها قصة مخترعة لاصدق فيها ، وعرفت ان زوجها (أ) فى السجن ، يقضى مدة شهر وفاء للنفقة التى تستحقها مطلقته .

وما ان عرفت (ر) هذه الحقيقة حتى اطمأن قلبها ، واهتزت نفسها فرحا وحبورا فان الاغلال التى تقيدها ان لها أن تتحطم ، وان الدنيا الان تتسع امامها ومن حولها ومن فوقها اتساعا يليق بشبابها الناضر يروح فى اجوائها ويجىء ، يرشف من كل شىء ، يروى ظمأه من كل نبع ، يشبع نهمه دون مبالاة ، فهى امرأة قد نالت كل شىء ، الجمال وبعض الاستقرار الاقتصادى ، ولكن جمالها سلاح بتار تستطيع عن طريقه ان تتسلق السلم الاجتماعى حتى تنال استقرارا اقتصاديا ذا مستوى ارفع ، وقد يستمر ارتفاعه ويعلو ، فتنال ماتصبو اليه من امال ومن امانى ومن حياة مليئة بالمتع . حياة لاتغلو عليها فهى حياة ليس من العسير عليها ان تدفع ثمنها من جمالها وشبابها وانوثتها .

وانتهى الامر بـ (ر) الى قرار لابد ان تزور (أ) فى السجن ، وتفاجئه بهذه الزيارة حتى تحطم كبرياءه بل كيانه معرفتها بالحقيقة ، ومعرفتها بمصيره ، فهى لم تفكر قط بأن تكون زيارة مشتاقة الى مشتاق ! او زيارة وئام وتشجيع ، بل زيارة سوء وقطيعة وتحطيم . يجب ان يتحطم زوجها (أ) ماديا ومعنويا . ان فى تحطيمه تحطيما لكل القيود ، ولكل الاغلال التى تعيش فيها حياتها الحاضرة .

لم تتذكر (ر) موقفها الرهيب فى ليلة زفافها . وكيف كانت

وهى فى ثوب الزفاف تتوسل وتبكى وتلتمس الصفح والغفران . لم تتذكر ايضا موقف (أ) ازاء كل ذلك موقف الرجل الذى كان يحبها حبا ملك عليه نفسه ، فكان لايملك الا ان يحب وان يصفح وان يلتمس الاعذار ، وربما كانت (ر) قد ذكرت كل ذلك ، واحست بمرارة الذكرى . وقد أن لها ان تجعل زوجها وهو فى السجن ، ان يستبدل بدوره دورها وهى فى ليلة الزفاف . ولم تكتف بذلك . بل أبت على نفسها ان تستبدل بدورها دوره . فالحياة والدنيا وكل المتع قد اصبحت ترنو اليها والامانى امانيها ، والامنيات امنياتها قد اصبح تحقيقها قاب قوسين او ادنى منها .

لم يصدق (أ) عينيه عندما رأى زوجته (ر) وهى تزوره فى السجن . ولم يصدق ايضا اذنيه عندما سمعها تطلب الطلاق منه ، وبدا له ان الاوضاع قد انقلبت رأسا على عقب ، وان القيم ذات الاهداف الحميدة قد توارت او ذهبت وكأنها لم توجد قط . وعندما انصرفت (ر) انصرفت قبل انتهاء موعد الزيارة المحدد . وتركت وراءها (أ) وقد حطت على رأسه بلايا الدنيا واصبحت الحياة لامعنى لها ، حياتها وحياته جميعا ، وبقى فى ذهول بقى طويلا جدا . وبقيت اثاره فى نفسه طويلا جدا كذلك .

لم يسمع (أ) لطلب (ر) بل عارضه فى قوة ، ولكنها اصرت على الطلب فملأت عينيه دموع الاسى ، واختنق الكلام فى حنجرته ، وماكان يستطيع ان يفعل الا ان تتوسل ملامح وجهه الى (ر) ولكنها كانت قد حزمت امرها ، واصرت عليه . بدت له قاسية غير وفية وكأنها قالت الكلمة الأخيرة . وقبل ان يستجمع قواه ويهم بالكلام او يتم مابدأ ان يقوله تركته وذهبت لاتلوى على شىء .

ولكن (أ) كان يحب (ر) حبا كبيرا فحاول ان يلتمس لها الاعذار ، وعلل نفسه بعد الخروج من السجن ، ببعض الامال ، منها ان (ر) سوف تثوب الى رشدها ، او يجب ان تثوب الى رشدها ، فهى كل شىء عنده فى هذه الدنيا ، وهو لم يتوان عن فعل كل مايحفظ عليها كرامتها ، وكل مايسعدها فى حدود طاقته كرجل وكعضو فى المجتمع .

ولكن يبدو ان (أ) كان يعيش فى سراب ، فعندما خرج من السجن ، وجد زوجته شخصا اخر لم يتصور وجوده قط . وجدها امرأة غير تلك التى عرفها من قبل . امرأة تصادق الرجال الاغراب ، وتعيش على هواها ومن أجل هواها . واصبحت سيرتها مضغة فى الافواه . فلم يجد بدا من طلاقها ، ولم يطل امر الطلاق ، فقد اعادها الى عصمته مرة اخرى ، بعد ان تدخل المعارف فى الامر . وقد رضى حكم المعارف لانه حكم يتفق مع حكم قلبه ومشاعره وعادت (ر) الى سيرتها مرة اخرى ، واصبح (أ) يعب العذاب عبا ويشرب الهوان والمذلة شربا ، وملأ قلبه اليأس ، ولم تهن عليه كرامته ، وعز عليه ان يتنكر لقيمه ذات الاهداف الحميدة كرجل يعيش فى مجتمع معين ، فانتهى امره الى طلاقها للمرة الثانية .

وكان طلاق (ر) هو ماتصبو اليه نفسها ، فهو اطلاق لسراحها من القيود والاغلال وفرصة لها للانطلاق الذى ييسر لها اسلوبا معينا من الحياة ، تبغيه وتطلبه وترجوه من كل قلبها ، ولو كان على حساب القيم الاجتماعية ذات الاهداف الحميدة او على حساب قلب (أ) الكبير ، وحبه لها ، وتفانيه فى هذا الحب .

ولم يأت الطلاق الثانى بالراحة التى يرجوها (أ) لنفسه ، فهو مازال يحب (ر) ومازال ينبض قلبه بحبها ، وحاول ان

ينسى ، فلم يستطع النسيان ، واحتسى الخمر ، وهام على وجهه ، ولم يأت كل ذلك بفائدة ، وانتهى الامر به الى ان يهمل اعماله ، وعاش فى افكار لونها ظلام ، وحاول محاولة اخيرة ، طلب من (ر) العودة ، ولكنها رفضت فى اصرار ، وبان على وجهها ومن حديثها الوان من التشفى والسخرية والتهكم . واخبرته فى سهولة ويسر ، انها ستتزوج من اخر .

وكم انتظرها (أ) فى غدوها وفى رواحها ، وكم الح عليها فى العودة ، وكم توسل اليها مرة ، وكم هددها مرات ، ولكن (ر) كانت ترفض وتمانع وتتشفى وتسخر وتتهكم

وعندما تأكد لـ (أ) أن (ر) ستتزوج فعلا من غيره ، هانت عليه الحياة واصبحت الدنيا لاتساوى فى نظره شيئا مذكورا ، ولكنه لم يفكر فى الانتحار ، او فى اسلوب اخر كمهرب لما هو فيه ، بل فكر فى حياته كلها ، كيف نشأ ، وكيف نما ، وكيف تدرج اجتماعيا ، وكيف وصل الى ماوصل اليه . وحاول ان يتلمس التعرف على عوامل ماوصل اليه من حال لاترضى رجلا مثله ، اثبت رجولته يوما ما ، واثبت شهامته يوما ما ، رجل كل مايعيبه انه يحب ، وانه يريد من صميم فؤاده ان يعيش لهذا الحب ، بكل كيانه ، وان يضحى فى سبيله بكل غال . ولكن الظروف تأبى ذلك ، الظروف التى جعلت من يحب تقف ، فى ضوء عناصر المناخ الثقافى التى نشأت عليها منذ ان مات ابوها ، فى سبيل تحقيق ذلك . على الرغم ، كما كان يرى ، من تضحياته وبذله ورجولته وشهامته وتوسله .

وانتهى (أ) الى وجوب ازالة هذا العائق . العائق الوحيد الذى يقف فى سبيل تحقيق ماكان يؤمل فيه ، وليذهب هو الى الجحيم بعد ذلك ، فقد كانت الحياة ، واصبحت الدنيا فى

تصوره لاتساوى شيئا مذكورا .

وفى صباح يوم ٢٧ من شهر اغسطس عام ١٩٦٠ حمل (أ) بندقيته المرخصة المملوءة بالرصاص القاتل ، وانتظر (ر) على محطة اوتوبيس تقع فى احد شوارع القاهرة المزدحمة وهى المحطة التى اعتادت (ر) الركوب منها وهى فى طريقها الى العمل .

وعلى الرغم من وجود الناس من حوله فلم ير احدا . انه يعيش افكاره المظلمة فى شىء من التردد ، ويداعبه شىء من الامل . فهو اولا وقبل كل شىء ، لم يأت للانتقام . كان يرى ذلك . ولكنه كان يرى ايضا ان الظروف التى واجهها فى حياته الاخيرة ظروف لم يصنعها ولكنه يرجو ان يغيرها . فان استطاع ذلك وحده فبها . والا فليكن مايكون .

ولم يستطع (أ) ان يغير الظروف التى لم يصنعها ، فملأه اليأس من كل انسان ، ومن كل شىء ، فامتدت يده الى البندقية المملوءة بالرصاص القاتل ، وضغطت اصابعه على الزناد ست مرات ، وفوجىء الناس الذين كانوا حوله بكل ذلك ، ورأوا شابة ، يبدو عليها بعض اثار من ملامح الوسامة التى كانت ، ولايعدو عمرها الثانية والعشرين سنة ، واقعة على الارض تتخبط فى دمائها ، واصبحت فى لحظة ، جثة هامدة لاحراك فيها ، ويقف على رأسها رجل ، لايزيد عمره على اثنتين وثلاثين سنة ، حاملا ذى يديه بندقية مازال دخان البارود القاتل يخرج من فوهتها ، وكان يبكى بكاء مرا يمزق نياط القلوب .

واستمعت هيئة محكمة الجنايات بالقاهرة لاعتراف (أ) التفصيلى ، وهو تارة يبكى وأخرى وكأنه يهذى . وقبل ان

ينتهى من اعترافه طالب فى ختامه الحكم عليه بالاعدام . فلم يبق له شيء فى الحياة يحرص عليه . لم تبق له نفسه كانسان ، وهى عزيزة دائما . ولم يبق له امل فى حياته المستقبلة ، فلا امل بغير حب وقد فقد هذا الحب .

ولم تلب المحكمة طلب (أ) وحكمت عليه بالاشغال الشاقة المؤبدة .

(انظر : سيد عويس ، المجلة الجنائية القومية ، مج ٥ ، عدد ٣ ، تاريخ نوفمبر ١٩٦٢ ، صفحات ٤٦٣ ـ ٤٧١)

ـ السفاح محمود امين سليمان :

فى شهر سبتمبر عام ١٩٦٠ ، اعطيت نسخة من تقرير اللجنة الدائمة للمباحث الجنائية بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية عن حالة « الشقى محمود امين سليمان » . وقد وصف التقرير هذه الحالة بانها « مأساة » هذا الشقى . وقد اطلقت الصحافة المصرية عليه فى ذلك الحين بدلا من المصطلح الشرطى « الشقى » اسم « السفاح » .

واذا كان التقرير المشار اليه قد اكد على ان وجود هذا الشخص يعتبر مأساة فاننى اتعمد ان استخدم مدلول « الشخص » عليه لان كل شخص فى الحياة لديه الاستعداد لارتكاب الجرائم بانواعها ولكنه لايرتكبها الا اذا دعته ظروفه الاقتصادية والثقافية والاجتماعية الى ارتكابها واننى ارى ان مأساة هذا « السفاح » هى مأساة المجتمع او المجتمعات التى ولد وعاش فيها . ولكن التقرير يقول ان مأساة الشقى محمود امين سليمان ، على قصرها ، قد احدثت اثرا واضحا فى محيط الرأى العام (ويرجع ذلك فى رأيى طبعا الى اهتمام

الصحافة بالموضوع وكتابة الصفحات والمنشتات يوما بعد يوم عنه) وفى محيط اجهزة الشرطة المصرية على السواء . فقد اتسمت فترة ظهوره على مسرح الجريمة بسمات خاصة اضفت عليه طابعا فريدا لم يعهد من قبل فى تاريخ الاجرام فى بلادنا الطيبة . اذ عرف هذا الشقى بالجرأة والدهاء والمباغتة كما عرف بالتجديد فى اساليب السرقة والسطو على المنازل . غير ان موهبته الكبرى كانت فى ذكائه المفرط وقدرته الفائقة على تدبير وسائل الهرب وتضليل رجال الشرطة .

وقد ولد الشقى محمود امين سليمان (كما يقول التقرير) فى عام ١٩٣٠ فى طرابلس من اعمال لبنان من أب « مصرى » هو امين محمود سليمان الذى كان يقيم وقت كتابة التقرير بمدينة الاسكندرية ، وقد جاوز ابوه فى ذلك الحين سن الخامسة والستين ، وهو اى الاب ينتمى الى اسرة فقيرة ببلدة « الكعيمات » (بلاد المال قبلى) مركز « ابو طشت » محافظة قنا . ولما ضاق بالاب العيش نزح فى عام ١٩٢٠ تقريبا الى تركيا والعراق وسوريا سعيا وراء الرزق حيث اقام فى لبنان وعمل حمالا فى المطارات ثم تطوع فى فرقة « الجندرمة » لمدة ثمانى سنوات تقريبا تزوج فى خلالها مرتين ثم طلق زوجتيه بسبب عدم انجابهما اطفالا ، ولما انتهت مدة خدمته العسكرية التحق بوظيفة مخزنجى باحدى محطات السكة الحديدية بخط طرابلس لبنان ثم عين رئيسا للحمالين بها ، وكان يكسب يوميا حوالى ثلاثة جنيهات مصرية (يلاحظ ان الجنيه المصرى فى ذلك الحين كان يساوى جنيها ذهبيا + قرشين مصريين ونصف) الى ان تزوج فى عام ١٩٢٨ من سيدة لبنانية انجب منها محمود (موضوع

هذه الدراسة) ثم رزق باخوات له هن فاطمة وعليه ونادية وغادة وباخ اصغر احمد فى عام ١٩٤٦ ، وفى عام ١٩٥٠ رزق الاب بهدى ، والى جانب هؤلاء تبنى ابنا لزوجته هذه واسماه محمد امين وهو اكبر سنا من محمود . وكانت زوجته تساعده على مواجهة اعباء الحياة عن طريق حقن المرضى اذ كانت تعمل مساعدة لطبيب يدعى (رشاد يحيى) فى طرابلس . وما ان بلغ محمود سن السادسة حتى الحقه ابوه « بمدرسة الفرير » بطرابلس واشتهر عنه فى اثناء دراسته تزعمه لزملائه بالمدرسة . ونظرا لسوء سلوكه واختلاطه بمن هم اكبر منه سنا فقد اعتاد الهرب من المدرسة حتى فشل فى دراسته وتركها .

وبدأ يهيم محمود فى الشوارع يسرق البرتقال من بعض الحدائق بمدينة طرابلس وهو فى سن السابعة من عمره ، وكانت والدته تعاقبه بقصد تأديبه بالضرب والكى بالنار ، وفى ذات مرة سرق نقودا من والده مما دعا هذا الوالد ان يعاقبه وذلك بوضع القيود الحديدية فى قدميه الصغيرتين !

وفى سن العاشرة كان محمود يقوم ومعه آخرون بالسطو على معسكرت الجيش البريطانى فى لبنان وقد سلمه ابوه لرجال الشرطة ولكنهم لصغر سنه اطلقوا سراحه وسلموه لاهله . واستمر محمود فى مخالطة الاشقياء وشاركهم فى ارتكاب جرائم السرقة حتى حصل على شهرة كبيرة فى مجال الاجرام . وقد عرفت عنه الجرأة والتهور حتى ان لذاته اطلقوا عليه لقب « محمود البطل » ، واعتاد كل من له خصوم الاستعانة به على ايذائهم ، وتردد على ألسنة اعضاء اسرته انه اشترك مع اخرين فى سرقة احد المساكن مع استعمال السلاح وحكم عليه فى هذه الجناية بالسجن اربع سنوات ابعد بعدها الى مصر حيث استوطن واسرته الحضرة بمحافظة الاسكندرية .

وقد ذكر ابوه انه عندما قامت حرب فلسطين فى عام ١٩٤٨ ، كان محمود قد بلغت سنه حوالى الثامنة عشر عاما ، وتطوع فى فرقة الفدائيين تحت قيادة احد القادة فى ذلك الحين (القاونجى) وكان لمحمود خال متزوج من سيدة يهودية تركها فى فلسطين عندما اندلعت الحرب وهرب ومعه اولاده الى لبنان ، وقد تمكن محمود ، كما يذكر بعض اعضاء اسرته من تخليص زوجة خاله من ايدى اليهود فى اسرائيل وعاد بها الى لبنان .

وقد ذكرت « السيدة نوال » التى كانت احدى زوجات محمود انها فاتحته في امر حياته التى كانت ترى انها تكتنفها الغموض بعد ان علمت من احد اصدقائه اللبنانيين من الذين كانوا يترددون عليه بالاسكندرية فروى لها محمود مايلى :

« ان الجناية الملحقة به هى جناية اهله . فقد نشأ بينهم فقيرا ولم يكن راضيا عن مستوى معيشتهم . وكان والده بخيلا ولايتولى الانفاق على والدته كما ينبغى اذ كان يعطيها مصروفا يوميا ضئيلا ويصرف باقى دخله على النسوة والسهرات . فما ان بلغ اى محمود سن السابعة من عمره حتى دأب على سرقة الفاكهة والخيار من الحدائق وتدرج الى السطو على المعسكرات وسرقة السلاح ، وبيعه وتسليم ثمنه الى والدته واندمج فى عصابات اللصوص وعرف رجال الشرطة بلبنان عنه الكثير فكان موضع مطارداتهم واضطهادهم . وذكر لها انه ضبط فى قضية سرقة مصوغات وحكم عليه بالحبس شهرا مما هيأ له فرصة الاختلاط بنزلاء السجن وهو حديث السن

وتوطدت صلته بهم وواصل نشاطه معهم بعد ذلك حتى تمكن وهو فى السادسة عشرة من عمره من سرقة مصوغات اخفاها عند والدته وشقيقته وحكم عليهن بالحبس مدة شهر بينما حكم عليه بالحبس ثمانية شهور ، وقد ذكرت الزوجة « نوال » ايضا ان محمود اخبرها بانه تمكن من تكوين ثروة اعانته على شراء منزل ومقهى ومجموعة من سيارات الاجرة ثم تقدم لاستئجار ارض جمرك بلبنان ولكن عرضه قد رفض ، فما كان من محمود الا ان اطلق مسدسه على من كان مصدر هذا الرفض ، واصابه ، ثم اودع فى السجن وتظاهر بالمرض فنقل الى المستشفى حيث تمكن من الهرب . ثم قبض عليه بعد سنوات عديدة وحكم عليه بالسجن اربع سنوات . وفي اثناء محاكمته وجه محمود تهديدا حاسما للقاضى الذى قضى بادانته ، وقام اعضاء العصابة التى كان يقودها فعلا باغتيال هذا القاضى .

وذكرت « نوال » ان والدة محمود ، كما قال لها ، كانت تشجعه على السرقة حتى تواجه نفقات الاسرة . كما ذكرت ان محمود قال لها ان خاله كان من المجرمين الخطرين بلبنان ، كما كانت سيرة والدته وشقيقاته سيئة .

وعلمت « نوال » من أحد اصدقاء محمود وكان يعمل فى مهنة المحاماة انه اى المحامى ذكر لها ان محمود عندما كان في سن السابعة من عمره إستيقظ فى اثناء نومه مع امه على صوت حركة غير عادية وشاهد شخصا غريبا يواقعها ، وان ذلك ترك اثرا فى نفسه لم تمحه الايام من ناحية النساء قاطبة

او على حد قوله الشك فى « حواء » وكان يقول ذلك فى مناسبات عديدة متباينة . وعندما كبر شخص محمود هذه الواقعة فأرجعها الى ضعف شخصية ابيه وسيطرة امه عليه .

وفى ضوء ماذكرته الزوجة « نوال » نلاحظ ان محمود قد بدأ نشاطه الاجرامى فى لبنان وهو فى السادسة من عمره ، وانه تدرب على ايدى عصابات ، وانه كان شخصية قيادية فكون لنفسه عصابة تأتمر باوامره وبخاصة فيما يتعلق بارتكاب الجرائم وكان معظمها جرائم القتل والسرقات ، وانه فعلا وحقا كان جريئا فى ارتكاب الجرائم او التخطيط لارتكابها

وفضلاً عن كل ذلك وغيره نلاحظ ان خيانة امه لابيه وهو فى سن غضة قد تركت فى نفسه عقدة لم تحل بمرور مراحل حياته من ناحية النساء . وفى قول ان محمود قد ولد فى اسرة متصدعة ولم تجد معه اجهزة التنشئة الاجتماعية السوية لانه لم يجدها لا فى البيت او فى الجيرة أو فى المدرسة او فى غيرها من الاجهزة التى تكون المواطن الصالح .

وانتهى الامر الى ابعاد اسرة محمود الى مصر فى عام ١٩٥٣ على حساب القنصلية المصرية بلبنان على اثر ماتكشف لسلطات الامن من خطورة محمود (كان محمود فى ذلك الحين مودعا فى السجن) . وقد ذهبت الاسرة الى الاسكندرية ثم رحلت الى بلدة الكعيمات (من بلاد المال قبلى) مركز ابو طشت مديرية قنا . ولم يستقر اعضاء الاسرة بالبلدة ، طويلا نظرا لتفاوت العادات والتقاليد التى يظللها المناخ الثقافى بهذه البلدة ، عما اعتادوه فى لبنان فرحلوا منها الى الاسكندرية حيث تناسبهم الظروف الحياتية بها

وفى الاسكندرية كانت اسرة محمود تقيم بحى العطمرة بجوار اسرة كانت من بين اعضائها انسة تدعى « عواطف » وتم التعارف بين الاسرتين ، وكانت ام محمود تردد ان لها ابنا يدعى محمود ، وكانت تكذب اذ تقول انه تخلف بلبنان لبيع ممتلكات الاسرة .

وفى ذات يوم فوجئت اسرة « عواطف » بزيارة محمود ووالدته بقصد خطبتها . ورفض ابوها باديء الامر.ثم عاد فقبل وتم الزواج فى ١٣ من شهر مايو عام ١٩٥٦ . وفى اثناء ذلك افتتح محمود « جراجا » بمنطقة سيدى بشر . وبعد فترة سافر ومعه زوجته الى القاهرة بحجة ضعف حركة العمل بالاسكندرية شتاء ، ثم افتتح ورشة للنجارة بدائرة قسم باب الشعرية بالاشتراك مع شخص اخر .

وقد لاحظت الزوجة « عواطف » تغير حال زوجها بعد وصوله الى القاهرة وكثيرا ما دب الخلاف بينهما . اذ كان يصر على السكن مع احد اصدقائه واسرته فى مسكن واحد ، وكانت الزوجة « عواطف » تعارض فى ذلك لما لمسته من سوء سلوك هذا الصديق حيث كان يتصل باحدى الراقصات . وضاعف من هواجسها ما كانت تلاحظه من خروج زوجها (محمود) ليلا وفى قدميه حذاء من المطاط وفى يده مصباح كشاف ويعود فى ساعة متأخرة من الليل ومعه مبالغ كبيرة ، ولم يتطرق الى ذهنها فى ذلك الحين ان زوجها (محمود) لص او ان تلك المبالغ كانت من حصيلة مايسرقه .

وفى خلال عام ١٩٥٦ ايام العدوان الثلاثى على مصر ترك محمود زوجته « عواطف » بالقاهرة وسافر الى الاسكندرية حيث توجه الى منزل شقيقته « غادة » التى كانت متزوجة فى ذلك الحين ، فوجد بالمنزل احدى شقيقات زوجته « عواطف »

وكانت تبلغ من العمر خمس عشرة سنة وحاول اغتصابها ، وادى هذا الحادث المشين الى طلاق زوجته « عواطف » فى شهر مارس عام ١٩٥٧ بعد ان رزقت منه بولد .

وفى اواخر عام ١٩٥٧ تعرف « محمود امين سليمان » بسيدة تدعى « حميدة » وكان اسمها المشهورة به (ببيلا) وكان هذا التعارف عن طريق شخص يعمل فى مهنة المحاماة (وهو غير الشخص التى ذكرته « نوال » من قبل) وعرض محمود على « حميدة » الزواج فقبلت . واستمرت حياتهما الزوجية اربعة ايام فقط ، ثم هجرها دون طلاق .

وكان زوجته « نوال » التى سبق ان تحدثت عنها والتى صارحها محمود بتاريخ حياته دون تفصيل حيث القى اللائمة على حياته التى صار اليها على اهله وظروف الحياة التى عاشها وهو صغير السن . وتم زواج محمود من زوجته « نوال » التى اصبحت خطيبته فى غضون شهر نوفمبر عام ١٩٥٧ وتم زفافهما فى اوائل شهر اكتوبر عام ١٩٥٨ ، وبذلك اصبحت « نوال » الزوجة الثالثة لمحمود امين سليمان ، واقام الزوجان « محمود ونوال » سويا بحى محرم بك بالاسكندرية . ومرت ثلاثة شهور فاذا بـ « نوال » تلاحظ اجتماع زوجها باحد المحامين وقضائهما سهرات طويلة فى اعداد مايشبه المذكرات . وبعد ذلك ابلغ محمود زوجته بعزمه على السفر الى القاهرة . ولم تتردد « نوال » فى سؤاله عن موضوع (المذكرات) او مايشبه المذكرات فاضطر للاعتراف لها بانه متهم بسرقة احد المساكن فى مدينة القاهرة وصحبها معه حيث حضرت الجلسة الخاصة بمحاكمته ، وقد ذكر محمود لـ « نوال » ان هذه القضية قد لفقت له . ومع ذلك فانه كان يكثر من التردد على مدينة القاهرة الى ان اصدر ضده حكم

بالحبس فى تلك القضية . وكثيرا ماكان يرسل فى طلب حضور « نوال » من الاسكندرية لمقابلته فى اثناء التحقيق معه فى قضية تبديد اخرى . وبعد التحقيق نقل الى سجن مصر ثم الى سجن المرج ثم الى مستشفى الدمرداش حيث اجريت له عملية الزائدة الدودية .

وفى فجر احد الايام فوجئت « نوال » بحضوره الى الاسكندرية حيث ذكر لها انه هرب من المستشفى . واقاما سويا بمنزل احد الاصدقاء رغم معارضة اهلها الذين اضطروا اخيرا لارشاد الشرطة عنه الا انه استطاع الهرب عن طريق (التخلص من سترته) واقتاد رجال الشرطة زوجته « نوال » الى قسم باب شرقى لاشتباههم فى آلة تصوير ضبطت لديها . وقد بحث محمود فى ذلك الوقت عن احد المحامين لحضور التحقيق مع زوجته « نوال » وقد افرج عنها فى نفس الليلة . وقبض على محمود فى اليوم التالى ورحل الى مدينة القاهرة وصحبته « نوال » وشقيقته « غادة » الا انه اى محمود استطاع الفرار فى اثناء ترحيله .

وقد ترددت « نوال » على مدينة القاهرة ومعها المحامي (نفس المحامى الذى حضر معها التحقيق والذى نجح فى الافراج عنها فى نفس الليلة) لحضور جلسات المعارضة الخاصة بهروب محمود فى اثناء ترحيله وقضى فيها ببراءة محمود . فضاعف ذلك من ثقته فى هذا المحامى .

وبعد الافراج عن محمود عاد الى مدينة الاسكندرية الا انه لم يلبث ان سافر وزوجته الى مدينة القاهرة ونزلا فى احد الفنادق بهذه المدينة بعد ان تركا ابنتهما « ايمان » بمدينة الاسكندرية مع والدته . وكان محمود يترك « نوال » بالفندق ليلا ثم يعود اليها عند الفجر ومعه مبالغ من النقود كبيرة

مدعيا انه كان يدخن مخدر « الحشيش » مع بعض اصدقائه وانه استعاد بعض النقود التى كان يقرضها لآخرين .

ثم نزل محمود ونوال وابنتهما ايمان مع ابن عمه ، ثم مالبث ان استأجر مسكنا بحدائق شبرا ظل به حوالى ستة شهور كان فى خلالها يغادره ومعه مصباح كشاف حوالى الساعة الثامنة مساء بحجة الذهاب الى السينما ثم يعود حوالى الساعة الخامسة صباحا . وبعد ذلك استأجر مسكنا جديدا بشارع المتحف الزراعى بالدقى .

وفى خلال فترة اقامة محمود واسرته فى مدينة القاهرة كان المحامي الذى يثق فيه محمود والذى اصبح له صديق حميم يحضر من مدينة الاسكندرية الى محل اقامة اسرة محمود يومى الخميس والجمعة من كل اسبوع ، وكانت ترافقه زوجته فى بعض تلك الزيارات . وقد ترك هذا المحامى الصديق زوجته ذات مرة فى ضيافة محمود واسرته شهرا كاملا ، وفى ذلك الوقت افتتح محمود محلا للبقالة وعهد الى والده و بن عمه بادارته الا انه مالبث ان باعه بعد حوالى اربعة شهور لشكه فى تلاعبهما بايراده .

وفى احد الايام وصلت الى محمود برقية من صديقه المحامى يطلب منه فيها الاتصال به فى مدينة الاسكندرية ، ولكن محمود آثر السفر اليه ، وبعد عودته اعتدى على زوجته « نوال » بالضرب ونسب اليها انها كانت على علاقة بالمحامى وانها كانت تقضى معه الليالى بمدينة القاهرة فى اثناء وجوده بالسجن وحضورها معه جلسات المعارضة . واخذ محمود يعذب « نوال » حوالى شهر وهددها بالقتل شنقا ، وفى احدى سهراته مع المحامى الصديق ابدى له شكه فى وجود علاقة

بينه وبين زوجته « نوال » وادعى انها اعترفت له بذلك فاعترض المحامي الصديق على ذلك فى حضور صديق لهما الذى نسب اليه محمود ايضا انه على صلة بزوجته « نوال »

ولما علم اقارب « نوال » بخبر تعذيبها انتهزوا واخوتها فرصة زيارته لعديله وتكاثروا عليه واوثقوه ثم سلموه لرجال المباحث بقسم الوايلي . وعند تفتيش منزله بالدقى عثر فيه على سرقات كثيرة تبين انه سرقها من عدة منازل بمدينة القاهرة وضواحيها واعترف محمود بالسرقات ولكنه ادعى بان شقيقي « نوال » وصديقه المحامى قد اشتركوا معه في تلك الجرائم ، وان المحامى يخفى بعض المسروقات لدى احدى زملائه بحى المنيل ، وقد ضبطت هذه المسروقات فعلا الا انه لم تثبت عليهما تهمة الاشتراك او تهمة الاخفاء .

وفى اثناء التحقيق مع محمود فى سرقاته العديدة ، ادعى ابتلاع « دبابيس » ونقل الى مستشفى ام المصريين بالجيزة تحت الحراسة المشددة ، وكان مكبلا بالقيد الحديدى ثم اعيد الى سجن القاهرة حيث حاول الانتحار فنقل الى مستشفى القصر العينى فى اوائل شهر فبراير عام ١٩٦٠ ، وقد تمكن من الهرب منه فى اواخر نفس الشهر ، ثم بدأت سلسلة حوادثه ومطارداته التى انتهت بمصرعه .

وكانت من ضمن هذه الحوادث ان محمود هاجم منزل زوجته « نوال » التى تقيم فيه واستطاع ان يغافل رجال الشرطة المنبثين حول المنزل وتسلل اليه واطلق الرصاص من كوة بباب الشقة والاسرة مجتمعة حول طعام « السحور » قاصدا اصابة زوجته « نوال » الا ان الرصاص لم يصبها واصاب ابنة شقيقتها الطفلة .

والملاحظ ان محمود فى ضوء الصور الفوتوغرافية التى

اخذت له بعد مصرعه ، تبين انه انتحر ، ونقف هنا لنتساءل هل حالة محمود حالة انتحار ونتجاهل جرائم القتل التى ارتكبها في مراحل سني حياته ؟ انها في رأيي حالة شخص قد مارس ارتكاب جرائم القتل منها والسرقات . صحيح كان هدفه او اهم اهدافه ارتكاب جرائم السرقة ولكنه لم يكن ليتورع فيقتل كل من كان يقف في سبيل هدفه او اهم اهدافه .

وتقرير اللجنة الدائمة للمباحث الجنائية بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية يذكر عبارة "مصرعه" أى مصرع محمود أمين سليمان ، ولم يذكر بل ولم يجرؤ أن يذكر من الذى صرعه أنه كما ذكرت قد صرع نفسه بنفسه . صحيح لقد نجح رجال الشرطة فى أن يحكموا الحلقة عليه فاضطر الى الاختباء بمغارة فى تلال المقطم بناحية قسم حلوان ، ويبدو أنه علم أن مقاومته أصبحت غير مجدية وأن مصيره محتوم فما كان منه إلا أن أطلق على نفسه بضع رصاصات أثبت التقرير الطبى الشرعى أنها كانت كفيلة بالقضاء عليه ، ومن ثم أستطاع بعض رجال الشرطة أن يقتحموا عليه المغارة ويجدوه مقتولا (أنظر : تقرير اللجنة الدائمة بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، (دراسة غير منشورة ، شهر سبتمبر عام ١٩٦٠) .

والملاحظ أن احدى الرصاصات بان فى الصور الفوتوغرافية أثرها في ثقب فوق الاذن اليمنى فى رأس محمود الذى كان ، والرصاصة الثاية بأن أثرها فى ثقب فى رأسه ، وبعد ارتكاب جريمة القتل ، اطلق رجال الشرطة رصاصات غير قاتلة بطريقة عشوائية بانت آثارها فى جثته !

٧ ـ قوات الأمن المركزى :

قمت بالاشراف على دراسة علمية عن موضوع أحداث

الشغب والعنف التى وقعت فى يومى ٢٥ ، ٢٦ من شهر فبراير عام ١٩٨٦ . وقد قام بهذه الاحداث المجندون الذين يطلق عليهم أفراد قوات الأمن المركزى . وكان المجال الجغرافى لهذه الاحداث جمهورية مصر وبخاصة فى المدن التى يعمل بها هؤلاء الجنود . وكان من بين هذه المدن بالضرورة مدينة القاهرة . والملاحظ أن هؤلاء المجندين يمثلون جانبا هاما من القوات التى تعتمد عليها الدولة ووزارة الداخلية فى الحفاظ على أمن البلاد ضد أعمال العنف والشغب .

ومن العجيب أن هؤلاء المجندين على عكس المتوقع منهم قاموا هم أنفسهم بأعمال العنف حيث انهالوا فى خلال يومى ٢٥ و ٢٦ من شهر فبراير عام ١٩٨٦ على المنشآت المصرية ومؤسساتها تدميرا وتخريبا . أى أنه بدلا من أن يكونوا حماتها وحراسها أصبحوا رافعين لواء العنف والشغب ضد ما أؤتمنوا عليه والتزموا به من واجبات . ومن العجيب أيضا ، ولاعجب فى ذلك ، أن هؤلاء المجندين قد وجدوا من أعضاء المجتمع المصرى فى ذلك الحين من يسر لهم بل من عاونهم على القيام بأعمال العنف والتخريب المشار اليها .

والملاحظ أن مفهوم "المجند" فى الدراسة الحالية يعنى الشخص الذى وصل لسن التجنيد بالفعل وتم الحاقه بالشرطة عملا بالمادة الثانية أولا فقرة ب من قانون الخدمة العسكرية والوطنية رقم ١٢٧ لسنة ١٩٨٠ ، والذى يؤدى الخدمة الالزامية لمدة ثلاث سنوات طبقا للمادة الأولى من نفس القانون .

والحوادث التى اهتمت بها الدراسة المذكورة تعنى أى سلوك عدوانى ايجابى ، بدنى ، أو مادى ، أو معنوى ، ضد بعض ممثلى السلطة أو بعض أعضاء المجتمع أو الممتلكات

العامة والخاصة ـ يوجهه بعض مجندى قوات الأمن والأمن المركز بوزارة الداخلية يومى ٢٥ و ٢٦ من شهر فبراير عام ١٩٨٦ .

وقد لاحظت الدراسة بعض الملاحظات منها :

ـ أن المجند المتهم فى أرتكاب العنف وحوادث الشغب كان واقعا تحت تأثير الضغوط الاقتصادية أكثر من غيره ، كأنتمائه لأسرة هو عائلها الوحيد أو كفقدان لمهنته التى كانت تدر عليه دخلا كافيا له ولأسرته .

ـ أن المجند ينتمى الى مجموعة من المجندين يكاد أن ينعدم الاشراف عليهم وتوجيههم .

ـ أن المجند واقع تحت تأثير بعض الأمور الاستفزازية بالنسبة له كآدمى يحس بانسانيته وله آماله وطموحاته المشروعة .

ـ أن المجند ممن صادفته ظروف معينة صعبة داخل المعسكرات التى يعيش ويحيا فى ظلها .

ـ أن ما توقعه المجند من عملية التجنيد وما تحقق له بالفعل من هذه العملية يختلفان ولم يكن يخطر على باله

وأننى أرجو أن يتذكر القارىء الكريم الدراسة عن مفهوم العنف عندما تحدثت عنه وعن مفهوم السلام من قبل . ولكنى أود أن أؤكد أن العنف المقصود هو العنف الانسانى ، وأن أعضاء الشعب المصرى بالطبع أعضاء مسالمون . ولكنهم يبغون السلام العادل . ولا يلجأون أبداً الى العنف إلا اذا أجبروا عليه ووجدوه الوسيلة الوحيدة التى يدافعون بها عن كرامتهم .

وظاهرة العنف ان وجدت فى محيط المصريين ، فهى توجد

عادة من أجل الدفاع عن النفس والحرية والكرامة . وأن أهم المنافذ الاجتماعية ، أو الأساليب التى يواجه الشعب المصرى بها صنوف القهر وألوانه هى فى معظم الأحوال ، منافذ وأساليب غير عنيفة . فالمصريون لايبدأون الهجوم بالعنف . ولكنهم اذا اتخذوا سبيل العنف سلاحا فانهم يفعلون ذلك مدافعين عن أنفسهم ضد العنف الذى يصيبهم ، إذ هم يرون بحق ، فى ضوء حقائق التاريخ ، أن العنف يولد العنف .

وقد يرى البعض أن مكافحة العنف ومواجهته مثل أية عملية من عمليات الشرطة الهامة ، تخضع فى المقام الأول لاعتبارات الظروف الخاصة والملابسات المتصلة بكل حادث ، وزمانه ، ومكانه ، وعدد الاشخاص المشتركين فيه ، وأسلحتهم ... الخ . ومن هنا ، كما يرى هذا البعض ، يصعب وضع قواعد ثابتة ومحددة تكون قابلة وصالحة للتطبيق فى كل حادث ، وأنه من الزم الضرورات للشرطة أن تعد نفسها اعدادا تاما لمواجهة هذا العنف الجماهيرى ، ولأنه جماهيرى ، فهو فى العادة يكون مخططا وفى بعض الاحيان تلقائيا .

وقد نشأت فكرة استخدام الأفراد المجندين بوزارة الداخلية فى مجال الأمن بعد قيام ثورة عام ١٩١٩ . وذلك لوقوع اضطرابات كثيرة وشديدة فى ذلك الوقت . ونظرا لعدم وجود احتياطى لقوات الشرطة فقد رؤى الاستعانة بأفراد مجندين من القوات المسلحة لاستخدامهم فى مقاومة الاضطرابات .

ثم فكر المسئولون فى أفراد مجندين من بين المستدعين لتأدية الخدمة العسكرية للعمل بوزارة الداخلية بقصد مقاومة الأضطرابات وحفظ الأمن والنظام ، وذلك بدلا من الاستعانة بأفراد القوات المسلحة وأطلق عليهم اسم "بلوكات الخفر"

وقد بدىء فى انشاء أول "بلوكات للخفر" بمحافظات القاهرة والاسكندرية والقناة وذلك فى عام ١٩٢٠ .

وفى عام ١٩٣٠ أنشىء "بلوك خفر" فى بلدة قويسنا وسمى بلوكات خفر الاقاليم (وجه بحرى) لحفظ الأمن والنظام ومقاومة الاضطرابات فى مديريات الوجه البحرى ، وآخر فى مدينة أسيوط وسمى ببلوكات الخفر الأقاليم (وجه قبلى) لحفظ الأمن والنظام ومقاومة الاضطرابات بالوجه القبلى .

وبعد قيام ثورة عام ١٩٥٢ ، أعيد تنظيم هذه القوات وتوزيعها على جميع المحافظات ، وسميت قوات الأمن وقسمت هذه القوات الى ثلاث مجموعات . وتم تعديل أسم بلوكات نظام الأقاليم وخصص "قشلاق" هذه البلوكات لتدريب المجندين الجدد .

وقد برز دور المجموعة الثانية (التى أصبحت تسمى قوات الأمن المركزى): بروزا كبيرا وبخاصة منذ عام ١٩٦٩ . وكان أهم واجباتها ، كوحدات من قوات الأمن للعمل كاحتياطى مركزى ، هو ايجاد قوة تحت تصرف الحكمدار لاستخدامها فى مقاومة حالات الأضطرابات أو اختلال الأمن العام التى لايمكن لقوات الشرطة العادية وقوات الاحتياطى المحلى السيطرة عليها . وأستخدمت هذه القوات (قوات الأمن المركزى) فى الأعمال الآتية :

- قمع الأضطرابات ، وفض المظاهرات والتجمهر ، وأعمال الشغب وما اليها فى حالات الطوارىء .

- حراسة المرافق والمنشآت الحيوية التى تؤثر على الحياة العامة ، وذلك فى حالات الطوارىء

- المعاونة فى حفظ النظام فى الاجتماعات العامة ، عندما يتطلب ذلك قوات أكبر من المتيسر تدبيرها من رجال الشرطة العاديين وقوات الاحتياطى المحلى .

- الحالات التى يرى الحكمدار فى المحافظة أو المديرية ، ضرورة الاستعانة فيها بقوات الاحتياطى المركزى .

- يجوز استخدام قوات الاحتياط المركزى ، بأمر الحكمدار عند الضرورة على أن يخطر مدير مصلحة الأمن بتقرير عاجل بالظروف التى اقتضت ذلك .

وقد صدرت قوانين عديدة تتعلق بمعاملة هذه القوات ، وكذلك لوائح خاصة لاستقبال القوات المسلحة للمجندين والكشف الطبى عليهم وتحديد مستوياتهم الثقافية .

وقد كان الاهتمام بوسائل الانتقال والاتصال كبيرا . وذلك لان المسئولين يرون أن هذه الوسائل هى العصب الحيوى لادارات واقسام قوات الأمن ، ويتطلب العمل سرعة انتقال القوات الذى يتوقف على مدى توفير وصلاحية وسائل الانتقال والسائقين . ويقصد التأكد ، دائما ، من امكانية تحرك القوات بعدد كاف وفى أى وقت يتبع مايلى :

- يخصص لورى لكل فصيلة فض مظاهرات .
- تخصص سيارة ركوب لكل قائد تشكيل .
- تخصص سيارات ركوب لمدير الادارة أو رئيس القسم ونائبه ولكل ضابط من ضباط الرئاسة .
- يتم تسليح هذه السيارات واللوارى بالشبك المسلح وتجهيزه باللاسلكى . .
- يخصص عدد من السيارات لتوزيع التعينات .
- يجهز لورى بدون صندوق لنقل ما يلزم المبنى من رمل

وادوات واثاثات .

- يجوز تزويد الادارة أو القسم بجرار زراعي وسيارة كسح وسيارة مقطورة مياه حسب الظروف .

ومع ذلك نلاحظ أنه يصرف للمجند ٧٥ مليما يوميا في حالات الطوارىء ويخصم مما يصرف الاجازات والغياب بدون أذن والحبس والحجز بالمستشفى . أما بدل التعيين النقدى فقدره ١٨٠ مليما يوميا (عدل الى ٤٠٠ مليم) بعد أحداث يومى ٢٥ و ٢٦ من شهر فبراير عام ١٩٨٦ .

وأرجو أن يسمح لى القارىء الكريم بأن اكتفى بما ذكرت عن هذه القوات لكى ابرز بعض النتائج أهمها مايلى :

- أن قوات الأمن المركزى منذ أنشائها كانت اليد القوية لاصحاب السلطة والسلطان فى الدولة . وقد اختير أعضاؤها ودربوا لكى ينفذوا الأوامر فى ظل شعار المقولة المشهورة "النقمة تعم والنعمة تخص" ومنذ انشاء هذه القوات وتحديد مهامها وواجباتها واعدادها تتزايد على مر الأيام حتى بلغ عددها فى الوقت الراهن (فى أوائل عام ١٩٨٦) حوالى ٣٠٠,٠٠٠ عضو .

- أن وجود هذه القوات يعنى وجود جماعات أو تنظيمات مهنية جديدة فى مجتمعنا المعاصر . وقد أتسم أعضاء هذه الجماعات بسمات انسانية معينة . منها بل ربما تكون أهمها انهم فى مستوى عقلى معين وانهم فى سن المراهقة المتأخرة . أى السن التى يكون المرء منا فيها أكثر حساسية وأقل نضجا . أى السن التى لم تتكون فيها المحددات التكوينية والثقافية الاجتماعية والنفسية العقلية لكل عضو من أعضاء هذه الجماعات ، أى السن التى لم يكمل فيها تكوين شخصيته الاجتماعية .

ـ ويلاحظ أن وضوح تباين هذه الجماعات عن غيرها من جماعات المجتمع الأخرى يرجع الى مظهر اعضائها المادى (الملابس مثلا) فضلا عن آثار سلوك هؤلاء الأعضاء فى مواجهة أعضاء الجماعات الاخرى فى المجتمع . وهى آثار كانت فى الأغلب الأعم سلبية ويراها ويسمع عنها أعضاء المجتمع المصرى افرادا وجماعات . وكان من هذه الآثار السلبية ميل أعضاء هذه القوات الى الاعتداء على الآخرين حيث تزداد مكانة العضو فيها ارتفاعا كلما ازدادت مهارته فى استخدام الأسلحة المختلفة التى يعتدى بها على الآخرين ويحطم بها الأشياء .

ـ ومن ثم فإن جماعات قوات الأمن أصبحت منعزلة وغير مقبولة اجتماعيا . وأصبح التعامل مع أعضائها يولد الشعور بالعداوة بينهم وبين غيرهم من أعضاء المجتمع المصرى الأسوياء منهم وغير الأسوياء على السواء .

ـ واذا كان بعض أعضاء المجتمع المصرى لم يبلغ شعورهم بالعداوة مستوى يجعلهم يستعملون العنف ضدهم ، فإن أعضاء هذه القوات عاشوا فى قلق مرضى وفى حيرة من أمرهم . فهم قبل كل شىء من أبناء الوطن المفدى ، هذا الوطن الذى يتعطر مناخه الثقافى الاجتماعى ، فى ضوء تراثه ، بالسلام وبالقيم الاجتماعية العديدة ذات الاهداف الحميدة التى منها الشعور بالمحبة ، محبة الناس بعضهم لبعض ، والتعاون على البر ، والأيمان الخالص ، وبذل النفس والنفيس فى سبيل شرف الوطن والتضحية من أجله .. الخ .

ـ وإذا كان أعضاء قوات الأمن المركزى فى خلال الفترة الأخيرة (يومى ٢٥ ـ ٢٦ من شهر فبراير عام ١٩٨٦) قد ارتكبوا جنايات عديدة تتسم بالعنف الشديد (منها جنايات

القتل والضرب الذى أفضى الى الموت) ، فإن هذه الجنايات كانت فى الأغلب الأعم جنايات مقاومة السلطات والتجمهر . أى أنها جنايات يرتكبها عادة جماعات ولا يرتكبها افراد (أرجو أن يتفضل القارىء بمراجعة ما ذكرته عن مفهوم العنف وما يتعلق به من قبل) . والملاحظ أنه اذا صدر العنف عن الجماعات أو التنظيمات الاجتماعية أو الثقافية أو المدنية أو السياسية المنظمة كالجامعات والاحزاب والتنظيمات الدينية (المتطرفة) والتنظيمات المهنية (يلاحظ أن قوات الأمن المركزى تنظيم مهنى) يكون هذا العنف عادة مخططا له من قبل .

- وفى ظل بعض ألوان القهر التى يعيش فى ظلها أعضاء المجتمع المصرى المعاصر ، وجد أن بعض هؤلاء الأعضاء قد اشتركوا فى ارتكاب بعض الجرائم ، ولكن يلاحظ أن الأغلبية الساحقة من أعضاء هذا المجتمع وقفت موقف المتفرج وكأن لسان حالهم يقول أن : "السلطة تحارب ضد السلطة" . ومع ذلك فإننا لاحظنا أن عددا كبيرا من أعضاء هذا الشعب قد تعاونوا مع بعض قوات الأمن المركزى الذين أرغموا على دخول السجون ولم يصرف لهم طعام ولا ماء ثم أفرج عنهم أو هربوا من السجون ومشوا فى الطرقات . على غير هدى . وكان العديد من المصريين البسطاء الكرماء يمدون لهم العون بالطعام والشراب والملبس (حيث تركوا فى السجن بملابسهم الداخلية فقط) والمأوى ، وذلك لأنهم أى المصريين البسطاء رأوهم يأكلون ما يصادفهم من حشائش الأرض المزروعة، وكانت حالاتهم يرثى لها . ولعل هذا الموقف أقصد موقف المتفرج وكذلك موقف المصريين البسطاء الكرماء أن يكونا متوقعين .

وعلى العكس من ذلك فقد لوحظ أن بعض ساكنى حى الهرم وغيرهم من سكان العمارات التى حول حديقة الحيوانات قد تبرعوا لجنود الجيش المصرى وضباطه بالشاى الساخن وبعض الحلوى والكعك . وتعتبر هذه الأنماط السلوكية متوقعة أيضا من هؤلاء السكان ، وان كانت تعتبر أستثناء .

- وأننى أرجو من القارىء الكريم أن يلاحظ ما لاحظته ولاحظه الكثيرون من أعضاء المجتمع ، المكان ، الذى بدأ فيه العنف وتوقيت حدوثه . فالمكان كان سياحيا والتوقيت كان فى الموسم السياحى حيث يكثر الاجانب من الجنسيات المختلفة وهم خير وسيلة اعلامية خارج حدود مصرناالخالدة للنيل من النظام الذى يعيش أعضاء مجتمعنا تحت رايته .

- وقد اتخذت صور عنف المتمردين من أعضاء قوات الأمن المركزى ، وبخاصة فى منطقة القاهرة الكبرى ، صورا عديدة . وكانت تهدف هذه الصور فى الأغلب الأعم الى ازهاق الارواح والى ما يملكه ذوو اليسار من أبناء الوطن أو غيرهم ، وأحراق الملاهى الليلية (الكاباريهات) والفنادق والمطاعم . ويرجع ذلك الى شدة صور العنف وقسوتها وليس بالضرورة الى وازع دينى ، وان اتخذ بعض المتدينين المتطرفين هذا الوازع ذريعة. فى بعض الأحيان (أنظر : محمد ابراهيم حسنين عمران : أحداث الشغب والعنف يومى ٢٥ و ٢٦ فبراير ١٩٨٦ ، اشراف سيد عويس ، معهد القادة لضباط الشرطة ، شهر ابريل عام ١٩٨٦) .

أمثلة حية تاريخية عن بعض أنماط العنف

٨ - التفرقة اللاانسانية :

من الوصمات اللامعة اجتماعيا ، التى توجد فى الكثير من المجتمعات البشرية المعاصرة ، ما يطلق عليه التفرقة اللا انسانية . وهى أنماط عديدة . منها التفرقة الطبقية والتفرقة الدينية والتفرقة العنصرية . والأمثلة على التفرقة الأخيرة وبخاصة فى قارتنا الأفريقية عديدة ، وهى واضحة وضوح الشمس وهى ساطعة فى كبد السماء فى المجتمعات الغربية وبخاصة فى المجتمع الأميريكى . ونجدها فى الوقت الراهن فى معظم بلاد العالم أقصد فى معظم القارات التى تكوّن كوكب الأرض . يقرأ الانسان العادى عن ذلك فى الصحافة ونسمع ونشاهد ألوانا من هذه التفرقة على الشاشة الكبيرة وعلى الشاشة الصغيرة أيضا .

ولاجدال فإن التفرقة العنصرية تسلم بوجودها ، بالضرورة المبادىء غير الانسانية بأنماطها . فهو أى وجود التفرقة العنصرية مهما كانت عوامله ، لايمكن أن تعترف به ، أبداً مبادىء العدالة والانصاف . والملاحظ إذا أمعنا النظر فى

البقاع التى توجد فيها هذه التفرقة الانسانية نجد أنها مصدر هام من مصادر الشعور بالعداوة الذى بدوره يؤكد الصراعات فى المجتمعات التى تسمح بوجودها . وأرجو أن يذكر القارىء الكريم هذا الشعور أقصد الشعور بالعداوة ، أنه وليد العنف بألوانه . ففى ضوء تجاربى الواقعية التى عشتها وأنا فى الولايات المتحدة فى خلال الفترة من عام ١٩٥٣ ـ ١٩٥٦ ، وعندما زرت هذه البلاد فى خلال عام ١٩٧٠ ، كانت التفرقة العنصرية السائدة فى المجتمع تنم عن ألوان مستمرة من الاحباط فى صفوف الزنوج الأميريكيين ، بل كانت مصدر لاينضب من مصادر هذه الألوان .

وكانت التجربة الأولى عندما تيسر لى السكن فى "محلة نورفلك" الواقعة فى ميدان "جون اليوت" بمدينة بوستن. واختار لى المدير غرفة من غرف المحلة العديدة التى كان عددها حوالى مائة غرفة أو أكثر . وأننى أذكر أن هذا المدير قد قابلنى وكان بشوشا ويبدو على وجهة السرور ، ولم أعرف عوامل هذه البشاشة وهذا السرور إلا بعد هذه المقابلة . وقد ذكر المدير أنه نظير المبيت فى غرفتى والاستمتاع بحقوقى (إستعمال المكان المخصص للراحة والمطبخ ومشاهدة برامج التليفزيون .. الخ) أن أعطى من وقتى ست ساعات فى المساء أسبوعيا واخترت يومى الاثنين والأربعاء من كل أسبوع لاؤدى عملى كاخصائى اجتماعى متخصص فى طريقة خدمة الجماعة .

والملاحظ أن محلة "نورفلك" كانت تقع فى حى يسكنه سكان من الزنوج كثيرون . وقد كانت نية مدير هذه المحلة أن يبدأ السماح لكى يلتحق بالمحلة بعض الشبان من الزنوج وبخاصة وقد وجد لون جلدى مناسباً لريادة هؤلاء الشباب .

وفى ضوء خبراتى المهنية وسمات وجهى رأى المدير أننى فى نظره صالح لقيادة هذه الجماعة من شبان الزنوج شكلا وموضوعا . وكانت نشاطاتى مع جماعة الأولاد الزنوج الذى أطلقوا على انفسهم "ذافيبرز" أى "الافاعى السود" متعددة . وقد لاحظت أن كل عضو من هؤلاء يلبس "جاكيت" سوداء اللون مكتوبا عليها باللون الأبيض اسم الجماعة .

وقد سعدت بمهمتى سعادة كبيرة لأننى أعمل بين الأولاد الزنوج الذين يعتبرهم "البعض" بعامة وحتى فى مدينة بوستن "مدينة الحرية والأحرار" حيث يجد الزائر لمجلس نواب هذه المدينة نصبا أقيم تخليدا لذكرى أول زنجى صرعه الانجليز (المستعمرون) فى الحرب الثورية فى عام ١٧٧٠ ، انصاف مواطنين . وأنا لا أقول هذا الكلام جزافا فقد ذكر لى "جون جراى" الزنجى الوحيد الذى كان بيننا وهو طالب فى كلية الفنون الجميلة بمدينة بوستن ، أنه لم يجىء إلى محلة نورفلك إلا بعد أن دار فى شوارع بوستن وحاراتها اياما لكى يسكن مع زميل له "ابيض" ولم يجد مكانا يؤويه إلا إحدى الكنائس التى وجهته الى المحلة . كان أصحاب الشقق للايجار يرحبون بزميله الأبيض ويرفضونه هو . وكانت صدمة عنيفة له لانه كان يعتقد أن مدينة بوستن لها تاريخها وتعتبر مصدر الحرية والأحرار الذين فروا من أوروبا إلى الأرض الجديدة ليعمروها بعيدين عن القيود التى كانت مفروضة على آرائهم فى ذلك الحين ، لايمكن أن يجد فيها لونا من ألوان التفرقة .

ولن أنسى وسأذكر دائما وقع سقوط قلعة "ديان بيان فو" فى يوم ٧ من شهر مايو عام ١٩٥٤ ، وهى التى حاصرها الفيتناميون الأحرار حصارا دام ٥٥ يوما على قادة الولايات

المتحدة السياسيين وغيرهم عندما استمعت الى الرثاء الذى بثه المذيع يوم سقوط القلعة ، كان رثاء "ندابة" مصرية ، صدر عن قلب مكلوم حزين حقا . ولقد دهشت لان هذه القلعة تقع في الشمال الغربى من "أقليم فيتنام" ، وأن الذين هزموا كانوا من جنود وضباط جيش الفرنسيين ولم يكونوا من جنود وضباط جيش الولايات المتحدة . ولكنه الغرب ومصالح الغرب ومستقبل الغرب ، كلها ، هي التى دفعت هذا المذيع المكلوم الحزين أن يبث مرثاته على بنات وأبناء الشعب الأميريكى وغيرهم فى يوم ٧ من شهر مايو عام ١٩٥٤ .

وسأذكر دائما انطباعات نزلاء محلة نورفلك (زميلاتى وزملائى) لما حدث فى خلال عامي ١٩٥٥ و ١٩٥٦ ، عندما هبت على المجتمع الأميريكى زوابع "جوزيف مكارثى" الذى كان يظنه البعض من خارج الولايات المتحدة أنه القائد الأميريكى "دوجلاس ماك آرثر" الذى قاد القوات الأميريكية فى الشرق الأقصى فى الحرب العالمية الثانية ، والقوات المتحالفة لليابان بعد هذه الحرب ، أما جوزيف مكارثى فقد كان عضوا بمجلس الشيوخ الأميريكى عن ولاية "وسكونسن" وكان من أصل ايرلندى وكاثوليكى وينتمى الى الحزب الجمهورى ، كان هو وأتباعه فى تلك الفترة يتعقبون بالشبهة والشائعة العديد من المثقفين الأميريكيين (كأساتذة الجامعة ومن فى حكمهم مثلا) ويتهمونهم بالموالاة للشيوعية واثارة الفتن . وكانت جلسات محاكمة الأخيرين تعقد وتبث وتشاهد فى التليفزيون يوميا تقريبا . وكانت مواعيد هذه الجلسات محددة ويجتمع فى خلال فترة بثها ملايين الأميريكيين حول التليفزيونات متتبعين مايدور فيها . وكنت مع معظم نزلاء محلة نورفلك حريصين على أن نفعل ذلك ونرى

أمامنا مايحدث وكأننا نرى فيلما سينمائيا مخيفا . وقد تأكدت أن مكارثى وأعوانه ومن كانوا وراءهم كانوا يبغون أن لايلفتوا نظر أعضاء المجتمع الأميريكى الى ما يهمهم من أمور عن عمد بوساطة جذب انتباههم الى ما كان يحدث فى هذه المحاكمات . أن مجتمع الولايات المتحدة كما كنت أراه ويراه غيرى من العلماء والمثقفين الأميريكيين كان مجتمعا يستشرى فيه الفساد فى نواح كثيرة ، فقد كانت أكبر نسبة من الجرائم توجد فى هذا المجتمع ، وكانت أكبر نسبة من مرضى القلب توجد فى هذا المجتمع أيضا . وكانت من كل عشر آنسات أو سيدات أربع مريضات بمرض نفسى أو عقلى ، وكان من كل ١٣ رجلا واحد يمارس بل يحترف الجنسية المثلية . وكان جناح الاحداث فى ذلك الحين يستشرى فى أكثر من مليون حدث . كل هذه الحقائق وغيرها مثلها قد عرفتها وعرفها غيرى فى ضوء نتائج بحوث علمية اجتماعية أجريت فى تلك المجالات فى ذلك الحين . صحيح أن مستوى الجانب الثقافى المادى فى المجتمع الأميريكى مستوى عال ما فى ذلك من شك . وأن مستوى المعيشة فى محيط الأميريكيين مستوى عال ما فى ذلك من شك أيضا . ولكن القارىء الكريم يعلم كما أعلم تماما أنه ليس بالخبز وحده يحيا الانسان . ومهما يكن من الأمر فإننا نجد فى ثنايا تاريخ الولايات المتحدة ، طبقا لما ذكره "شارد بورزسميث" فى كتابه (اليانكيون والآله) ، ظواهر تشابه "ظاهرة المكارثية" . أى أن ظاهرة المكارثية قد حدثت فى تاريخ هذا البلد مرات عديدة . والملاحظ أن مقومات هذه الظواهر كانت فى الأغلب الأعم متشابهة . فنجد أنها تستند الى قيادة قوية ولكنها فى نفس الوقت قيادة غبية وأن غباءها مستحكم لدرجة أنها لاتستطيع نقد نفسها ذاتيا أو أن تكون فكرة أو تصورا

عن ذاتها . وهى تستند أيضا إلى الاندفاع العصابى أما لتحقيق القوة أو للاحتفاظ بها . وهى تستند كذلك الى ماتتزود به من شجاعة حيوانية وضحالة أخلاقية التى تيسر لها التبرير لما تقوم به من العنف أو النزوع الى الحصول الى المغانم غير المشروعة ، فضلا عما تقوم به من أنواع الحقد وتعمد الاذى والرذيلة .

كانت هذه المقومات التى ذكرها "شاردبورزسميث" فى كتابه الذى نشر فى عام ١٩٥٤ كلها ، تتحدث عن نفسها أمامنا ، وأمام الملايين من أعضاء المجتمع الأميريكى ، عندما كنا نشاهد ظاهرة المكارثية على الشاشة الصغيرة . وقد شهدها قطعا أعضاء هذا المجتمع من قبل فى عام ١٦٥٠ عندما كانت الضحايا أعضاء "مذهب الكويكرز" وأعضاء "مذهب البابتستس" (المعمدون البروتستانتيون) ، وما حدث فى عام ١٦٩٢ عندما طوردت "الساحرات" وعذبن فى مدينة "سالم" بولاية ماساتشوسيت لمدة ستة شهور . وفى خلال الاعوام ١٨٤٠ ـ ١٨٥٠ عندما ظهرت الحركة المضادة للمذهب الكاثوليكى . (أنظر شاردبورزسميث : اليانكيون والأله باللغة الانجليزية ، نيويورك ، عام ١٩٥٤ ، صفحة ١٠ ، وصفحة ٤٢٩ وصفحة ٤٦٤) .

ولم أكن أدهش كثيرا عندما كنت أرى تابعا من أتباع مكارثى يدلى بشهادة فى المحكمة التى كنت إراها كما كان يراها الملايين غيرى على شاشة التليفزيون . كنت أرى فى هذا التابع ظلام الجهل الذى يعشش فى تلافيف دماغه ، وكنت أرى فيه الشعور بالنقص واضحا ، أما رغبته فى تحطيم من كان أفضل منه وأعظم فلم تكن تخفى على أحد . وكنت أرى فى هذا التابع كذلك محاولته التى كان يصر عليها لتظهر

قدرته على إظهار كل ماهو غير ذى علاقة بموضوع اتهام ضحيته . وكانت تنتهى المحاكمة واذكر أننا نزلاء محلة نورفلك كنا نمكث على مقاعدنا قليلا . وكان لايتكلم منا أحد . ثم نتفرق واحدا وراء الآخر . لم يكن يتحدث معى عما رأيناه وسمعناه أحد ، ولم آكن أنا أيضا أتحدث مع أحد حتى مع من كان تجمعنى وأياهم النظرة نحو الحياة . لم يكن يجرؤ واحد منهم أن يقول لى شيئا أو يعلق على ما رآه وسمعه بشىء . ولعل ذلك يرجع الى أننى كنت فى حجرة المطبخ فى الساعة الواحدة صباحا فى يوم من أيام هذه الفترة وكان معى شاب "كندى" كنا نلتمس طعاما "نسكت به العصافير" التى كانت تزقزق فى بطن كل منا . فإذا بالنزيل الزنجى (الذى انضم معه الى نزلاء المحلة آنستان زنجيتان فى تلك الفترة) . كان فى الخارج وفى أثناء دخوله من باب المحلة ناداه أحد رجال الشرطة من الزنوج . وقال لنا جون أنه سأله عن النزلاء : ماذا يقولون وماذا يفعلون ، فنفى جون أنه سمع شيئا غير عادى أو رأى فعلا استثنائيا . كان جون يقول لنا ذلك وهو ممتقع الوجه وكانت يداه ترتعشان . ولم نعلق بشىء ولكننا عرفنا أننا أى نزلاء المحلة تحت المراقبة . ومن كان تحت المراقبة وهو فى بلاد الغربة مثلى يصح له أن يعيش حياة الاغتراب أى يعيش وهو موجود ويعيش وهو غير موجود فى آن واحد . انّ المسألة ، كما كنت أقول لنفسى ، ليست جبنا أو خوفا أو خشية ، ولكن المسألة أهم من ذلك وأعظم وهى أن أحرص على حياتى أن تهدم بلا مبرر . وكانت لى تعاليم "أسبارتاكوس" العبد الثائر ، الذى ثار على روما والدولة الرومانية وكانت فى عنفوانها وسطوتها على العالم فى ذلك الحين ، أسوة . فقد كان هذا العبد الثائر حريصا على أن

يبقى حيا لكى يبدأ مهمته العظيمة ولكى يتمها بنجاح . وكان ينصح زملاءه بأن يحرصوا ما استطاعوا على صحتهم لكى يبقوا أحياء لكى يؤدوا ما عليهم من واجبات نحو أنفسهم ونحو زملائهم ونحو المستقبل ، أقصد مستقبل الانسان لكى تتحقق انسانيته فعلا وحقا .

واذا اعتبر القارىء الكريم أن زوابع مكارثى هى نوع من التفرقة اللاانسانية الفكرية ، فقد كانت عواقبها وخيمة وفى ضوء التاريخ الأميريكى بدا تكرارها . وقد اكد ذلك "شاردبورزسميث" فى كتابه الذى ذكرته من قبل عن "مذبحة الزنوج المسيحيين" كما سماها . فعلى الرغم من أن هؤلاء الزنوج قد اتخذوا من الدين المسيحى وجاء وحماية فإن هذا لم يمنع من ذبحهم فى إحدى الفترات التاريخية فى إحدى الولايات "انجلترا الجديدة" .

والشىء بالشىء يذكر فإننى أرجو من القارىء الكريم أن يسمح لى بأن اذكر خبراتى مع جماعة شبان الزنوج الذين أطلقوا على أنفسهم اسم "الافاعى السود" . كنت أشرف على هذه الجماعة ، نظير اقامتى بمحلة نورفلك ، كأخصائى متخصص فى طريقة خدمة الجماعة . كانت لى مع هؤلاء تجارب وتجارب ، وأرجو من القارىء الكريم أن يسمح لى بإرجاء التحدث عن ذلك حتى أتمكن من ذكر تجربة أخرى هزت المجتمع الأميريكى هزا عنيفا . فوجىء أعضاء هذا المجتمع فى أوائل شهر ديسمبر عام ١٩٥٥ بما قامت به السيدة الحائكة الزنجية "مسز روزا باركس" التى كانت تعمل فى معرض "مونتجمرى بولاية الاباما" وأصبح ماقامت به هذه السيدة الزنجية تاريخا . كانت مسز روزا باركس بعد يوم شاق فى عملها فى طريقها الى "محطة الاوتوبيس" . وعندما

ركبت وقفت فى القسم المخصص للزنوج وجلست فى أول المقاعد التالية للقسم المخصص للبيض . وكان "الاتوبيس" مزدحما فأمرها سائق الاتوبيس هى وثلاثة آخرين من الزنوج باخلاء مقاعدهم حتى يجلس مكانهم بعض الواقفين من البيض . وأخلى الثلاثة الآخرون أماكنهم ، أما مسز باركس فقد رفضت . ولما كان ما فعلته هذه السيدة الزنجية فى ضوء القانون يعد جريمة فقد قبض عليها وسيقت إلى قسم الشرطة مشيعة ببعض ضحكات الركاب البيض ولعناتهم . وانقضى الحادث فى دقائق . ولكن من هذا الحادث الذى كان يبدو صغيرا انبثق ما يشبه الثورة فى محيط زنوج الولايات المتحدة . كان موقف مسز باركس يعتبر انفجارا فى محيط زنوج الولايات المتحدة أو محيط الأغلبية الساحقة منهم . وقد ابلغتنى "دوتى" وهى احدى النزيلتين الزنجيتين بمحلة نورفلك انها تعرف هذه السيدة معرفة شخصية ، ووصفتها بأنها سيدة طيبة "وفى حالها" وهى أى دوتى دهشت كثيرا لما حدث منها . والواقع أن دوتى لم تكن وحدها التى كانت تحاول اكتشاف العوامل التى حدت بمسز باركس الى أتخاذ هذا الموقف ، فقد علمنا أن سلطات مونتجمرى كانت تصر على أن "أتحاد تقدم الملونين" بالولايات المتحدة هو-الذى دفعها الى فعل ما فعلت . وقال بعض المتطرفين أن ما فعلته مسز باركس كان عملية "شيوعية" . ولكن الحقيقة كما بدت لى فى ضوء خبراتى التى عشتها فى الولايات المتحدة أن مسز باركس انما عبرت عن روح العصر . لقد كانت واحدة من الزنوج الذين فاض بهم الكيل . وكان القبض عليها بمثابة الشرارة التى أشعلت نيران الحماس فى قلوب بعض السيدات الزنجيات فكون لجنة منهن التى أتصلت بالقسس وغيرهم من القادة الزنوج المدنيين ، وطالبت هذه اللجنة بمقاطعة الزنوج

للاوتوبيسات وقد كانوا يكونون ٧٥٪ من ركاب الأوتوبيسات . وأخذ "قس" شاب على عاتقه مسئولية توزيع المطبوعات التى تدعو الى المقاطعة . وكان هذا القس هو "الدكتور مارتن لوثر كنج" .

كانت هذه الحوادث تجرى بسرعة مذهلة ، وكنا أنا ومن حولى فى محلة نورفلك وحتى فى الجامعة نترقبها أولا بأول ولم نكن ندرى ما الذى سيكون مصيرها ، وأن كنا ندرى أن ماحدث كله لم يكن ثورة ضد البيض بقدر ما كان ثورة ضد قيادات الزنوج وأهدافهم . وقد تأكد لى ذلك مرات ومرات فقد علمت أن أحد أعضاء مجلس النواب الأميريكي ذهب مع من ذهبوا لحضور "مؤتمر باندونج" الذى عقد في شهر ابريل عام ١٩٥٥ . وقد أعد هذا العضو زيارات الى مدن الولايات المتحدة ليلقى فيها محاضرات عن هذا المؤتمر وكان من بين هذه المدن مدينة بوستن ، وأنه قد تحدد موعد حضوره الى مدينة بوستن فى خلال شهر يوليو عام ١٩٥٥ . وما أن علمت بذلك حتى سارعت إلى حجز مقعد لى فى الصالة التى ستلقى فيها المحاضرة نظير مبلغ معين . واذكر اننى عشت مترقبا الموعد حتى جاء . وذهبت فوجدت القاعة غاصة بالمواطنين الأميريكين من الزنوج . ولم يكن من بينهم من غير الزنوج سوى عدد قليل جدا . وعلمت وأنا في القاعة أن المحاضر (أحد القادة) زنجى . كان محاضرا لبقا ما فى ذلك من شك تتدفق الكلمات من فمه بلهجته الزنجية الراقية سلسة عذبة ، ولكن المهم عندى كان ما الذى يزمع أن يقوله عن هذا الحدث العالمى وهو القائد الزنجى المرموق . قال كل شىء عن ظروف معيشته . ووصف وجبات الأغذية الرخيصة الثمن بالنسبة للأسعار فى المجتمع الأميريكى . وصف أيضا الشوارع وعلو

المنازل وطبقاتها والوانها ونظافتها . وأنني اذكر وأنا في دهشة أن القاعة قد ضجت ، عندما ذكر الأسعار التي دفعها نظير كل وجبة ، بتصفيق الحاضرين ، وكان هذا كل ماقاله المحاضر الزنجي "الخطيب المفوه الذي كان يعي مايقول والغرض مما يقول" فقد كان يكرر ماقاله مرات ومرات وبخاصة ماقاله عن أصناف الطعام وسعرها الرخيص . كان يبدي ويعيد ويكرر ما كان يقوله محاولا أن يستغرق من الوقت أطوله . ثم ختم حديثه ، وكان التصفيق حادا ، عندما ذكر أن الملونين من الناس في العالم هم أضعاف البيض ، وأن النصر سيكون حتما حليفهم . لم يقل شيئا عن مؤتمر باندونج ولا عن الخطب التي ألقيت فيه ولا عن التوصيات شيئا

وقد حزنت بعد سماعي لهذا المحاضر القائد الزنجي الذي تخلى عن واجباته نحو ذويه وأهله نظير دراهم معدودات يجمعها من هنا ومن هناك والتي ستزيد حتما على تكاليف ذهابه إلى مؤتمر باندونج اذا كان قد صرف من حسابه سنتا واحدا . فمثل هذا الرجل يرسل خصيصا من جهة من الجهات المسئولة عن تخطيط السياسة في الولايات المتحدة والنفقات تكون بالضرورة على حسابها . ومهما يكن من الأمر فإنني بعد هذه التجربة وغيرها من تجارب على شاكلتها من قبل ومن بعد ، قد زادت بل اكدت اقتناعي بأن ماقامت به "مسز باركس" كواحدة من زنجيات الولايات المتحدة وزملائها الزنوج في نفس الولايات من الذين فاض بهم الكيل . وما فعلته كان في الأغلب الأعم ضد بعض قيادات الزنوج وأهدافهم .

وأعود الآن الى خبرتي مع جماعة "الافاعي السودا[redacted] طبعا اذا تفضل القارىء بالسماح لي . لم اعرف رد فعل هؤلاء

الاعضاء ، اذ كانوا أول جماعة من الزنوج تسمح لهم إدارة محله نورفلك باجراء نشاطاتهم فيها . ولم أكن أعرف رد الفعل عندما علموا بأنني سأكون المشرف عليهم كأعضاء في المحلة . كنت لا أملك لهم ، وأنا لا أملك غير ذلك ، إلا الحب والاحترام ، كانوا في أول الأمر لايثقون في الثقة التي أبغيها منهم لكي أفيدهم بخبراتي ولكي أفيد بخبراتهم . كانت اللغة في أول الأمر عائقا بيني وبينهم ، فقد كانوا يتحدثون اللغة "الأميريكية" بأسلوب الرجل العادى غير المثقف (الذى يستعمل فكره أكثر من يده) ، فقد كانوا يتحدثون هذه اللغة بسرعة . وكنت عندما أتحدث اليهم وكانت لغتي هى اللغة الفصيحة يسخرون من لغتي ويداعبونني . كنا نتقابل يومى الأثنين والأربعاء من كل أسبوع من السادسة مساء الى الساعة التاسعة مساء . وكنت أول من يحضر في المكان المخصص لنا ، إذ كانوا يتلكئون في الحضور ويتأخرون عن المواعيد المحددة . وكنت أجلس انتظر مؤمنا بأن حبى لهم واحترامى سيشعرون بهما حتما في يوم من الأيام . وفي احدى الليالي في أوائل شهر ديسمبر عام ١٩٥٣ انتظرت جماعة الفيبرز ، ولكن لم يحضر أحد . ومر الوقت فإذا الساعة تشير الى السابعة والنصف مساء . فحزمت أمرى على أن أذهب اليهم ، فقد كنت أعلم أن المدارس في "حى روكسبرى" تفتح أبوابها للشباب مساء لكي يقضوا أوقات فراغهم كلما عنّ لهم ذلك . ولم يكن هناك أشراف مهنى في هذه المدارس على من يحضر من شباب الحى أو من غيرهم من الشباب . وذكرت لمدير المحلة ما عزمت عليه فلم يقف في سبيلى وترك الأمر لى . وذهبت في شوارع حى روكسبرى ألتمس المدارس التى تقع فيه ، وكان البرد قاسيا حقا ،

وسرعان ما وجدت أعضاء جماعة الفيبرز فى أحد الملاعب فى احدى المدارس رأيتهم وما أن رأونى حتى سارعوا الى استقبالى وطلبت منهم الذهاب معى الى المحلة أقصد محلة نورفلك ، فقد انتظرت طويلا ولم يحضر أحد . وابلغتهم فى حب واحترام أن هذه المحلة قد اتاحت لهم الفرصة لكى ينشطوا ماشاء لهم من النشاط المشروع فى حدود الوقت المحدود . ورأيتهم يحيطون بى ويتبعوننى ، وذهبنا الى المحلة ودخلنا من الباب الى الحجرة المخصصة لنا حيث تعهد الجميع على عدم التأخير فى يومى الاثنين والأربعاء من كل أسبوع فى خلال الفترة المسائية من الساعة السادسة الى الساعة التاسعة ، وقد أوفوا بوعدهم منذ ذلك الحين الى أن تركت المحلة بعد أن أديت مهمتى الدراسية بحصولى على درجة الدكتوراه فى شهر مايو عام ١٩٥٦ : لقد أيقنت منذ تلك الليلة فى أوائل ديسمبر عام ١٩٥٣ بأننى كسرت "لوح الثلج" الذى كان يقف عائقا بينى وبين جماعة الفيبرز . وقد تأكد ذلك عندما تبرعوا لكى يشتروا لى "هدية" بمناسبة "عيد الكريسماس" ، وعندما دعونى لحضور كنيستهم صباح يو أحد من الآحاد ، وعند ما دعانى رئيسهم الى طعام الغذاء فى بيتهم المجاور للمحلة . وعندما كنا نتبادل الزيارات العديد بعد ذلك ، هم يأتون عندى فى المحلة وأنا أذهب الى بيوتهم وتوطدت صداقتى الخالصة بهم وبأعضاء أسرهم . ولن أ ما حييت زياراتى لبيت عضوين من أعضاء الجماعة الزنجية كان البيت فى احدى حوارى حى روكسبرى الفقيرة جدا واذا بى فى الشقة اجدها نظيفة جدا وأثاثها يتضم "البيانو" و "المكتبة" التى تتكدس فيها الكتب والمجلات م كل نوع . ولن انسى الرجل الزنجى كبير السن الذى قابلته ف احدى المرات ، كان الجد الكبير ، ويبدو أنه كان فى الثما

من عمره . وكان هذا الرجل الهرم لطيفا معى واحتفى بى ، فأنا قد جئت من قارة أفريقيا ، احتفاء كبيرا . وتحدث معى كثيرا وكان يقول لى فى يقين "يا ابنى لاتثق أبدا فى الرجل الأبيض ولاتذهب الى دار السينما ولا إلى مطعم وتجنب الرجل الأبيض ما استطعت الى ذلك سبيلا" . ولعل هذه العبارات التى صدرت على لسان هذا الرجل الهرم قد نشىء على معانيها أعضاء أسرته الرجال والنساء والشبان والشابات . ولعل ذلك يعنى أن الحياة بين الرجل الأبيض وبين الرجل الزنجي كانت متوترة أبدا ولاتسعد اى انسان عاقل رشيد يرى أن الانسان ليس بأصله أو بنوعه أو بجنسه بل الانسان يقدر بما يفعله من خير لمجتمعه أى لما يريد لمجتمعه أن يتغير الى ما يجب أن يكون وذلك بتغييره الى الأفضل حيث يحس عضو المجتمع بانسانيته ويحس بانتمائه لوطنه .

ويبدو لى أننى اقول كلاما ليس له صدى . فقد قدر لى أن أقف مواقف سخيفة بسبب لون بشرتى أو بسبب تفكيرى أو بسبب دينى فى الشارع وفى المحلة وفى الجامعة مرارا وتكرارا . وأرجو أن لايمل القارىء الكريم اذا ذكرت هذه المواقف حيث كنا فى فترة من فترات الصيف . وعلى الرغم من أننى كنت أعمل صيفا وشتاء كمتلقى لمحاضرات الجامعة نظريا وعمليا حتى أختصر وقت الدراسة لاعود الى بلدى الحبيب مصرنا الغالية حيث تعيش أسرتى الحبيبة ـ وكانت فترة الصيف فى محلة نورفلك يتخذها الطالبات والطلبة الجامعيين فى جامعات مدينة بوستن ، مقرا لهم ، وذلك ليقوموا بعمليات تنظيف الشقق التى يسكنها الفقراء فى حى روكسبرى . وكان أصحاب هذه الشقق من البيض الفقراء ومن الزنوج المطحونين . وكان طالبات وطلبة جامعات بوستن هؤلاء من الأسر التى تستطيع أن تدفع مصاريف الجامعة

العالية فضلا عن المصاريف الأخرى التى تتطلبها المعيشة الرغدة لبناتها وأبنائها .

كان هؤلاء الطالبات والطلبة من طبقة غير الطبقة ، ويحاولون أن ينزلوا الى الطبقات الدنيا ليحتكوا ثقافيا بأعضائها فيفيدوا . وفى نظير ذلك أو فى سبيل تحقيق ذلك يلتزمون بأداء خدمة تنظيف الشقق عن طريق تبييضها أو نقشها أو إعادة تبييضها أو نقشها . وكنت أرى أعضاء هذه الجماعة وقد حمل بعضهم على كتفهم "السلم الخشبى" "أو فى أيديهم الفرشاة" أو "جردل البوية" . وأراهم وهم يسيرون فى الشارع بأصرار ودون ما وجل أو خشية من أحد وكنت أرى ذلك ، وكان غيرى من سكان الحى يرونه ، وكنت أرى الزهو أحيانا ، وكنت أرى التواضع أو ماكان يبدو لى أنه تواضع احيانا أخرى .

ولاننى كنت من نزلاء محلة نورفلك ، ولأن وقت الفراغ فى خلال فترة الصيف أطول منه فى فصل آخر ، فقد كان المسئول عن نشاطات اعضاء جماعة الطالبات والطلبة المذكورين يوجه الدعوة الىّ لحضور اجتماعها بعد أن يكونوا قد أدوا مهامهم اليومية ، لم تكن هذه الدعوة توجه الىّ يوميا بالطبع ، فالجماعة لها نظامها وتقاليدها وقيمها الاجتماعية الحميدة منها فى رأيى وغير الحميدة منها فى رأيى أيضا . ولم أكن عضوا فيها . وكانت الجماعة تعيش فى محلة نورفلك فى فترة الصيف حيث لا عمل فيها أو فى الجامعات التى ينتسبون اليها . أن أعضاءها فى حقيقة الأمر كانوا يقيمون فى المحلة اقامة فعلية لفترة لاتقل عن شهر . وفى الاجتماع الذى كنت أحضره اجد أن كل عضو يدلى من ورقة بشىء يشبه التقرير عما مرّ به من تجارب وما اكتسب من خبرات .

وكان من بين أعضاء الجماعة من كانوا من ولايات الجنوب مثل "ولاية الباما" و "ولاية جورجيا" .

وفى احد الاجتماعات الذى دعيت الى حضوره أدلى احدهم وكان من احدى العائلات البيض الثرية تقريره اليومى وكان يسهم مع آخر فى تنظيف احدى الشقق لأسرة زنجية . كان هذا الشاب قد جاء من ولاية جورجيا وكان عضوا فى صفوف طلبة "جامعة هارفارد" فى منطقة "كامبردج" التى لايفصلها عن جامعة بوستن الا كوبرى صغير . وبدت على وجه هذا الشاب وهو يتحدث علامات التقزز والاشمئزاز والازدراء جميعا . وقال ضمن ما قاله أنه "لايطيق رؤية أحد الزنوج يسير فى الشارع فكيف له أن يقوم بتنظيف شقة أسرة زنجية أو أن يسهم فى هذا التنظيف ؟ . كانت مشاعره تأبى عليه أن يواصل مابدأ . وبدا أن الموقف ، إذ كنت حاضرا ، حرجا . وكان رئيس الجماعة أو المسئول عنها لبقا فاقترح تأجيل النظر فى هذه الحالة الى جلسة مقبلة التى لم أحضرها لسبب بسيط لأننى لم أدع الى حضورها أو إلى حضور غيرها من الجلسات .

وأننى أرى وأرجو من القارىء الكريم أن يرى ما أرى أن الظاهرة الاجتماعية بل أن أى شىء فى عالمنا شىء له تاريخ . كل له تاريخ هذا عنوان كتاب "بروفسور هولدين" الذى نشر فى عام ١٩٥١ . وفى ضوء هذه العبارة الصادقة التى تذكرتها وأنا فى عرض المحيط الأطلنطى عائدا الى مصرنا الخالدة بعد حصولى على درجة الدكتوراه فى عام ١٩٥٦ . فى هذه الأثناء تذكرت أيضا زنوج الولايات المتحدة وكيف كانوا يجلبون قسرا من بلادهم ومن أحضان ذويهم الحانئة الى القارة الأميريكية .

كان الانجليز من أهم تجار "العبيد" كانوا يبزون الاسبانيين والفرنسيين والبرتغاليين والهولانديين فى هذه التجارة اللاانسانية . وقد بدأت تجارة العبيد منذ عام ١٦٨٠ عندما رأى المستعمرون أن زنوج افريقيا خير معين لهم فى القيام بالاعمال الشاقة فى مزارعهم الشاسعة .

وكان الانجليز من المستعمرين يقومون بهذه التجارة عن طريق ما أطلق عليها "تجارة المثلث" حيث كانت تخرج المراكب من ميناء "ليفربول" أو "ميناء" "برستل" وهى فارغة ، ويقودها القراصنة من التجار الانجليز ، الذين كانوا يسولون لانفسهم تجارة البشر (أصبح هؤلاء فيما بعد اللوردات الانجليز الذين طالبوا بالحكم ، وأحفادهم اليوم هم الساسة المرموقون فى المجتمع الانجليزى) . وكانت المراكب الانجليزية الفارغة تسير الى أن تصل الى مرساها عند ساحل افريقيا المطل على المحيط الأطلنطى . وكانت بضاعة هؤلاء النخاسين التى يستبدلون بها البشر من العبيد الأفريقيين من الذين كانوا يجمعون بعد أن يصطادهم الذئاب من التجار الذين كانوا يحشدونهم فى أماكن تقع على ما يعرف الآن بـ (ساحل غينيا) . كانت هذه البضاعة الزجاجات المملوءة بأنواع الكحول الرديئة والأسلحة النارية الصغيرة وبعض المنسوجات القطنية والعديد من الحلى التافهة .

وتمثل هذه العمليات الضلع الأول من مثلث هذه التجارة اللعينة . ثم يحشد ما تم أستبداله من العبيد فى المراكب لكى يعبروا المحيط (الأطلنطى) مرة ثانية فى طريقهم الى المستعمرات الأميريكية . وكان هدف أهداف هذه العمليات مرجعه الى الجشع والرغبة فى الربح عن طريق العنف والقسوة اللا انسانية وكانت هذه الرغبة فى الربح تتغلغل فى أعماق نفوس تجار العبيد من البشر أو تجار البشر

الذين أصبحوا عن طريق استخدام الأرهاب عبيدا .

وبتحقيق هذه العملية يكون قد أستكمل الضلع الثانى من تجارة المثلث . ثم يبدأ الضلع الثالث وذلك بأن تكدس المواد المختلفة التى انتجتها المستعمرات الأميريكية ومن أهمها "عسل السكر" نظير مابقى من العبيد المغلوب على أمرهم حسب اعمارهم ونوعهم وماتبقى لهم من صحة وعافية . ثم تقلع المراكب بما حملت لتذهب من حيث أتت أى الى ميناء ليفربول أو ميناء برستل . (الموسوعة البريطانية : عدد ٢٠ ، بتاريخ ١٩٦٨ ، صفحة ٦٣٥) .

لم أكن فى ذلك الوقت الرهيب جئت الى هذه الدنيا ولكننى قرأت الاعلان المواجه لصفحة رقم ١٩٦ فى الموسوعة البريطانية : عدد ١٦ ، بتاريخ ١٩٦٨ ، اذ يقول هذا الاعلان :

"للبيع على سطح مركب" بانسى : باند "يوم الأثنين ٦ من شهر مايو المقبل على "المعدية ـ ابليرى" حمولة منتقاة من ١٥٠ زنجيا أصحاء وصلوا فى الوقت الراهن من شاطىء ويندورد وريس" .

والعناية التامة بهؤلاء الزنوج قد اتخذت ، وستستمر هذه العناية حتى يتفادوا أى خطر من حيث العدوى بمرض "الجدرى" . ولم يسمح لأى قارب ليكون على سطح المركب ، وقد تم تحريم اتصال أى شخص آت من "مدينة شارلس" .

(ملاحظة :

نصف عدد الزنوج المذكورين أعلاه كانوا مصابين بمرض "الجدرى" عندما كانوا فى بلادهم) .

وعشت فى هذه الدراما اللا انسانية المرعبة ساعات وساعات . وكنت أتصور أننى كنت واحدا منهم وأحاول أن

اتخيل التجربة أو التجارب التى كان يواجهها هؤلاء التعساء من البشر . وقد تأكدت هذه المشاعر المظلمة عندما قرأت كتاب "الجذور" لمؤلفه" الكس هيلى" الذى نشر فى عام ١٩٧٧ . كان مضمون هذا الكتاب يفصح بوضوح عن أن الانسان يمكن أن يكون وحشا كاسرا ، وعندما ماشاهدت "الفيلم" الذى عكس الدراما اللا انسانية التى تضمنها الكتاب المذكور زادت مشاعرى المظلمة ظلاما .

وتذكرت ما كتبته عن "رفاعة رافع الطهطاوى" نقلا عن كتاب الأخ الفاضل الاستاذ الدكتور "رفعت السعيد" وعنوان هذا الكتاب (المؤلفات الكاملة : المجلد الأول ، الناشر دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، تاريخ ١٩٧٨) . فإذا بى أعيد قراءة وثيقة بخط رائد الأجيال رفاعة رافع الطهطاوى وختمها بخاتمه فأجد انسانية هذا الرجل ساطعة تؤكد اهتمامه بالمرأة واحترامه لها . وعلى الرغم من وجود "الجوارى" فى منزله حيث كان رجال الشريعة الاسلامية يبيحون التمتع بهؤلاء الجوارى (ملك اليمين) . وليقرأ معى القارىء الكريم الوثيقة التى أشرت اليها :

« التزم كاتب هذه الأحرف رفاعة بدوى رافع لبنت خاله المصونة كريمة العلامة الشيخ محمد الفرغلى الانصارى أنه يبقى معها وحدها على الزوجية دون غيرها من زوجة أخرى ولا جارية أيا كانت ، وعلق عصمتها على أخذ غيرها من نساء ، أو تمتع بجارية أخرى . فأن تزوج بزوجة أياما كانت .. كانت بنت خاله بمجرد العقد طالقة بالثلاثة وكذلك اذا تمتع بجارية ملك يمين . ولكنه أوعدها وعدا صحيحا لاينتقض ولا يحل أنها ما دامت معه على المحبة المعهودة مقيمة على الامانة والعهد لبيتها ولاولادها ولخدمها وجواريها . ساكنة معه فى محل

سكناه ، لايتزوج بغيرها أصلا ، ولا يتمتع بجوار أصلا ، ولا يخرجها من عصمته حتى يقضى الله لاحدهما بقضاء . (أنظر : رفعت سعيد) المؤلفات الكاملة المجلد الأول ، القاهرة ، دار الطباعة الحديثة ، ١٩٧٨ ، صفحة ٣٤) .

ومن نكد الدنيا أن نجد فى ضوء حقائق التاريخ أن الانجليز بعد أن مر إثنا عشر عاما على احتلالهم لمصرنا الخالدة ، كما ذكر الاستاذ الصحفى "صلاح عيسى" فى كتابه "حكايات من مصر" الذى انتهى من كتابته فى شهر ابريل عام ١٩٧٢ وقد نشرته دار "الوطن العربى" ببيروت ـ أن الرقيق كان قد الغى من مصر بموجب معاهدة مصرية انجليزية ابرمت فى عام ١٨٧٧ (قبل الاحتلال المشئوم) ، وتطبيقا لها صدر أمر عال من الخديو (إسماعيل) فى أغسطس من العام نفسه ، ينص على فترة إنتقال مدتها أثنا عشر عاما يسمح فى خلالها للأسر التى تمتلك جوارى أو عبيد أن تتاجر فى الرقيق مع غيرها » .

"وبعد مضى المدة المحكى عنها اذا كان أحد من رعايا الحكومة المحلية يخالف الأمر ويتجرأ على بيع الرقيق السودانى أو الحبشى تصير مجازاته بالاشغال الشاقة لمدة أقلها خمسة أشهر وأكثرها خمس سنوات" (أنظر صفحة : ١٥٩) .

والملاحظ أنه فى ضوء ما كتب من قبل أن دور الانجليز فى تجارة العبيد التى بدأت منذ عام ١٦٨٠ ، كان الزنوج خير معين لهم فى القيام بالأعمال الشاقة فى مزارعهم فى ذلك الحين . كانت الحالة الاقتصادية تقتضى وجود هؤلاء الزنوج أى الايدى الانسانية العاملة . ولما تطورت الحالة الاقتصادية ، واخترعت الآلة ، اكتفى الانجليز والمستعمرون

الآخرون بما فعلوه من معاملة لا إنسانية مع قطاع الزنوج القطاع المستضعف . أقصد المستعمرين وهم على أبواب بناء الرأسمالية قد وجدوا أن تكاليف هؤلاء أصبحت باهظة . ومن ثم أرتفعت الأصوات بإلغاء الرقيق فى العالم . ولعل بالاضافة الى ذلك "قيام الحرب الأهلية" فى الولايات المتحدة التى ناضل فيها الذين كانوا ينادون بالغاء الرق . وقد كسب هؤلاء الحرب ولكنهم خسروا السلم . وفى خلال الأعوام المضطرية من عام ١٨٦٥ الى عام ١٨٧٧ وعن طريق انتهازية بناة الدولة الرأسمالية وجشعهم ونقص التخطيط وضعت أسس نظام التفرقة الذى يعانى منه زنوج الولايات المتحدة حتى وقتنا هذا .

ولم يكن "ابراهام لنكلن" الذى قاد الحرب الأهلية "يؤيد إلغاء الرق ، وكان يعتبر هذه الحرب ثورة من "مواطنى" الجنوب وليست من "ولايات" الجنوب ، ومن ثم فإننا نراه بعد انتهاء الحرب كان من رأيه أن يدع ولايات الجنوب تعالج مشكلة الزنوج كما يروق لها (انظر كتاب ثورة الزنوج تأليف لويس لوماكس ، ترجمة سيد عويس ، فى كتب سياسية : الدار القومية للطباعة والنشر ، عام ١٩٦٦ ، صفحة : ١٩) .

وقبل أن يمل القارىء الكريم أود أن أذكر أنه فى عام ١٩٦٤ قد حصل "جان بول سارتر" على جائزة نوبل ، ولكنه رفضها . كما حصل "مارتن لوثر كنج" على نفس الجائزة ولكنه قبلها ولم يرفضها ، ونلاحظ أن مارتن لوثر كنج الذى كان نصيرا لعدم العنف قد صرع قتيلا فى عام ١٩٦٨ ، وذلك على الرغم من أن الزنوج الأميريكين ، فى ضوء معاملة البيض لهم فى كل مواقع الحياة التى يحيونها ، هم الذين لاحيلة لهم إلا استخدام العنف ، فالمعروف أن "العنف يولد العنف" . (المرجع السابق : صفحات ، ٤٤ ـ ٤٧)

وقد شهد شاهد من أهلها اذ طالعتنا مجلة "تايم مجازين" (عدد رقم ١٢ ، شهر مارس عام ١٩٨١ ، صفحات ١٨ ـ ٢٣) بالمعلومات عن بعض جرائم العنف التى ترتكب فى المجتمع الأميريكي ، فذكرت أن في كل ٢٤ دقيقة ترتكب جريمة قتل فى مكان ما فى الولايات المتحدة (٢١٩٠٠ جريمة فى العام) وأن فى كل عشر ثوان ترتكب جريمة سرقة في احد المساكن ، وأن فى كل سبع دقائق ترتكب جريمة أغتصاب . وهناك أمر هام (كما ذكرت المجلة) ويعتبر جديدا بشأن جرائم القتل والسرقات والأغتصاب والاعتداء على الآخرين ، وهذا الجديد يبرز أن لعنة العنف فى أرتكاب الجرائم قد انتشرت وتنتشر ليس فقط فى أحياء الأقليات (ومنهم الزنوج بالضرورة) وبخاصة فى المدن التي ينتشر فيها الكساد حيث يسود الحقد ، ولكن قد نجد هذا العنف منتشرا أيضا فى كل بقاع المناطق الحضرية وضواحيها وحتى فى أنحاء الريف (المسالم) !

ومن المهم أن نذكر (هذا ما تذكره المجلة المذكورة) أن أنواع الجرائم قد أصبحت أكثر وحشية وترتكب من وحى الغرائز دون ما منطق وبعشوائية . ومن ثم فهى بالضرورة مخيفة ومفزعة . ومن الجرائم التى تزعج الرأى العام يلاحظ أن كل أسرة من ثلاث أسر فى الولايات المتحدة كانت لها صلة مباشرة بنوع من أنواع الجرائم الخطيرة فى العام الماضى (أى عام ١٩٨٠) . ومن النادر أن نجد امريكيا واحدا لايعرف شخصيا ضحية واحدة على الأقل من ضحايا العنف فى المجتمع الأميريكيى . ونجد أن الخوف والهلع يتسلطان على المجتمع الأميريكى : أعضائه وجماعاته ومؤسساته . وفى أسبوع واحد (من يوم ٨ من شهر مارس

عام ١٩٨١ حتى يوم ١٤ من شهر مارس عام ١٩٨١) ، وجد ٤٠٠ أمريكى مقتولين فى الولايات المتحدة . ومعظم دوافع (وليس عوامل) ارتكاب هذه الجرائم يحدث فى أثناء مجرد عراك أو مناقشات الجيران أو فى حرب المخدرات وفى مناقشات العصابات . والملاحظ أن ثلث المجنى عليهم قد قتلهم أغراب ، وفى الغالب دون أى مبرر واضح .

وقد نشرت إدارة (F. B. I.) نسبا عن جرائم العنف (جرائم القتل والاغتصاب والاعتداء العنيف والسرقات) . وقد تبين أنه فى عام ١٩٧٠ كانت الجرائم ترتكب بنسبة ٣٦٣,٥ جريمة لكل ١٠٠,٠٠٠ نسمة ، فى حين وجدت هذه النسبة ٥٣٥,٥ لكل ١٠٠,٠٠٠ نسمة فى عام ١٩٧٩ . والملاحظ أن جرائم القتل أرتفعت بنسبة ٩,٧ لكل ١٠٠,٠٠٠ نسمة فى عام ١٩٧٩ وقد تأكد أن ثلث جرائم القتل قد أرتكبها مجرمون لم يقابل أحد من المجنى عليهم واحدا منهم فى حياته قط . ومن ثم فإن هؤلاء المجرمين ، وهم فى الغالب يقتلون من أجل سلب الضحايا ، هم الذين يسهمون فى خلق العنف فى المجتمع الأميريكى وفى إشاعة الخوف والهلع فى قلوب أعضائه . وقد تبين أن الجرائم الخطيرة التى ارتكبت فى "مدينة نيويورك" فى خلال ستة شهور من عام ١٩٨٠ ، قد زادت بنسبة نحو ٦٠٪ فوق المستوى القومى العام . والملاحظ أن جرائم السرقة كانت نسبتها فى هذه المدينة أعلى نسبة فى البلاد . وفى عام ١٩٨٠ بلغ عدد جرائم القتل فى هذه المدينة (نيويورك) ١٨١٤ جريمة .

٩ - السجن كمؤسسة قمعية :

يلاحظ أن "السجن" هو أحد الأساليب العقابية التى كانت

توقع على المدانين فى أفعال يراها المجتمع ضارة . وهى قديمة ومتعددة ، كان منها الجلد والعزل والنفى والكى لاحداث علامة تدل على المدان فى أفعال لاتقرها عادات المجتمع وقيم المجتمع ، وكان منها أيضا التشهير به عن طريق ادخال يديه ورأسه فى آلة خشبية أو تعذيبه عن طريق أداة خشبية ذات ثقوب كانت تقيد فيها رجلاه ويداه أو مجرد رجليه فقط !

وقد تطورت هذه الأساليب العقابية بمرور الزمن عندما تغيرت نظرة قوانين العقوبات (المقصود الذين يشرعون هذه القوانين بالطبع) منذ أوائل القرن الثامن عشر وحتى الآن . وأصبحت المؤسسات العقابية تخصص للمذنبين من الرجال والنساء والشبان والشابات والاحداث ذكورا كانوا أو أناثا . فنجد اليوم فى أغلب دول العالم السجون وأماكن الحجز لكبار المذنبين الرجال منهم والنساء ، وللشبان وللشابات المذنبين ، وفضلا عن ذلك نجد أيضا المؤسسات الخاصة بإيداع الاحداث الجانحين سواء أكانوا من الذكور أم من الأناث ، كما نجد أماكن للكبار وللشبان وللشابات والاحداث المتهمين لحجزهم احتياطيا تحت التحقيق أو لحجزهم فى أماكن الحجز المركزى توطئة لمحاكتهم .

وفى ضوء النظرة القانونية الاجتماعية نلاحظ أن المؤسسات العقابية (ومنها السجن) أن هى إلا مؤسسات اجتماعية ، أى أن لكل منها نجد بناء أو نسقا معينا ، كما نجد لها وظائف اجتماعية معينة . ولعل أبرز سمة من سمات بناء أو نسق هذه المؤسسات هى أن الأقلية فى كل منها تتحكم فى الأغلبية . والملاحظ أن الأقلية فى شخص إدارة كل مؤسسة تكون بالضرورة أقلية قوية ، والأغلبية فى شخص النزلاء تكون عادة ، وليس بالضرورة ، أقلية سلبية مستضعفة . وربما كانت

هذه الأقلية القوية ، أيضا ، حكيمة وعاقلة (وهذا نادر) . وربما أصبحت الأغلبية ، أى النزلاء ، فى بعض الاحيان ، أغلبية ايجابية متعاونة . ويرجع هذا كله إلى نوع الوظائف الاجتماعية التى تقوم المؤسسة بأدائها . فهى إما أن تكون وظائف هدفها العقاب لذاته (العنف الذى يولد العنف والشعور بالعداوة فى نفوس النزلاء) ، أو أن يكون هدفها التنشئة الاجتماعية ، أى تكوين نزلائها ليصبحوا مواطنين صالحين فى المجتمع الذى سيخرجون اليه بعد انتهاء مدة ايداعهم .

وأعضاء مجتمع السجن أناس شتى ، وهم فى الواقع لايكونون مجتمعا بل تجمعا . ويرى بعض الناس أن هؤلاء هم حثالة المجتمع ، ويرى آخرون أنهم أناس غير محظوظين . وهم ، أولا وقبل كل شىء ، نتاج المجتمع (الخارجى) الذى ولدوا فيه وعاشوا . وأغلب الناس الذين يدخلون السجن من الكبار . والكبار من الناس هم غير الاحداث . وهم بالضرورة ذكور أو أناث قد خالفوا نصا من نصوص قانون العقوبات . ومنهم من ثبتت هذه المخالفة عليهم ، وهم المجرمون الكبار . ومنهم من ينتظرون ثبوت هذه المخالفة أو عدم ثبوتها . ولا يطلق على الإخيرين صفة المجرمين حتى تثبت المخالفة .

ويلاحظ أن المجرمين الذين يعيشون فى غياهب السجون قد يكونون من ساكنى الحضر أو من ساكنى الريف أو من ساكنى الحضر المتريف . ومنهم من كانوا يحيون قبل دخول السجن حياة البداوة ، ولكل من هذه المجتمعات سماتها الاجتماعية المختلفة وظروف معاشها وثقافتها .

وهم (أى نزلاء السجون) ، أيضا قد ينتمون الى الأغلبية ، أو إلى الأقلية ، أو إلى طائفة معينة من الناس ، أو

ينتمون الى طبقة معينة أو يعيشون فى المجتمع كأفراد منعزلين .

ويلاحظ أيضا أن المجرمين الكبار فئات ، فمنهم الفلاحون ، ومنهم العمال ، ومنهم التجار ، ومنهم الموظفون الصغار ، ومنهم الموظفون الكبار ، ومنهم الطلبة .. الخ . ويلاحظ كذلك أن المجرمين الكبار قد يكون منهم الأميون ، ومنهم من يحظون بقسط كبير أو صغير من التعليم ، وقد يكون منهم المتزوجون أو غير المتزوجين أو المطلقون أو المنفصلون أو الأرامل ومنهم من له أبناء ، ومنهم من ليس له أبناء .

ونجد أن المجرمين الكبار يرتكبون ، كما ذكرت من قبل ، أنواعا متباينة من الجرائم . فمنهم من يرتكب جرائم الاعتداء على الأموال ، ومنهم من يرتكب الاعتداء على الاشخاص (كالقتل مثلا) ومنهم من يرتكب الجرائم الجنسية (وهذه الجرائم مثل جرائم الرشوة والمخدرات والتهريب من الجرائم غير المنظورة التى قد لاتصل الى رجال الشرطة أو الى المحاكم) ، ومنهم يرتكب جرائم أمن الدولة .. ونجد أيضا أن من المجرمين الكبار من يرتكب الجريمة لأول مرة ، ومنهم من يعتاد ارتكاب الجريمة (كجريمة السرقة بأسلوب النشل مثلا) .

ونجد كذلك أن المجرمين الكبار الذين يعيشون فى السجون من يعتبرون مجرمين شواذ سواء كان هذا الشذوذ جنسيا أو عقليا أو نفسيا ، ومنهم ذو العاهات الجسمية ، ومنهم الذين لا عاهة لهم ، ومنهم أيضا غير المعتادين على العمل المنتج ويستمرئون البطالة والتعطل .

وقد حظيت الجريمة ، على تباين تعاريف مفهومها ، بالاهتمام الكبير فى كل المجتمعات الانسانيـة على اختلافها(وبخاصة الجرائم الخطيرة كما ذكرت ذلك من قبل) . كانت الجريمة ، ومازالت ، شيئا مخيفا رهيبا وضارا ، ثم أصبح الاهتمام بالمجرم أيضا ، واضحا بعد ذلك . لأن الجريمة ما هي إلا سلوك بشرى لايرتكبها إلا انسان . وأصبح من العلماء ، اليوم (بل منذ الأربعينيات من القرن الحالى) ، من لايقصر اهتمامه على الجريمة والمجرم فقط ، بل أمتد هذا الاهتمام الى المجنى عليه . فالجريمة يرتكبها بالضرورة مجرم (إنسان عاش فى ظروف اقتصادية اجتماعية غير مواتية فى العادة) . ومعظم الجرائم التى يرتكبها مجرمون ترتكب ضد مجنى عليهم . وإذا كان المجرم انسانا فإن المجنى عليه فى معظم الحالات انسان كذلك .

وفى ضوء كل هذه الاهتمامات انبثق مفهوم معاملة المجرمين ، وخصوصا الذين يدخلون السجون . وقد تغير هذا المفهوم على مر الأيام . وهذا شيء عادى ، أى شيء متوقع ، فبرز فى أفق معاملة المجرم الدعوة الى "تفريد العقوبة" وظهر مفهوم "الدفاع الاجتماعى" كما ظهر أيضا مفهوم "السياسة الجنائية" ثم "قواعد الحد الأدنى لمعاملة المسجونين" (انظر سيد عويس : المعجم العربى فى العلوم الاجتماعية ، المركز الأقليمي العربى للبحوث والوثيق فى العلوم الاجتماعية :. مفاهيم ، "تفريد العقوبة" و "الدفاع الاجتماعى" و "السياسة الجنائية" و "قواعد الحد الأدنى") .

ويلاحظ أن مفهوم "التفريد" يعنى تصنيف أعضاء المجتمع أو أعضاء بعض جماعاته حسب سماتهم الشخصية

(السن والنوع والديانة والمستوى التعليمى ومستوى الذكاء والمهنة والخلفية الاجتماعية مثلا) .. والملاحظ أن هذه السمات تيسر التعرف على شخصيات أعضاء المجتمع أو أعضاء بعض جماعاته كلما دعت الحاجة الى ذلك ، كما تيسر معاملتهم بعضهم لبعض .

واذا كان عضو المجتمع قد أرتكب احدى الجرائم وأدين فيها وحكم عليه بالسجن مثلا ، فإن السجن كمؤسسة اجتماعية يجب أن يضع النظم الكفيلة بمعاملة المذنبين يودعون فيه . وفى ضوء "تفريد العقوبة" نجد أن هذه النظم الكفيلة بعاملة المذنبين تهتم ، أول ما تهتم ، لكى تكون هذه المعاملة مثمرة بتقسيمهم الى مجموعات متجانسة ليس فقط من حيث السن والنوع و . و . و . ولكن أيضا من حيث نوع الجريمة التى أرتكبها والعوامل التى أدت الى مخالفته للقانون (قانون العقوبات) .

ومن ثم يتيسر للمسئولين أن يضعوا أفراد كل مجموعة من المذنبين فى مؤسسة مستقلة تتوافر فيها جميع الامكانات الضرورية التى تيسر إعادة تربيتهم لكى يصبحوا مواطنين صالحين بعد إطلاق سراحهم وخروجهم الى المجتمع .

واذ ألخص ماسبق فإننى أقول : أن معاملة المذنب فى ضوء تفريد العقوبة يجب أن تناسب المذنب كشخص له سمات معينة ، وذلك لأن هذا النوع من التفريد أجدى من أن تناسب العقوبة الجريمة التى أرتكبها .

ومفهوم "الدفاع الاجتماعى" هو مفهوم قديم ومتجدد . أننا نجد بذوره منذ القرن الثامن عشر (مارشيزد . بيكارا) ،

ونجد صياغته شبه المتكاملة فى خلال الفترة عقب الحرب العالمية الثانية (جراماتيكا الفقيه الايطالى) والمستشار الفرنسى (مارك آنسل) ـ ومنذ ذلك التاريخ تغير معنى مفهوم الدفاع الاجتماعى ومضمونه ، وهذا أمر متوقع ، تغيرا ملحوظا .

وفى ضوء ما يلاحظ فى هذا المجال نجد أن أهم أغراض الدفاع الاجتماعى المتفق عليها هى :

- وقاية أعضاء المجتمع من الانحراف (أى الجريمة والجناح بخاصة) .
- وقاية المجتمع من أعضائه المنحرفين (أى من المجرمين والجانحين بخاصة) .

وذلك بإعادة تنشئتهم اجتماعيا ليصبحوا مواطنين أسوياء أى أن وقاية أعضاء المجتمع ووقاية المجتمع فى ضوء الغرضين السابقين تعنى :

- جعل أرتكاب الجريمة أكثر صعوبة من غير أن تكتشف .
- وجود سماحة أكثر نحو السلوك الذى لايمكن ضبطه بالقانون .
- انغماس الشباب انغماسا فعالا فى عمليات التنمية .
- وجود قيادات أفضل وإتاحة الفرص الخلاقة للأشخاص المعرضين للجريمة والجناح (الذين فى سن الشباب بخاصة) .
- وضع ميزانيات خاصة للجماعات الأكثر خطورة كالمتعطلين والمتخلفين عن المدارس وصعاب المراس من المجرمين (أى المجرمين العدوانيين أو السيكوباتيين أو الذين يرتكبون الجرائم قهرا عنهم) .

- تخطيط جنائى أفضل ، وتقويم الاستثمارات المخصصة مشروعات الدفاع الاجتماعى وبرامجها .

واذا كان من أهم أغراض الدفاع الاجتماعى هو ، كما ذكرت آنفا ، تخطيط جنائى أفضل ، فالملاحظ أنه لايمكن وجود تخطيط جنائى أفضل إلا إذا توافرت بعض الشروط هى :

- وجود سياسة جنائية واضحة المعالم والأغراض والاهداف .
- إجراء بحوث ودراسات علمية عديدة فى محيط الجريمة والجناح .
- تعاون المخططين الجنائيين والباحثين العلميين فى ميدان الجريمة والجناح والعاملين فى ميادين الجريمة والجناح فضلا عن الجماهير .

والملاحظ أنه لن توجد سياسة جنائية واضحة المعالم والأغراض والاهداف ، إلا إذا وجدت سياسة اجتماعية واضحة المعالم والأغراض والاهداف . ولن يتم وضع هذه السياسة إلا فى ضوء ايديولوجية المجتمع . ناميا كان أو غير نام ، أى أن هذه السياسة يجب أن تسترشد بقيم هذا المجتمع وتقاليده وعاداته ومثله العليا .

والملاحظ أيضا أن وجود سياسة جنائية واضحة المعالم والأغراض والاهداف ييسر وضوح الرؤية أمام المخططين الجنائيين والباحثين العالميين فى ميدان الجريمة والجناح ، والعاملين الآخرين فى ميادين الجريمة والجناح فضلا عن جماهير المجتمع على اختلاف فئاتهم ومكانتهم الاجتماعية

وثقافاتهم . وأن تيسير وضوح الرؤية يعنى العمل الجاد وتحقيق الاهداف باقل التكاليف .

ووجود سياسة جنائية واضحة المعالم والأغراض والاهداف يرتكز على أنواع موضوعات الدراسات والبحوث العلمية فى محيط الجريمة والجناح . ولكى تفى هذه الموضوعات بتحقيق أهداف السياسة لجنائية يجب أن تكون عديدة ومتنوعة ومتناسبة . أى تتناول على سبيل المثال حجم الجريمة والجناح وأنماطهما (ومنها الانماط غير المنظورة) واتجاهاتهما وعوامل وجودهما وبخاصة أنماطهما غير المنظورة ، كما تتناول مناطق الجريمة والجناح كمظهر من مظاهر النمو الحضرى ، فضلا عن البحوث والدراسات التقويمية والتتبعية وأحكام السجن للمجرمين أول مرة ، وآثار إعادة الدخل القومى وتكافؤ الفرص على زيادة أو نقص معدلات الجريمة والجناح فى المجتمع . ولعل البحوث والدراسات عن خطورة الجريمة والجناح تكون ضرورية سواء آكانت مجالاتها تعنى بهذه الخطورة من وجهة نظر الجماهير أم من وجهة نظر المشرعين .

أما موضوع "قواعد الحد الادنى لمعاملة المسجونين" فإننا فى ضوء حقائق التاريخ نجد أن هذه القواعد قد أنشئت فى عام ١٩٢٩ ونوقشت فى المؤتمر الدولى الأول للأمم المتحدة الذى أقرها فى عام ١٩٥٥ ثم إعتمدها المجلس الاقتصادى الاجتماعى لمنظمة الأمم المتحدة فى عام ١٩٥٧ . ومن ثم أصبحت بذلك ميثاقا دوليا أجمعت الدول الأعضاء على تطبيق نصوصه وأحكامه .

وتعنى قواعد الحد الأدنى بالاهتمام بمعاملة المسجونين من حيث عدم النزول بمستوى هذه المعاملة وتنظيم وإدارة مؤسساتهم الى ماهو أقل من المستوى الذى حددته هذه

القواعد ، ويعتبر هذا النزول ليس فقط خروجا على المبادىء الأولية لعلم العقاب الحديث وأمر لايقره رجال الاصلاح المعاصرون فحسب ، ولكنه يعتبر بالمثل امتهانا صريحا لكرامة الانسان واعتداء صارخا على حقوقه الاساسية التى كفلها له ميثاق الأمم المتحدة .

وتتضمن قواعد الحد الأدنى لمعاملة المسجونين ٩٤ قاعدة ، منها ما يتعلق ببعض الملاحظات الأولية ، والقواعد العامة المتعلقة بالتطبيق من حيث المبدأ الأساسى الذى تطبق فى ضوئه هذه القواعد بدون تحيز ، ومن حيث السجلات الخاصة بالسجن وأبنيته ، ومن حيث الصحة الشخصية الكساء والفراش والتغذية والرياضة البدنية والخدمات الطبية والنظام والتأديب وأدوات الأكراه ، ومن حيث أخطار المسجونين بالتعليمات وحقهم فى الشكوى والاتصال بالعالم الخارجى ، ومن حيث الكتب ، ومن حيث أداء الفرائض الدينية ، ومن حيث متعلقات المسجونين والاحتفاظ بها ، ومن حيث التبليغ عن الوفاة والمرض والنقل ، ومن حيث موضوع النقل نفسه والحالة التى يتم بها ، ومن حيث موظفو المؤسسات (اختيارهم وتدريبهم مثلا) .

وقد اهتمت القواعد بتطبيقها على طوائف خاصة من المسجونين المحكوم عليهم بعقوبة وذلك بالنسبة للمبادىء الموجهة ، ومن حيث معاملتهم وعلاجهم وتقسيم وتفريد معاملتهم وعلاجهم ، ومن حيث الامتيازات التى تمنح تشجيعا لسلوك المسجونين الحميد ، ومن حيث العمل وبعده عن أن يكون وسيلة للتعذيب ، ومن حيث التعليم والترويح والصلات الاجتماعية والرعاية اللاحقة .

أما بالنسبة للمسجونين المصابين بالجنون (أو بالشذوذ

العقلى) فقد كانوا موضع اهتمام القواعد ، وكذلك الاشخاص المقبوض عليهم أو المحبوسين احتياطيا . واهتمت القواعد بالمسجونين المحكوم عليهم بسبب دين أو بالحبس المدنى .

وقبل أن أختم الموضوع الحالى أرجو أن يسمح لى القارىء الكريم بأن أذكر له تجربة واجهتها عندما كنت فى مدينة "نيش" وأنا أزور "يوغسلافيا" فى خلال الفترة من يوم ٦ من شهر نوفمبر عام ١٩٦٣ الى يوم ٦ من شهر فبراير عام ١٩٦٤ ، حيث يسرت لى هيئة الأمم المتحدة هذه الزيارة ، إذ منحتنى "منحة الزمالة" لتتاح لى فرصة الاطلاع على الدراسات الاجتماعية والجنائية التى تقوم بها الهيئات المتخصصة فى المجتمع اليوغسلافى فى ذلك الحين .

ولاحظت أن المجتمع اليوغسلافى أو المسئولين عنه يرون أن المسجونين أدميون لكل واحد منهم طاقة بشرية ، وهم أقصد المسجونين ، كمجموعة ، عبارة عن طاقة بشرية هائلة لايجوز أن تضيع هباء . ولايمكن أن تترك لتتبدد . وأن العمل الانسانى هو طقس من الطقوس فى هذا المجتمع . وهو واجب وحق لكل عضو من أعضائه . والمسجونون مهما كانت ظروفهم فهم بعض أعضاء هذا المجتمع . ومعاملتهم يجب أن يكون أهم أهدافها القيام بعملية تنشئتهم إجتماعيا . والعمل ، وحده كفيل بذلك ، أى أن العمل هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق هذه العملية ، فإذا أعطى المسجون الفرصة ليعمل العمل المناسب وينتج ، أسترد كرامته ، وأسترد ثقته فى نفسه ، وأحس بكيانه الانسانى ، وأصبح مواطنا صالحا .

وقد لاحظت أن المسجونين فى المجتمع اليوغسلافى يعطون فرصة العمل المنتج مهما كانت صور جرائمهم ومهما

اختلفت مكاناتهم الاجتماعية ومهما تباينت أعمارهم . وهم يتعلمون ويتدرجون فى التعليم حتى يتخرج منهم العمال المهرة وغير المهرة : كل حسب قدراته وحسب مدة سجنه . ولايقف مستوى التعليم فى السجون اليوغسلافية عند حد . ولعل هذا المستوى يصل الى مستوى الجامعات والمعاهد العليا . وأهم مجالات العمل فى السجون المصانع . وهى مصانع حديثة إذا دخلت فى أحدها تجده مصنعا عاديا مثله مثل أى مصنع فى خارج السجن . وتجد القتلة والمزيفين والمزورين وغيرهم من المسجونين يعملون كلّ حسب دوره . ولا يمكن أن تميزهم عن العمال العاديين وربما كان الكثير منهم من الأميين أو من أهل الريف قبل التحاقهم بالسجن . وانظر اليهم وهم يديرون الآلات الدقيقة ، وانظر الى وجوههم ، وانظر الى نظرات عيونهم تجد الاصرار والعزيمة والجد وملامح الثقة بالنفس والأمل ، كما تجد صورا زاهية من الانتصار .

وظروف العمل فى السجون هى نفس ظروف العمل فى خارجها . فالمسجونون يحصلون على الأجور ، كل حسب عمله ، كما يحصلون على مكافآت تشجيعية مرتين أو ثلاث مرات فى العام الواحد . وهم وأن كانوا لايتمتعون بعضوية النقابات فإن قواعد ونظم النقابات تطبق عليهم . والضمان الاجتماعي يشمل كل المسجونين العاملين . وأيام العمل ستة أيام وهى نفس عدد أيام العمل فى خارج السجن (فى المجتمع اليوغسلافى فى ذلك الحين) . ويتمتع المسجونون بالاجازات الرسمية أسوة بغيرهم ، وهم أن عملوا فى أيام الاجازات الرسمية يحصلون على أجورهم كاملة .

ولاتصرف الأجور كلها للمسجونين . فجزء منها يوفر

للمسجونين وجزء آخر يرسل الى أسر المسجونين وجزء ثالث يصرف للمسجون يشترى به ما يشبع به حاجاته الأساسية وغير الأساسية من "كانتين" السجن . وقد لاحظت أن هذا الكانتين مملوء بالسلع الاستهلاكية من المأكولات والمشروبات وغير ذلك ، ولا يعرض الكانتين الخمور بأنواعها للبيع . .

وفى ضوء الشعار القائل : أن العمل شرط الوجود الانسانى ، نجد أن المسجون لايعطى أى عمل اعتباطا . فالسجن مزود بالمتخصصين فى العلوم الانسانية . ومنهم من يستقبلون المساجين فى مركز خاص ملحق بالسجن لدراسة كل مسجون اجتماعيا وطبيا ونفسيا وعقليا . ويقوم بهذه الدراسات ، عن وعى مهنى ، الاخصائيون الاجتماعيون والتربيون والأطباء والاخصائيون النفسيون والأطباء النفسيون . وفى ضوء الدراسة يوجه كل مسجون الى المهنة التى تتناسب مع شخصيته وقدراته وخبراته . فالمسجونون ، هم أولا وقبل كل شىء ، آدميون ، لكل واحد منهم ، كما سبق أن ذكرت ، طاقة بشرية ، وهم كمجموعة عبارة عن طاقة بشرية هائلة لايجوز أن تضيع هباء ولايمكن أن تترك لتتبدد .

والملاحظ أن المصانع التى يعمل بها المسجونون تكون جزءا من مصانع الدولة ، أى أن انتاج هذه المصانع يكوّن جزءا من الانتاج القومى .

وقد وجدت وأنا أزور سجن نيش أنه يضم نحو ١٥٠٠ مسجونا ، وكلهم من المحكوم عليهم بثلاث سنوات أو أكثر . ويعمل نحو الألف منهم فى مصانع السجن ويصنعون "السخانات والأفران الكهربائية والموازين الدقيقة

والبانيوهات وقطع الاثاثات .. الخ" ويصدر معظم هذه المصنوعات الى الخارج وتحصل الدولة عن طريق ذلك على العملات الأجنبية .

وهذا السجن وغيره تجده يحصل من بيع مصنوعاته العديدة التى يطلبها السوق الاجنبى على الأرباح سنويا ، وتوزع هذه الأرباح وفقا لنظام معين بنسب معينة على الميزانية والاحتياطى ورأس المال والأعمال الجديدة والبرنامج الثقافى والمساعدات .

ويتبرع سجن نيش من أرباحه سنويا بجزء من أرباحه على مؤسسات رعاية الأحداث والشباب فى المدينة . أى أن سجن نيش ، وهو مؤسسة اجتماعية هدفها الأول معالجة الجريمة بصورها المتعددة فى محيط الكبار ، يقوم بدوره ، عن وعى ، فى ميدان الوقاية من الجريمة وفى ميدان التنمية الاجتماعية ، فى محيط الأحداث وفى محيط الشباب ، أى أن سجن نيش ، كمؤسسة اجتماعية ، يحس إحساسا واعيا بالمسائل الاجتماعية المتعلقة بالسلوك البشرى ، السوى وغير السوى ، فى المجتمع الذى يحيط به ، ويسهم اسهاما واعيا فى مواجهة هذه المسائل . أى أنه يعيش واقعه ، فى ميدان تخصصه الواسع ، ويرفض العزلة والسلبية ، ويؤمن بالتفاعل الاجتماعى مع مجتمعه (أنظر كتاب سيد عويس : "مذكرات يوغسلافية" ، القاهرة ، مكتبة القاهرة الحديثة ، صفحات : ٨٧ ـ ٩٤)

٥

وأننى أعترف للقارىء الكريم بعجزى عن القيام بالمقارنة بين السجون فى مصرنا الخالدة والسجون التى ذكرت عن بعضها شيئا . فالملاحظ أن تقارير مصلحة السجون على

الرغم من أنها تتضمن احصاءات ، فهى لاتشفى غليل الباحث الجاد . فعدد السجون بالجمهورية أصبح ٢٦ سجنا بما فيها ما يسمى "سجن ك (٢) ٩٧ والسجن العسكرى . وعدد المسجونين فى أوائل عقد الثمانينيات فى يوم ٣١ ديسمبر حوالى ٢٥٠٠٠ مسجون منهم نحو ٣٢٪ من النساء ويجب أن لاننسى نزلاء المعتقلات وعددهم غير معروف .

طاقة بشرية هائلة أليس من الممكن أن تكون فى ضوء بحث حالة كل مسجون اجتماعيا وطبيا ونفسيا وعقليا طبيا أن يكونوا من المنتجين الذين يرفعون شعار الانتاج وهو شعار الدولة فى الوقت الراهن ؟ ان مايقومون به يعتبر ليس فقط خسارة بشرية بل خسارة مالية كذلك .

وفى ضوء خبرتى عندما كنت "عضوا فى المجلس الأعلى للسجون" ، كنا اقصد أعضاء المجلس ورئيسه نجتمع ثم ننفض ولا نقرر شيئا رشيدا كان ذلك فى خلال عامى ٧٣ ـ ١٩٧٤ . وكان جدول الأعمال يهتم بتطبيق التشريعات الخاصة بالمعاملة الناجحة للمسجونين ، ولكن لاتطبيق يحدث وبخاصة ما تعلق منها بـ "قواعد الحد الأدنى" التى سبق أن ذكرتها وكنت أتحدث عن سجن نيش فى دولة يوغسلافيا وما يقوم به نزلاؤه من أعمال تدر الأرباح التى تيسر الحصول على العملات الاجنبية والتى تسهم أيضا ليس فقط فى معالجة النزلاء معالجة علمية ولكن فى وقاية أحداث وشباب المجتمع الخارجى وفى بعض الاحيان فيما يحدث من حوادث أو كوارث فيه (كاعادة بناء مدينة "سكوبيا" التى أصيبت فى صيف عام ١٩٦٣) .

واذا كان من الواجب أن لاننسى نزلاء المعتقلات فإنه من الأوجب أن نذكر نزلاء "تخشيبات" أقسام الشرطة التى

تشهد كما يقول الأستاذ ("مصطفى طيبة" في كتابه "رسائل مسجون سياسى الى حبيبته ، الجزء الأول" ، بغداد ، دار العربى للنشر والتوزيع ، عام ١٩٧٧ صفحة رقم ٢٦) .

"نشاطا كبيرا وأعداد من رجال الشرطة الذين يحملون القيود الحديدية التى توضع فى المعصمين فى أيدى الخطرين ، أو جنزيرا طويلا يربطون به عدد من المتهمين "غير الخطرين" . ومع اشراقة صباح كل يوم عندمايسمع نزلاء التخشيبة صوت القيود والسلاسل الحديدية مختلطة بأصوات رجال الشرطة تنادى عليهم .يستعدون جميعا للرحيل ..."

وفى ضوء ما نشر من مؤلفات بعد اطلاق المعتقلين من الأخوان المسلمين فى عام ١٩٧١ ، مّا يدل على ألوان العنف الذى لم يحقق إلا إهدار كرامتهم . ويكفى أن نطالع عناوين بعض هذه المؤلفات لنؤكد هذه النتيجة . ومن هذه العناوين نجد مثلا :

- فى الزنزانة (على جريشة عام ١٩٧٥)
- المذبحة : فى الذكرى العشرين للمذبحة التى تعرض لها الأخوان المسلمون بليمان طرة يوم السبت ١٩٥٧/٦/١ (مصطفى المصيلحى ، عام ١٩٧٧).
- الأسرار الحقيقية لاغتيال حسن البنا ، (جابر رزق ، عام ١٩٧٨) .
- يوميات الشهيد محمد يوسف هواش : مجزرة القرن العشرين (محمد يوسف هواش عام ١٩٧٨) .
- من المذبحة الى ساحة الدعوة (عباس السيسى ، عام ١٩٧٨) .
- عشت هول المذبحة : أقسمت أن أروى (روكس مكرون ،

عام ١٩٧٨) .

- مذبحة الأخوان في ليمان طرة (جابر رزق ، عام ١٩٧٩) .

- خوطر مسجون : ديوان أزجال (سعد سرور كامل ، عام ١٩٧٩) .

- قال الناس ولم أقل في حكم عبد الناصر (عمر التلمساني ، عام ١٩٨٠) .

هذا بعض ما نشرته المطابع الذى صادفني وصادفته . ومالم ينشر ربما كان أكثر . ومهما قيل في قيمة المادة الى تضمنتها هذه المؤلفات المنشورة ، فإن تأثيرها على قرائها من أبناء وبنات من تناولتهم وواجهوا العذاب والتعذيب أو من أقاربهم المقربين وغير المقربين أو من الغرباء ، تأثير لاجدال فيه . ولن يكون تأثيرا حسنا أبدا وبخاصة على من عاش منهم الخبرة المريرة عندما كان المعتقلون مازالوا في المعتقلات وعندما رأوا الاحياء منهم بعد اطلاق سراحهم . فقد مات قبل صدور الأمر بإطلاق السراح من هؤلاء المعتقلين من مات ، وتضمنت سجلات مستشفى الأمراض العقلية بالعباسية منهم أسماء العشرات (أنظر : سيد عويس ، "دراسة : عن العوامل التى ادت الى ظهور الجماعات الدينية المتطرفة ، المركز الأقليمى العربى للبحوث والتوثيق فى العلوم الاجتماعية فى عام ١٩٨٢)

وقد كان من حظى العلمى أن تناولت الدراسة العلمية عن "ظاهرة التسول وحياة المتسولين فى مدينة الاسكندرية" . وقد أجرى هذه الدراسة الاستاذ محمود ابراهيم حسين للحصول على درجة الماجستير قسم الأنثروبولوجيا - كلية الآداب - جامعة الاسكندرية فى عام ١٩٨٣ . وقد أشرف على

هذه الرسالة المغفور له أستاذ جليل فى العلوم الاجتماعية والانثروبولجية ـ الاستاذ الدكتور على أحمد عيسى . وكان تناولى لموضوع هذه الرسالة بوصفى ناقدا حتى يتاح للتقرير الذى أضعه عنها لكي ينشر فى المجلة الجنائية القومية بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية (أنظر : سيد عويس ، المجلة الجنائية القومية ، مج ٢٨ ، ع ٢ ، يوليو عام ١٩٨٥) .

وكان من النتائج الهامة التى وصل اليها الباحث عن طريق دراسته الميدانية ما يلى :

ـ أن العاهات التى ينتحلها بعض المتسولين قد انقرضت وحلت محلها العاهات المصطنعة .

ـ وجود نظام سرى فى داخل جماعات المتسولين الذين عايشهم وتقمص شخصية واحد منهم سواء كان يمتهن التسول فى شوارع مدينة الأسكندرية وبعض مناطقها أو عندما كان أحد نزلاء "ملجأ الهداية" يعيش فيه كنزيل من نزلائه ليلا ونهارا فترة غير قصيرة (أستطاع الباحث القيام بهذا الدور لضعف نظره الشديد ولأنه كان يضع على عينيه نظارة سوداء) .

ـ ان مؤسسات الايداع سواء أكانت تستقبل الاحداث المتسولين أم البالغين المتسولين ، لاتؤدى أدوارها التربوية بل على العكس تكسب نزلاءها وبخاصة الاحداث منهم أنماطا إجرامية جديدة .

ـ ان المتسولين يتخذون من "الملجأ" الذى يودعون فيه "لوكاندة" ويجعلون منه وكرا للجريمة بأنماطها أو يتخذونه

سوقا تجاريا لتحقيق المكاسب المادية حيث يعرضون فيها شتى السلع ومنها المخدرات بأنواعها وما يصنعونه من أنواع الخمور وغيرها من السلع التى قد يحتاجها بعض النزلاء غير القادرين على الخروج لعجزهم عن ذلك بسبب العاهات الجسمية التي تعوق حركتهم . ويحصل الأخيرون على السلع التى يحتاجون اليها نظير الثمن الذى يفرض عليهم فرضا ، والذى يدفعونه من النقود التى فى حوزتهم التى تكون قد وصلت اليهم من الأقارب أو من المحسنين الذين يأتون إلى الملجأ فى المواسم والأعياد من أجل ذلك .

وكنت حين أقرأ الرسالة المذكورة أتذكر روايات "شارلز ديكنز" وبخاصة رواية "اوليفرتوست" التى قرأتها وشاهدت فيلما عنها . وكأن ملاجيء مصرنا الخالدة فى العصر الحالى ، ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين ، هى صورة تكاد أن تكون طبق الأصل من ملاجيء البلاد الانجليزية فى خلال القرن التاسع عشر وما قبله .

١٠ ـ الحرب العالمية الثانية وآثارها :

حالة الحرب هى ذروة الشعور بالعداوة . والملاحظ أن الحرب بين الدول هى ظاهرة انسانية يعرفها الناس جميعا على مر الازمان . كما يعرفونها فى كل بقاع العالم المعاصر ، وهى شر مستطير تعانى منه الانسانية ولاتزال . والحرب أنواع ويمكن أن نقسمها الى نوعين رئيسيين ، النوع الأول :

"هو الحرب التى تهدف الى الاستعمار والاستغلال ، استغلال الانسان لأخيه الانسان" .

أما النوع الثانى :

"فهو الحرب التى تهدف الى الدفاع عن النفس واقرار السلام القائم على العدل" .

والنوعان يتضمنان نوعين من الشعور بالعداوة الانسانى الجماعى . أحدهما الشعور بالعداوة غير المشروع ، وهو

الشعور الذى يدعمه الحقد والبغض والاستغلال والجشع . وهذا الشعور يولد ، مافى ذلك من شك ، النوع الثانى ، أى الشعور بالعداوة المشروع الذى يهدف الى اقرار الحق وإقرار السلام القائم على العدل ويمثل إرادة الحياة الفاضلة فى مجتمعنا الانسانى .

ومهما يكن من الأمر فالحرب كذروة من ذرا الشعور بالعداوة الانسانى الجماعى : الحرب التى تهدف الى الاستعمار والاستغلال ، لايقرها انسان عاقل ، ولا تسلم بوجودها ، بالضرورة المبادىء الانسانية : مبادىء العدالة والانصاف : مبادىء السلام القائم على العدل . وهى شر مستطير اذا لاحظنا بعض اثارها المعنوية السلبية . كسيادة قوانين الغاب أو محاولة ذلك ، وهى شر مستطير لاحظنا بعض اثارها المدمرة . ولعل الحرب العالمية الثانية تكون مثلا واضحا على ذلك .

وقبل أن أتحدث عن الحرب العالمية الثانية ، أرجو أن يسمح لى القارىء الكريم أن أذكر شيئا عن انطباعاتى وبعض الحقائق عن الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) . فقد اندلعت هذه الحرب وكنت فى السنة الأولى من حياتى ، لا أدرى عنها شيئا كثيرا أو قليلا . ولكننا نلاحظ فى المجتمع المصرى وفى بعض المجتمعات الأخرى أنه قد يموت الانسان فى فراشه فيسأل الناس عن السبب . ويموت الانسان تحت عجلات قطار فيقولون : قضاء وقدرا . ويموت الانسان فى ساحة الحرب فيقولون : شهيدا يستحق الجنة . ويموت الانسان مناضلا عن عقيدة أو قيمة ذات هدف حميد أو مبدأ فيقولون : شهيد يستحق الخلود . ويموت الانسان اذا قتله آخر فيمسكون بتلابيب القاتل ويقتصون منه وقد يقتلونه فى

بعض الاحيان ، وقد لايقتلونه أبدا ، بل قد يكرمونه .

فالقاتل الذى ينفذ حكم الاعدام موظف مسئول يأخذ مرتبا . والقاتل الذى يقتل الجاسوس الذى يعمل ضد بلده تنهال عليه المكافآت من دولته ، والقاتل الذى يمارس القتل الجماعي فى أثناء الحرب بأن يقذف بالقنابل المدمرة بأنواعها على مدن العدو وقراه الآمنة ويقتل الرجال والنساء والأطفال ينال الأوسمة والنياشين .

والأغلبية الساحقة من قتلى الانسانية فى الحروب لايخفون على أحد ، سواء أكانوا من القتلى العسكريين أم من القتلى المدنيين . وكل جانب يدعى استشهاد قتلاه ! الظالم يفعل ذلك والمظلوم يفعل ذلك على السواء . وتغرق الانسانية فى الدماء والخراب والتدمير فى ظل بعض الشعارات التى يشترك فى رفعها الظالم والمظلوم معا ! واتباع كلّ تائهون مبلبلون متعصبون ! ويترك كلّ لحكم التاريخ ينصف من ينصف ويدين من يدين ويستخلص العبرة والدرس . ومع ذلك فإن عدد الضحايا بمرور الوقت يتضاعف والتفنن فى القتل والتقتيل يزداد وحشية .

واذا كنت طفلا صغيرا عندما نشبت الحرب العالمية الأولى ، فقد استطعت عندما شببت عن الطوق ثقافيا أن أطلع على "الموسوعة البريطانية ، مجلد رقم ٢٣ ، عام ١٩٦٨" فهالنى ما قرأت من أرقام عن القتلى من الجنود (كانوا عشرة ملايين جندى) ، وعدد القتلى من المدنيين (كانوا عشرة ملايين مدنى أيضا) ، أما عدد الجرحى ، كنتيجة مباشرة لهذه الحرب ، فقد كان عشرين مليونا ، وفضلا عن ذلك فإننا نجد أن عدد الموتى بسبب الأوبئة والمجاعات التى انتشرت فى خلال هذه الحرب كان عشرين مليونا ! .

وقد هالنى الدمار الذى لحق بالبشرية فى هذه الحرب ، وعندما علمت عما لحق بالعالم فى الحرب العالمية الثانية التى عشت أيامها منذ أن أندلعت فى عام ١٩٣٩ وانتهت فى عام ١٩٤٥ ، وجدت أن الأعداد قد تضاعفت ، وذلك للتقدم الهائل فى أساليب الدمار والعنف والقسوة الذى حققته الدول واتساع رقعة هذه الحرب التى شملت القارات التى كان ، ومازال ، يعيش فيها بنو البشر .

لقد سجل التاريخ عن الحرب العالمية الثانية الشيء الكثير : عن الجيوش التى لم يكن لها نظير ، والقوات المسلحة التى لم يسبق لها وجود التى عبئت فى البر وفى البحر وفى الجو . وقد سجل التاريخ عن القوة الصناعية الضخمة التى استخدمت فى هذه الحرب . هذه القوة التى لم تستخدم فى حرب قبل ذلك . كانت هذه الحرب أعظم الصراعات التى سجلها التاريخ منذ ٧٠٠٠ عام ، أى منذ أن بدأ الانسان يسجل تاريخ البشرية . لقد كانت أقدار سبعين دولة فى هذه الحرب فى خطر ، كما كان مصير نحو ٢٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ من أعضاء البشر فيها فى خطر كذلك . لقد مس لهيب هذه الحرب العاتية بلادا تكوّن أكثر من ثلاثة أرباع السكان فى العالم . وقد اشترك فى القوات المحاربة نحو ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ من البشر ، أى شخص واحد من كل ٢٠ شخصا من سكان الكرة الأرضية . أن سجل القتلى والجرحى فى هذه الحرب سجل رهيب ، وايضاح مفجع لحضارتنا ، فقد تبين من الاحصاءات الرسمية ان ضحايا هذه الحرب من القتلى أكثر من ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ قتيل ، وأن نحو ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ من الرجال والنساء والأطفال قد شردوا من ديارهم ، وأن نحو ١٠,٠٠٠,٠٠٠ من هؤلاء قد عذبوا وذبحوا ، وأن مئات الألوف من المساكن قد دمرت وصارت خرابا .

وقد قدر البعض لتكاليف الحرب العالمية الثانية ثمنا ، أقصد تكاليف ما دمرت وأتلفت وتسببت فى خسائر اقتصادية ، وكان هذا التقدير نحو ١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار أمريكى . وقد شمل الدمار والخراب ثروات العالم العظيمة وموارده المالية والصناعية وطاقاته وقدراته البشرية على السواء . وتراكمت على الدول الديون ، وهى ديون تزيد فى جملتها على جميع الأموال التى كانت موجودة فى العالم فى ذلك الحين ، وقد تركت للأجيال التالية ، بالضرورة ، تبعة سداد هذه الديون .

والملاحظ أن الأموال الكبيرة التى التهمتها الحرب العالمية الثانية ، وحدها ، كانت تكفى لبناء مسكن لكل أسرة فى العالم ، أو كانت تكفى لتعليم كل طفل على وجه الأرض . ومقادير هذه الأموال أعظم من كل الأموال التى أنفقت فعلا على المدارس والمعابد والمستشفيات منذ أن وجدت البشرية على كوكب الأرض .

واذا اعتبرنا الحرب العالمية الثانية أول وأعظم حرب جوية . فهى أيضا أول وأعظم حرب جندت لها القوات المسلحة فى البر والبحر ، أنها فى الواقع "حرب العلماء" أسهمت فيها بقسط وافر المخترعات والاكتشافات والعبقرية الانسانية الآلية والانتاج الكبير . ومن خلال عصر الراديو الجديد والتسلط على الزمان والمكان أصبح العالم كله فى هذه الحرب متصلا بعضه ببعض اتصالا وثيقا . ومن خلال التصوير السينمائى والتصوير بالراديو أمكن لصور حوادث جبهات القتال والمعارك أن تدخل البيوت فى التو واللحظة . أن الحرب العالمية الثانية قد مرت حوادثها أمام أعين الذين عاشوها على الستار الفضى . وقد حفظت أفلام هذه الحوادث

لتراها أعين الذين سيأتون من بعدها من الأجيال القادمة . وكلها تنطق بالرهبة والعنف والقسوة والدمار (أنظر كتاب : (Miller, Francis Trevelgan :, Histry of world II, conada, Toronto, Dominion Book and Bible. 1945, P. P. V-VI).

وأنني لا أجادل في المكانة الرفيعة للعلم والعلماء في الحروب الحديثة ، ولكن يجب أن نلاحظ أنه اذا كان العلم يدمر العدو ، فإنه يحمي ، أيضا ، من يقاتل هذا العدو ، وليس بالضرورة أن يكون هذا العدو الانسان فحسب فقد يكون ڤيروسا أو ميكروبا أو أثرا من آثار الطبيعة العاتية . واذا كان العلم يستخدم في وقت الحرب كسلاح رهيب فتاك ، فإن بعض آثاره التي وصل اليها العلماء في أثناء الحرب تنقذ الأرواح في وقت السلام . واذا كان معظم العلماء في المجتمع الرأسمالي الاحتكاري يكدحون في سبيل حفنة من الناس ، يملئون جيوبهم بالأرباح الوفيرة ، فإن كل العلماء في المجتمع الذين يناصرون الكادحين يعملون مخلصين في سبيل كل الناس . فبالعلم يوضع الاساس الانساني الاقتصادي الثقافي . لتزدهر فضائل الانسان ، وروحانية الانسان ، وذلك لان انسانية الانسان تؤمن بأن الجائع أو الجاهل أو العاطل أو القلق قلقا عاديا أو حتي مرضيا ، لن يستطيع أن يفكر ويتأمل ويعبد الله ، عن رضا وايمان لاعن خوف أو عن ذل وحاجة (أنظر كتاب : سيد عويس ، الخدمة الاجتماعية ودورها القيادي في مجتمعنا المعاصر ، دار المعارف بمصر ، عام ١٩٦٦ ، صفحتا ١٩ ـ ٢٠) .

وإذا كنا نبغض الحروب فحرى بنا أن لانرضى أبدا أن يسود قانون الغاب ، وإذا كانت الحروب الاستغلالية ، وعلى رأسها الحروب الامبريالية ، بآثارها المعنوية وآثارها المادية شرا مستطيرا ، فإن السكوت على الحقد والكراهية والجشع والاستغلال التى تمدها بالوقود أكثر شرا . أن الحروب تحمل عادة فى طياتها التوترات الاجتماعية الرهيبة . ولكن هذه التوترات ليست فى ذاتها أشياء حسنة أو أشياء سيئة . وذلك لأن بعض هذه التوترات قد يخدم التقدم البشرى ، وقد يساعد البناء الاجتماعى حتى لو تطلب ذلك تقديم التضحيات ! فالحروب المشروعة ، أى تلك التى تشتعل للدفاع عن النفس وللدفاع عن الوجود الانسانى : الحروب التى تهدف الى اقرار الحق وإقرار السلام القائم على العدل (كحروب السود وهم الأغلبية ضد البيض وهم الأقلية فى جنوب افريقيا والفلسطينين ضد اليهود فى الشرق الأوسط مثلا) . أن هذه الحروب وما تحمل فى طياتها من توترات تخدم التقدم البشرى وتساعد على تحرير انسان . وفضلا عن ذلك فإنها تمحو من الواقع الحى المؤلم استغلال الانسان لأخيه الانسان . وعلى العكس من ذلك فإن الحروب الاستغلالية ، وعلى رأسها الحروب الامبريالية تهدف الى تحقيق بعض صور العبودية . ومن الواجب على كل محب للأنسان لكى يحيا حياة الأمن والأمان أن يدين جميع اشكال العبودية ، كما يدين كل الحروب الامبريالية ، القديمة منها والمعاصرة على السواء . أن الحروب الامبريالية المعاصرة تعنى تقسيم وجه الأرض بين الدول الكبيرة واحتكاراتها . وذلك للحصول على اكبر ربح من العمل الرخيص لشعوب البلاد النامية (المستعمرات بمعناها الحديث) . أى البلاد التى أصبحت أماكن للنهب

الحر وبيع البضائع بأسعار خيالية ، فضلا عن أنها الاماكن التى تربح فيها الاستثمارات الرأسمالية أكثر مما تربح فى موطنها الأصلى . ومن ثم تزداد الديون على مر الزمان وهذه الحالة تؤكد التبعية الاقتصادية والسياسية والثقافية جميعا .

وأننى كمصرى اعيش فى بلد عريق وأصيل أدعو دعوة صريحة الى رفض هذه الألوان من الاستغلال . إن أعضاء المجتمع المصرى المعاصر يجب أن يحاربوا هذه الحروب الخفية بكل طاقاتهم ، بشرف وأمانة ، وبعزة وارادة هى إرادة الحياة الفاضلة فى هذا المجتمع .

وإننى أرجو أن لايتهمنى أحد من أبناء وطنى العزيز بالمثالية . وذلك لأن القضاء على الامبريالية ، الاستعمار الحديث ، وعلى أذنابه فى الداخل والخارج يعنى القضاء على التوترات الخطيرة الحالية التى تكلف الشعوب الحرة المناضلة فى سبيل الحق وفى سبيل السلام القائم على العدل الشىء الكثير .

ولعل الشعوب الحرة ، ومنها شعبنا المصرى المجيد ، أن تعلم جيدا أن النضال فى سبيل هذه الاهداف الانسانية . سيستمر حتما الى حين . ومهما يكن من الأمر فهو نضال شريف وانسانى واهدافه نبيلة . بعكس ما يهدف اليه أعداء السلام العادل الذين يرون :

« أن حضارتنا يجب أن تبنى حتما على جبال من الجثث ، وعلى محيطات من الدموع ، وعلى حشرجات الموت لاعداد لاتحصى من الناس » .

كل ذلك فى سبيل تحقيق اطماعهم وجشعهم ، وفى سبيل فرض الألوان العديدة من الاستغلال (إنظر كتاب : سيد

عويس ، محاوله فى تفسير الشعور بالعداوة ، القاهرة ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، ١٩٦٨ ، صفحتا ٦٨ ـ ٩٦) .

ومهما يكن من الأمر فإن قوة أعداء السلام القائم على العدل لن تشيع الخوف فى نفوسنا .وذلك فإنه لاحاجة لنا إلى هذا الخوف . فإن كل ما نحتاجه هو معرفة الوسائل للتغلب عليهم . وفى ضوء حقائق التاريخ منذ الزمن القديم وحتى الآن سننتصر ، حتما ، حتى يصنع أعضاء الشعب المصرى العظيم ، تحت القيادة الرشيدة ، الحياة الفاضلة لهذا الشعب : حياة السلام العادل والسلام الروحى .

وأود أن أؤكد هنا ماذكره "قداسة الباب بول السادس" فى رسالته التى تفضل بإلقائها بمناسبة الاحتفال بيوم السلام العالمى فى أول شهر يناير عام ١٩٧٨ :

« يجب أن يسود السلام فالسلام ليس مطلبا مستحيلا بل ميسورا » .

١١ ـ بعض المؤامرات السياسية :

أود أن أصارح القارىء الكريم أن الفضل كل الفضل فى إننى اتجاسر واكتب فى هذا الموضوع يرجع الى المؤرخ الكبير "محمد عبد الله عنان" كنت أقرأ مقالاته الرائعة فى "مجلة الرسالة" التى كان يصدرها الاستاذ الكبير "أحمد حسن الزيات" ، فضلا عن مقالاته الثرية فى جريدة "السياسة الأسبوعية" التى كان يرأس تحريرها الاستاذ الكبير "محمد حسين هيكل" ومقالاته التى لاتبارى التى كان يكتبها فى مجلة "الثقافة" التى كان يرأس تحريرها الأستاذ الكبير "أحمد أمين" .

فمنذ أن كنت شابا وأنا أقرأ فى هذه الينابيع من الثقافة الرفيعة وأحاول أن أستوعب مافى مقالاتها من أفكار وأتمثلها . وكنت أنجح فى معظم الأحيان . ولما تفضل المغفور له الاستاذ محمد عبد الله عنان وجمع معظم مقالاته التى كتبها سواء فى هذه المناهل العذبة وفى غيرها فى كتب ، كان من حظى أن أشترى معظم هذه الكتب ، وبدأت بكتاب "الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ، مارس عام ١٩٣٧" وكتاب "تراجم إسلامية : شرقية وأندلسية ، يناير عام ١٩٤٧" وكتاب "نهاية الاندلس وتاريخ العرب المنتصرين ، أغسطس ١٩٥٨" وكتاب "مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام ، أغسطس ١٩٦٢" وكتاب "لسان الدين بن الخطيب : حياته وتراثه الفكرى ، مايو عام ١٩٦٨" وكتاب "ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب لذى الوزارتين لسان الدين الخطيب ، المجلد الأول ، ١٩٨٠ ، والمجلد الثانى ، ١٩٨١" .

وكان من حسن حظى أن وقع فى يدى كتاب الاستاذ محمد عبد الله عنان ، بعد أن قرأت كتبه الأولى (أى حتى عام ١٩٤٧) الذى اقتبست عنوانه للدراسة الحالية وهو :
« تاريخ المؤامرات السياسية وتطوراتها الاجتماعية والقانونية . من أقدم العصور الى أحدثها ، التى نشرته إدارة الهلال بمصر فى سنة ١٩٢٨" .

وارجو أن يلاحظ القارىء الكريم أن المؤامرات السياسية قديمة قدم الدهر ، وسأتحدث عن بعض هذه المؤمرات فى اختصار ، وسأفعل ذلك أيضا عنها فى العصور الوسطى ، وسيكون اهتمامى بما حدث ويحدث فى مصرنا الخالدة وبخاصة فى الفترة الراهنة .

ولعلنى فى ضوء خبراتى المحدودة أحاول التحدث عن أهم

العوامل التى عرفتها من قراءاتى فى التاريخ أو تلك التى أستخلصتها على مسئوليتى وحدى .

اذا أستعرضنا تاريخ مصرنا الخالدة وجدنا المؤامرات السياسة فى معظم مراحله إن لم تكن فى كل مراحله حتى وقتنا الراهن ، كان ملوك البلاد مقدسين أو شبه مقدسين ، وكانوا أصحاب امتيازات مطلقة ، وكانت سلطاتهم لاحد لها ، وكانوا فى الأغلب الأعم كل شىء ، والشعب كله لاشىء باسم الدين كانوا يحكمون سواء كان هذا الدين وثنيا أو سماويا نجد ذلك كما ذكرت فى وقائع التاريخ ، كما نجده فى الاساطير . ولنا فى أسطورة "أيزيس وازوريس وحورس" دلالة واضحة . فقد تآمر "ست" أخ "أوزوريس" كما تذكر الاسطورة ليحل محله ويصبح ذا سلطان وامتيازات . وكان من نصيب أوزوريس أن قطع إربا إربا حتى نجحت أخته "إيزيس" وزوجته فى الوقت نفسه فى لم أشلائه حتى قام ولدها "حورس" الذى حارب عمه "ست" وتوج ملكا على عرش أبيه المسلوب .

وعلى الرغم مما تذكره هذه الأسطورة فإننا نجد فى ضوء ما سجله التاريخ عنها أن "ست" قد أحاط عرشه الذى سلبه من أخيه بعصابة من المداهنين المرتزقة . على أنه بالرغم من ذلك ، نلاحظ أن أصحاب المؤامرات لا يلبثون أن يواجهوا عشاق الحرية ، فى أى عصر ، وأى مكان وأى ظروف ، الذين يواجهون الطغيان من أجل السلام ويعملون فى سبيل تحقيق ذلك ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، وانني لا أرى أبدا أن ما يفعلونه يعتبر تآمر على الطاغى المستبد الذى لايحكم إلا بحواسه ، وذلك لان الباعث على سلوك هذا السبيل الخطر هو التماس العدل والاصلاح وسيادة الحرية والسلام .

والملاحظ أن أسطورة "أوزوريس وأيزيس وحورس" قد بقيت ، لاتزال ، فى وجدان المصريين حتى وقتنا هذا . فإن "أوزوريس" يعتبر فى رأيى "أول الشهداء" ، واذا كان هو كذلك فإن "الامام الحسين بن على" رضى الله عنهما يعتبر كما يقول "العقاد" عندما تحدثت عن بعض الشهداء من قبل ، "أبا الشهداء" ، وأن كان يرى الكثير أن الامام الحسين هو "سيد الشهداء" وارجو القارىء الكريم أن يسمح لى بالتحدث عن موضوع بقاء الاسطورة القديمة في وجدان المصريين عندما أتحدث عن القديسين "مرقس الرسول" و "مارمينا" و "القديسة دميانة" الذين واجهوا الطغيان والعنف الى الدرجة التى قتلوا وقطعت جثثهم إربا إربا كما حدث للأمام الحسين بن على (أنظر كتاب سيد عويس : "الأبداع الثقافى على الطريقة المصرية : دراسة عن بعض القديسين والأولياء فى مصر ، القاهرة ، دار الطباعة الحديثة ، ١٩٨١ ، صفحات ٢٤ ـ ٧٤) .

والملاحظ ، أيضا أنه على الرغم من أن عصور الاستقرار فى ربوع مصر كانت طويلة . وخاصة العصر الاساسى الأول (الدولة القديمة) ، فإنه منذ عام ٥٢٥ ق . م وحتى عام ١٩٥٣ ميلادية . أى منذ حوالى ٢٤٧٨ عاما كان حكام مصر من الاجانب . وكان الحاكم منذ عام ٥٢٥ ق . م هو "قمبيز بن كورش" ملك فارس ، الذى زحف بالجيوش والعساكر لافتتاح مصر بسبب عصيان "بساماتيكوس" بن أماسيس (من أعيان المصريين الذين استخلفته الدولة الفارسية من قبل ثم تمرد عليها) وقد قبض قمبيز على بساماتيكوس بعد حروب طاحنة وألزمه أن يشرب مقدارا كبيرا من دم الثيران ففعل ذلك به كالسم ومات . وخضعت لقمبيز بعد ذلك كل بلاد مصر

وصارت مقاطعة فارسية وتوالى عليها نواب ملوك فارس واستمرت مملكة مصر خاضعة للفرس الى أن افتتحها "أسكندر ذو القرنين" فى عام ٣٣٢ ق . م وبعد أن مات اسكندر تولى زمام مصر "الدولة البطليموسية" (أنظر كتاب : يوحنا أبكاريوس : "قطف الزهور فى تاريخ الدهور" طبع فى بيروت سنة ١٨٧٣ ، صفحات : ١٨٥ ـ ١٨٧) .

وبهذه المناسبة أود أن أذكر أن "هيرودوت" جاء الى مصر فى عهد قمبيز من بلاد اليونان ليدرس عادات اهلها وتقاليدهم وليعرف مواضع القوة فيهم ومواضع الضعف ، توطئة لاتاحة الفرصة لليونان لكى يضموها الى مملكتهم ، وقد نجح فى ذلك ، كجاسوس أكثر منه مؤرخا ، تماما كما حدث بعد ذلك فى البلاد العربية وفى مصر ، من أمثال عملاء خبراء المستعمرين "لورنس" و "فيلبى" و "جوردون" و "لين (منصور افندى) و "دى لسبس" وحتى وقت قريب ، وحتى وقتنا هذا ، ومن هؤلاء "ويندل كليلاند" و "جون بادو" ومخابرات الدول وبخاصة الولايات المتحدة ودول أوروبا المتقدمة الغربية والشرقية واسرائيل .. وغيرها .

وانقرضت دولة اليونان فأستولى على مصر "الرومان" فى عام ٣٢ ق . م . وقامت البلاد تحت تصرف حكامهم نحو سبع مائة سنة ، وكانت البلاد المصرية تحسب ولاية من الولايات الرومانية . ثم كرس "الرسول مرقص" "اينيانيوس" المصرى أسقفا ، وكان اول أسقف مصرى مسيحى ، وذلك فى عام ٦٤ ميلاديا ، وباسم "المقوقس عظيم القبط" سادت الديانة المسيحية بعد أن امتحن معتنقوها فى "عهد الاضطهاد الاعظم" وكان عدد الاضطهادات التى أثارها

القياصرة الرومانيون على المسيحيين عشرة أولها عام ٦٤ ميلادية فى زمن "نيرون" واخرها أى عاشرها عام ٣٠٣ ميلادية فى أيام "ديوكليتيان" .

وبعد أن تولى الملك "قسطنطين" امتازت أيامه عن باقى القياصرة بأمرين عظيمين أولهما : نقل كرسى السلطنة الى "القسطنطينية" ، والثانى : اعتناقه فى عام ٣١٢ ميلادية الديانة المسيحية .

وكان "عهد الاضطهاد الأعظم" فى البلاد المصرية فى زمن الأمبراطور "دقلديانوس" (٢٨٤ ـ ٣٠٥ ميلادية) وقيصره "جاليريوس" ثم هذا الأخير منفردا (٣٠٥ ـ ٣١١ ميلادية) و "ماكسيمين دازا" (+ ٣١٣ ميلادية) وقد سيق عدد كبير من المصريين المسيحيين الى الموت زمرا ، ففر كثيرون بعقيدتهم الى الصحراء . كانت فيافى مصر وقفارها حصنا أمينا وملاذا لهؤلاء الفارين بعد أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وشهدت صحارى مصر من " النطرون" الى "طيبة" جموعا هائلة من المصريين المسيحيين الذين أفلتوا بدينهم من قبضة الاباطرة الوثنيين . وعاش بعض من هؤلاء متوحدا تحتويه صومعة كانت أصلا أطلال قبر أو فجوة كهف ، وآخرون آثروا عيش الجماعة فكانت الاديار (انظر : كتاب رأفت عبد الحميد : ملامح الشخصية المصرية فى العصر المسيحى" ، القاهرة كتاب روزاليوسف ، يناير عام ١٩٧٤ ، صفحتا ٤١ ـ ٤٢) .

وفى ضوء بعض حقائق التاريخ نجد أنه كان من جملة النازحين الفارين من الطغيان والعنف اللذين كانا وليدى الشعور بالعداوة ضد الوثنيين من الحكام ، رجل يقال له

"بولس" من مدينة طيبة انفرد بذاته وعكف على العبادة والصيام فحسب أول من ظهر فيه روح الرهبنة . ولكنه ظهر فى أوائل الجيل الرابع من معتنقى الديانة المسيحية رجل آخر يدعى "أنطونيوس" فبنى ديرا وجمع أناسا فيه ممن كانوا يميلون للاعتزال عن العالم ، ونظم لهم قوانين للسلوك بموجبها ولذلك سمى بأبى الرهبان ، ثم أن هذه الطريقة أخذت فى الامتداد حتى وصلت الى فلسطين وسوريا بواسطة خلفاء انطونيوس ، وبالتدريج عمت أكثر البلاد المسيحية .

(أنظر : كتاب قطف الزهور فى تاريخ الدهور ، صفحتا ١٧١ - ١٧٢) .

وفى خلال خلافة امير المؤمنين "عمر بن الخطاب" أى فى عام ٦٤٠ ميلادية غزا عمرو بن العاص مصر . ومنذ ذلك التاريخ بدأ فيها دين الاسلام فى الانتشار كما بدأت اللغة العربية تجد طريقها فى حديث المصريين بدلا من اللغة القبطية التى كانت سائدة . واستمرت مصر يحكمها الخلفاء الراشدون . ثم عندما أسس "معاوية بن أبى سفيان" دولة بنى أمية ، أرسل الى مصر عمالا موالين لهم مدة خلافتهم . وكان جملة من تولى بالنيابة عن هذه الدولة ستة وعشرين عاملا فى خلال فترة زمنية تقدر بمائة واحدى عشرة سنة . وكان هؤلاء العمال يسمون عمال خراج مصر . وأصبحت مصر عند هؤلاء مجرد "ضيعة" عندهم .

والمعلوم أن معاوية بن أبى سفيان كان قبل تأسيس دولة الأمويين واليا على الشام منذ خلافة ابن عمه "عثمان بن عفان" . وعندما ولى "على بن أبى طالب" الخلافة أراد أن ينزل كل ولاة عثمان الحكم وان يولى مكانهم نفرا من صحبه ممن يثق فى ولائهم له ، فبعث عاملا جديدا الى الشام فرده

أهلها ، وأظهر معاوية الخلاف ، ووجد فى المطالبة بدم عثمان حجة يستتر بها معاوية في الخلافة والملك (لقد قتل الخليفة عثمان فى عام ٣٥ هـ) .

ودبرت المؤامرة حيث اجتمع نفر من "الخوارج" (هم نفر من اهل العراق ممن غضبوا لأن الخليفة علي بن أبى طالب رفض أن يمضى فى الحرب ضد العصاة من أمثال معاوية بن ابى سفيان) فى موسم الحج سنة ٣٩ هـ . وهم عبد الرحمن ابن ملجم المرادى والحجاج بن عبد الله التميمى الصريمى ، وعمرو بن بكر التميمي - وتحدثوا فى أمر "الحرب الأهلية" التى يثيرها ، فى رأيهم ، جشع الرؤساء ، واستبداد الولاة . واتفقوا على أن الرؤساء الثلاثة أقصد "على ومعاوية وعمرو ابن العاص" هم المسئولون عن وقوع هذه المصائب ، وأنه يجب قتلهم وإراحة الأمة الاسلامية من شرهم وجشعهم ، وتعاهدوا على أن يقوموا بتلك المهمة ، وأن يهبوا أنفسهم رخيصة فى سبيل تحقيقها . واتفقوا على أن يتولى عبد الرحمن بن ملجم قتل على ، والحجاج الصريمى قتل معاوية ، وعمرو بن بكر قتل عمرو بن العاص . على أن يكون التنفيذ فى الكوفة والشام ومصر فى وقت واحد هو ليلة ١٧من شهر رمضان سنة ٤٠ من الهجرة .

ويرى "الاستاذ محمد عبد الله عنان" أنه يعتقد أن منشأ تلك المؤامرة الشهيرة يرجع الى ما وراء ذلك ، وأن زعماء الخوارج أنفسهم هم الذين دبروها ، وأن "ابن ملجم" وزميليه كانوا رجال التنفيذ فقط ، ولم يكن اجتماعهم بمكة وتدبرهم لطرق تنفيذها إلا مرحلة أخيرة للمؤامرة (أنظر كتاب : محمد عبد الله عنان" تاريخ المؤامرات السياسية" ، القاهرة ، ١٩٢٨ ، صفحات : ٩٩ - ١٠١) .

وصرع "على" أمير المؤمنين فى عام ٤٠ من الهجرة ـ ٦٤٠ ميلادية . ونجا معاوية وعمرو بن العاص . وقبض الناس على ابن ملجم وعلا الصياح وأشتد الاضطراب . وأجتمعت شيعة الخليفة الجريح حوله فقال : ان هلكت فاقتلوه كما قتلنى ، وأن أعش فأنا ولى دمى إما عفوت وأما اقتصصت . ولكنه توفى بعد يومين ، وقتل ابن ملجم بعد أن عذب وقطعت أطرافه ، وفقد الاسلام بمقتل "على" زعيما من أكبر زعمائه (المرجع السابق : صفحة ١٠١) .

ولعل الحديث بعد مقتل "الخليفة على" أن يملى علينا ذكر بعض الأمور عن الامام الحسين . الذى سبق أن تحدثنا عنه عند ذكر أسطورة "أوزوريس وأيزيس وحورس" من قبل : والامام الحسين هو "الامام عبد الله الحسين بن على رضى الله عنه" . وهو أسم ملأ فى عصره وبعده كل مكان فى البلاد العربية والاسلامية وغيرها من المعمورة ، وقد أصبح "للحسين" بعد مأساة كربلاء وبنسبه الشريف وخلقه الكريم وورعه وتقواه ورعايته لأحكام الدين ، مكانة فى قلوب الناس لاتدانيها مكانة ، وقد تواترت الروايات على أن "الحسين" كان يقول الشعر وبخاصة فى اغراض الحكمة وأنه كان خطيبا بما أوتى من طلاقة للسان والفصاحة وحسن البيان .

وقد شهد الحسين مع أبيه موقعة الجمل ثم صفين ثم قتال الخوارج ، وكانت له فى كل منها مواقف مشهودة . وبقى مع والده حتى قتل . وبعد وفاة الخليفة "على" بقى الحسين مع أخيه "الحسن" رضوان الله عليهما ، الى أن أسلم الأمر الى "معاوية" . وكان الحسين غير راض على ما فعله أخوه "الحسن" من تسلم أمر الخلافة الى معاوية . فلم يوافقه علي أولا وأشار بالقتال ، ولكنه نزل بعد ذلك على رأى أخيه الأكبر .

وقد صحب الحسين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الى أن توفى وهو عنه راض . ثم كان "الصديق ابو بكر" يكرمه ويعظمه وكذلك الخليفة "عمر" والخليفة "عثمان" .

وفي "كربلاء" تكاثر الجيش على "الحسين" وصحبه وكانوا اثنين وثلاثين فارسا وأربعين راجلا . وقد أستشهد كل صحبه وانفرد وحده بجيش "عبيد الله بن زياد" ، وكان يحمل عليهم فيتفرقوا تحرجا من قتله وكان منهم من يخشى أن يصاب على يديه حتى صاح فيهم "شمر بن ذى الجوشن" : وَيْحَكم ماذا تنتظرون بالرجل اقتلوه ثكلتكم امهاتكم . فحملوا عليه من كل جانب وضربه "زرعة بن شريك التميمى" على يديه اليسرى فقطعها ، وضربه غيره على عاتقه فخر على وجهه فأخذ يقوم ويكبر وهم يطعنونه بالرماح ويضربونه بالسيف حتى لفظ نفسه الأخير . ووجد بجسده ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة غير الرمية بالنبل والسهام . ونزل "سنان بن أنس النخعي» "فاجتز رأسه" وقيل فى رواية أخرى أن شمر بن ذى الجوشن هو الذى ذبحه واجتز رأسه . ثم عمدوا الى سلب ما كان عليه من كساء فأخذ قميصه "اسحاق بن حيوه الحضرمى" واخذ سراويله "بحر بن كعب" واخذ "قيس بن الاشعث" قطيفته وهي من خز ، فكان يسمى بعد "قيس قطيفه" وأخذ عمامته "أخنس بن مرثد الحضرمى" وأخذ نعليه "الأسود الاودى" وأخذ سيفه رجل من "دارم" وترك الحسين يكاد أن يكون عاريا .. ثم وطأت الخيل جثته كما أمر "ابن زياد" حتى رضوا صدره وظهره (نظر كتاب : الابداع الثقافى على الطريقة المصرية : دراسة عن بعض القديسين الاولياء فى مصر ، صفحات : ٦٤ـ ٦٨)

ولابد لي من كلمة عن موقعة كربلاء ، فقد ذكرت "سعاد ماهر محمد" في كتابها "مساجد مصر وأولياؤها الصالحون : الجزء الأول ، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، ١٩٧١" تحت عنوان "خروج الحسين ومقتله" . صفحتا : ٣٥٥ ـ ٣٥٦) .

"لما توفى معاوية سنة ٦٠هـ كان على المدينة الوليد بن عتبة بن أبى سفيان وعلى مكة يحيى بن حكم بن صفوان بن أمية ، وعلى البصرة عبد الله بن زياد ، وعلى الكوفة النعمان ابن بشير الانصارى ، فكتب يزيد بن معاوية الى الوليد بن عتبة (من يزيد امير المؤمنين الى الوليد بن عتبة ، أما بعد فإن معاوية كان عبدا من عباد الله أكرمه الله واستخلفه وخوله ومكن له فعاش بقدر ومات بأجل ، فرحمه الله فقد عاش محمودا ومات برا تقيا والسلام) ثم أضاف (أما بعد فخذ حسينا وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذا شديدا ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام) . فلما قرأ الوليد ، وآلى المدينة فى ذلك الحين ، للحسين الكتاب ونعى اليه معاوية ، فقال الحسين" انا لله وإنا اليه راجعون ورحم الله معاوية ، أما البيعة فإن مثلى لايعطى بيعته سرا ولا أراك تقنع بها سرا قال أجل ، فقال الحسين فإذا خرجت الى الناس فدعوتهم الى البيعة دعوتنا معهم فكان الأمر واحدا" . وكان الحسين رضوان الله عليه قد عوّل على ترك المدينة إلى مكة ، كما تركها قبله بليلتين ابن الزبير دون مبايعة يزيد ، فخرج منها ومعه جل أهل بيته وأخوته وبنو أخيه ، فلما بلغ أهل الكوفة وفاة معاوية وعلموا امتناع الحسين عن بيعة يزيد ونزوله مكة ، اجتمعت الشيعة وكتبوا إليه كتبا جاء فيها "إنه ليس علينا أمام فأقبل لعل الله أنه يجمعنا بك على الحق" ، ثم

سرحوا عدة رسل بالكتاب اليه . وتلاقت الرسل كلها عند الحسين فكان يقرأ الكتب ويسأل الرسل عن الناس . ولبث فى مكة على هذه الحال أربعة أشهر . ثم دعا ابن عمه مسلم بن عقيل بن ابى طالب فأمره بالمسير الى الكوفة ، فإن رأى الناس مجتمعين مستوثقين عجل اليه بذلك ، وكتب الى أهل الكوفة .

قبل ذلك كتابا قال فيه : « أما بعد فقد أتتنى كتبكم وفهمت ماذكرت من محبتكم بقدومى عليكم ، وقد بعثت اليكم أخى وابن عمي وثقتى من اهل بيتى مسلم بن عقيل وأمرته ان يكتب الىّ بحالكم وأمركم ورأيكم ، فإن كتب الىّ انه قد اجمع رأى ملئكم وذوى الفضل والحجى منكم علىّ مثل ما قدمت علىّ به رسلكم وقرأت فى كتبكم ، اقدم عليكم وشيكا ان شاء الله ، فلعمرى ما الامام الا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط والدائن بالحق والحابس نفسه على ذات الله والسلام »

ولما علم يزيد بخبر مسير مسلم بن عقيل الى الكوفة كتب الى عبيد الله بن زياد ، وكان واليا على البصرة ، يأمره بالمسير الى الكوفة وتولى امارتها واخذ شيعة الحسين بالشدة وبالقضاء على مسلم بن عقيل ، وكان مسلم قد نزل بالكوفة وتلقى البيعة للحسين من ألوف الناس ، قال عنهم ابن كثير ثمانية عشر الفا وقال ابن قتيبة ثلاثين الفا .

وما ان قدم ابن زياد الى الكوفة حتى عمل على تحويل الناس عن مسلم ، وسرعان ماقضى عليه وعلى من انضم اليه من اهل الكوفة وبعث برأسه ورءوس من قتل معه من صحبه الى يزيد .

وفى اليوم الثامن من ذى الحجة جمع الحسين رأيه على الخروج ، فجاءه عبدالله بن العباس يناشده فى المقام ويعظم عليه القول فى ذم أهل الكوفة وقال له : « أنك تأتى قوما قتلوا

اباك وطعنوا أخاك وماأراهم الا خاذليك » فقال له : « هذه كتبهم معى وهذا كتاب مسلم باجتماعهم (قتل مسلم بن عقيل لتسع خلون من ذى الحجة ، اى بعد خروج الحسين من مكة بيوم واحد) فقال له ابن عباس « ان كنت لابد فاعلا فلا تخرج أحد من ولدك ولاحرمك ولانسائك » .

وبلغ الحسين نبأ مقتل مسلم وهو فى طريقه الى الكوفة فدب الخلاف بين من معه من المناصرين ونصح فريق منهم بعدم مخاصمة يزيد بن معاوية ، ونصح فريق آخر باصرار على مقاتلة يزيد والفريق الثالث وقف موقفا وسطا ، وانتهى بأنه لامناص من المضى قدما فى محاربة يزيد ومواجهة الموت وإباء التسليم أو النزول على حكم الطغاة المتآمرين .

وسار الحسين حتى وصل به مناصروه إلى « كربلاء » وهكذا كانت النتيجة المحتومة تكاثر الجيش على الحسين وصحبه وكانوا كما سبق ان ذكرت اثنين وثلاثين فارسا واربعين راجلا ، وكلهم مشهود له بالشجاعة وسداد الرمى ومضاء الضرب بالسيف وهم على قلتهم كفء لمبارزة فرسان جيش عبدالله بن زياد واحدا بعد واحد لو جرى القتال على سنة المبارزة . ولكن هؤلاء الفرسان أقصد فرسان جيش عبيدالله بن زياد خشوا مغبتها فعدلوا عنها (المرجع السابق (صفحات : ٣٥٦ ـ ٣٥٩) .

وارجو من القارىء الكريم ان يوافقنى على أن رسوخ « اسطورة اوزوريس وايزيس وحورس » فى وجدان المصريين المسلمين ، يؤكد الاهتمام الذى يرقى الى التقديس أو شبه التقديس عندما يزور المصريون المسلمون ، السنيون منهم والشيعيون على السواء ضريح « الامام الحسين » أو ضريح شقيقته « السيدة زينب » أو ضريح ابنه « على زين

العابدين » ويرجع ذلك الى ان مكانة الآلهة المصرية القدماء قد انتقلت فى فترات التحول فى تاريخ مصرنا الخالدة ، بعملية توفيقية الى الانبياء والقديسين ثم الاولياء .

وقبل أن أتحدث عن وقائع التاريخ المصرية التالية ارانى مضطرا لكى أتحدث عن أهم الصراعات الفكرية التى حدثت وبخاصة بين الأئمة الفقهاء : إبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل وبين حكام البلاد فى أزمانهم الذين كانوا يحكمون باسم الدين والسلطة والسلطان فى أيديهم وحدهم فقد كانوا كل شىء والشعوب المحكومة لاشىء .

والملاحظ اننى تحدثت من قبل عن الشهداء وذكرت من بينهم أبا حنيفة النعمان بن ثابت ، وقد آن الأوان ان اذكر حق القارىء الكريم فى التعرف على عوامل استشهاد هذا الفقيه الكبير ، فالتاريخ يذكر انه لم تكن حياة ابى حنيفة وان طالت الا معركة واحدة سلخ فيها الفكر الانسانى سبعين عاما بين التحضير والتدبير والملحمة ، ولم تكن لبطلها غاية ولاوسيلة الا الحرية والتسامح فى كل أطوارها » .

واننى أرى وأرجو أن يرى القارىء الكريم ماأرى ان العالم الذى يقوم على التسامح هو وحده العالم الجدير بالحياة ، والوجود المنبعث من نفوس حرة هو وحده السبيل الى عمارة الدنيا بالنشاط الفكرى والرخاء المادى حتى يعم السلام ويتبدد العنف الذى يكون عادة وليد الشعور بالعداوة .

وقد قيل ان حبس ابى حنيفة النعمان كان لسبب سياسى وهو تشيعه لـ « محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب » المسمى بـ « النفس الزكية » أو لاخيه ابراهيم ويرد عبدالحليم الجندى فى كتابه : « أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الاسلام المجلس الاعلى للشئون الاسلامية بالقاهرة ، ١٩٦٦ » قائلا :

ان من المسلم ان محمدا وأخاه ابراهيم قتلا فى سنة ١٤٥ هـ حين خرج محمد بالمدينة على ابى جعفر وبعد أن خرج عليه ابراهيم فى البصرة وان كان من المسلم به ان الاجل وافى أبا حنيفة عقب حبسه بأيام فى سنة ١٥٠ هـ فانه يكون عجيبا أن يتشيع أبوحنيفة للموتى بعد إذ ماتوا بخمس سنين . وأعجب منه ان يرتاع رجل شديد البأس قوى المراس ، كأبى جعفر من العطف على ذكريات الموتى .. لو جاز أن يتشيع الناس لهم ذلك التشيع الذى يخرج الفقيه الاعظم عن حكمة السبعين عاما (صعدت روحه الزكية وهو ساجد فى شهر رجب سنة ١٥٠ هـ (انظر صفحة ٢٠٨ وصفحة ٢٢٢) .

وقد جاءت ابا حنيفة الدعوة الى لقاء الله وهو بين يدى الله يصلى وبين يدى التاريخ وهو سجين وبين يدى الفكر الانسانى الداعى الى انسانية الانسان وهو يتلقى العذاب من جرائه .

واخرج من مكان حبسه فحمله خمسة أنفس فأتوا به الى مكان غسله فغسله الحسن بن عمارة قاضى بغداد ، وكان من أصحاب الحديث وزهادهم فلما فرغ من غسله قال :

« رحمك الله لم تفطر منذ ثلاثين سنة ولم تتوسد يمينك بالليل منذ أربعين سنة . كنت أفقهنا وأعبدنا وأجمعنا لخصال الخير وقبرت إذ قبرت الى خير وسنة وأتعبت من بعدك » (المرجع السابق : صفحة ٢٢٢) .

وفى ضوء ماسبق أرجو أن يوافقنى القارىء الكريم على أن أبا حنيفة قد مات فى قضية القضايا : الا وهى قضية الحرية أو قضية القضاء . أو قضية تسخير العلماء فى خدمة

الخلفاء ! فاظهر ان الزهد والعلم ليسا غاية الحياة وانما العمل الذى هو شرط الوجود الانسانى هو الغاية فى الدنيا والوسيلة للآخرة .

وأبدأ حديثى عن « مالك بن أنس » صاحب « الموطأ » بقولة قرأتها للاستاذ الجليل « زكى نجيب محمود » عندما اضطر الى الذهاب بالقرب من مسجد « الليث بن سعد » الفقيه المصرى ، قال زكى نجيب محمود « ويل للمعاصرين من المعاصرين » وذلك لان الليث كان أفقه من مالك إلا أن أصحابه أبوا عليه أن يعترفوا بذلك (لم يقوموا به) .

وقد ذكر المغفور له الشيخ أبوزهرة فى كتابه الشافعى : حياته وعصره ـ آراؤه وفقهه ـ القاهرة دار الفكر العربى ، الطبعة الثانية ، عام ١٩٤٨ ، صفحات ٢٨ و٣٠ » .

« لما بلغ الشافعى ان مالكا تقدس آثاره وثيابه فى بعض البلاد الاسلامية ثارت نفسه ونقد آراء مالك وأعلن الزيف منها وألف كتابا « خلاف مالك » وفى هذا المقام يروى الفخر الرازى : « ان الشافعى انما وضع الكتاب على مالك لأنه بلغه ان بالاندلس قلنسوة لمالك يستقى بها . وكان يقال لهم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون قال مالك . فقال الشافعى : ان مالكا آدمى قد يخطىء ويغلط فصار ذلك داعيا الى الشافعى الى وضع الكتاب على مالك . وكان يقول : كرهت أن أفعل ذلك ولكنى استخرت الله تعالى فيه سنة .. »

وعلى الرغم من عدم ميل « مالك » للنضال فقد امتحن بالسياسة وهى الاعتداء المادى على أمثاله من أصحاب العلم الدينى ، بالضرب على شكل ما ، وبالحبس أحيانا ، فالعلماء الفقهيون فى ذلك العهد يمثلون سلطة الشعب ، راضين أو كارهين ، منتبهين فى وعى أو غير منتبهين لانهم لابد

متحدثون عن الحقوق والواجبات لكل من الحاكمين والمحكومين .. ومن ثم فإن صفحات تاريخ السلطة الشعبية ضد الحكم المستبد الطاغى العنيف المتفرد وهى بذلك صفحات فى تاريخ الحرية الفكرية .

وكان امتحان « مالك » فى الحجاز الذى يبدو انه لم يبرحه طول حياته ، وقد حدث هذا الامتحان فى سنة ١٤٦ هـ على عهد المنصور . اذ الجو كان مكفهرا ، اقصد الجو السياسى ، وكان الناس مهتاجى الاعصاب بما تفعل الدولة الجديدة (الدولة العباسية) فى تثبيت سلطانها والمخالفون ينتهزون الفرص لزعزعة مركزها .

وقد ارتكب محنة مالك العباسيون بتوجيه خليفتهم وبيد عاملهم على المدينة . والخليفة هو المنصور والوالى هو جعفر ابن سلمان .

وكانت نفس مالك تنطوى على ميل للأموية وقد بدرت منه بوادر لسانيه ، فى الثناء على الأمويين بالاندلس ، وكان مالك يحدث بحديث « ليس على مستكره يمين » ومنه أفتى الناس بالخروج مع « محمد الشبه » الذى هو بسبب مافى الجو من تلبد ، و « مالك » رغم كل مداراة للناس لا ينجو من حسد منافس حاقد ينتهز الفرصة ، وكل اولئك مجتمعا يصور سبب المحنة العام ، وظروف إثارتها الخاصة دون قصرها على جزئية واحدة .

وقد جرد مالك من الثياب الا مايستر العورة ، عقابا له ، ثم مد جسمه على الأرض ، وربطه بالحبال تكتيفا ، ووضعت اليدان فى آلة تمسكهما ، وبعد ان مد مالك يديه فى العقابين وضرب بالسياط على الظهر حتى خلع كتفه الامر الذى لم

يستطع معه ان يسوى رداءه ، والملاحظ ان الاثر المعنوى لمثل هذا الصنيع بعالم ، هو مايكون دائما، من أن يخسر بها الطاغية الظالم القاسى وتسوء سيرته حين يعظم المعتدى عليه ويرتفع شأنه وكذلك يقول الاولون انفسهم : أفتى بحق ، وضرب بباطل فكانت هذه السياط عليه حليا حلى بها . (انظر : كتاب امين الخولى « مالك ، تجارب حياة » أعلام العرب رقم ١١ ، وزارة الثقافة والارشاد القومى المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، صفحات ٢٨٤ ـ ٣٠٦) .

ويجدر بى أن اختم هذه الدراسة عن « مالك بن انس » بما سطره يراع الاستاذ الكبير « امين الخولى » تحت عنوان : التجربة الاخيرة ، اذ يقول :

ابا عبدالله .. إمض راضيا مرضيا .

أشفقت من الفتوى ، وكنت اذا سئلت فكأنما أشرف عليك الموت وقد أمضيت عمرك تفتى .. ويشرف عليك الموت كلما سئلت وفزعت من السياط .. ولكن ناشتك السياط على كبره وضعف وقد أحللتهم رغم ماأحلوا بك مما لم تبرأ منه .. حتى أغمضت عينيك بشيبة صالحة .. وثقة صادقة .. شارفت بروحك عفو الله .. وخبرت عوادك الذين سألوك : كيف تجدك ؟ افهم سيعانون من عفو الله مالم يكن فى حساب .

غدوت الى الروضة ورحت .. مصليا متبتلا .. ودارسا متعلما وراويا معلما ، واليوم تغدو الى الروضة مسجى محمولا .. « يصلى عليك » ويشهد الناس لك ـ وصاحب الدعوة خير شاهد ـ انك تأخذ منه ولاترد عليه ..

وفى ثرى « المدينة » الذى اشفقت ان يطأه حافر تركبه لان محمدا ثاو فيه ..

في هذا الثرى اليوم مثواك .. وأكرم به جوارا ..

وفى روضة من رياض الجنة علمت وتعلمت .. فإلى روضة من رياض الجنة ثويت حتى يدعو الخلق داعيها فتلقى ربك وقد أوفيت .

وسلام عليك يوم ولدت .. ويوم مت .. ويوم تبعث حيا .

ومات « مالك بن انس » سنة ١٧٩ هـ ودفن بالبقيع (المرجع السابق : صفحتا ٤٢٦ ـ ٤٢٧) .

والامام الشافعى هو : ابو عبدالله محمد بن ادريس بن العباس ابن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم ابن المطلب بن عبد مناف ، اى انه عربى قرشي هاشمى وطلبى ويلتقى مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى جده عبد مناف .

وقد ولد الامام الشافعى بغزة سنة ١٥٠ هـ وهى نفس السنة التى مات فيها الامام ابو حنيفة كما سبق ان ذكرنا وكان مولده بمدينة غزة من ارض فلسطين . ومات ابوه وهو صغير فانتقلت به امه الى مكة لتحافظ على شرف نسبه .

شب الشافعى فقيرا ضيق العيش وحفظ القرآن الكريم وهو صغير ، واخذ يحفظ الاحاديث النبوية ويكتبها ورحل إلى البادية وعاشر قبيلة « هذيل » قرابة عشر سنين ليأخذ منها قواعد اللغة الربية وكلماتها ، فحفظ الشافعى أشعار هذيل واخبارها وكانت هذيل أفصح العرب قاطبة .

ثم تعلم الشافعى الفقه على يد مسلم بن خالد الزنجى مفتى مكة ونبغ فيه على حداثة سنه واذن له استاذه فى الافتاء ولكن همة الامام الشافعى لم تقنع بما وصل اليه ، إذ بلغته اخبار امام المدينة « مالك رضى الله عنه » وكان ذلك فى

وقت ارتفع فيه اسم مالك فى الآفاق وتناولته الركبان وبلغ شأنا عظيما فى العلم والحديث .

وقد جذبت هذه الاخبار اهتمام الشافعى وعول على الهجرة الى المدينة فى طلب العلم وأعد لذلك عدته بأن استعار كتاب (موطأ مالك) من رجل فى مكة وقرأه وحفظه ثم أخذ خطاب توصية من « أمير مكة » الى « امير المدينة » ليتوسط له عند مالك حتى يقبله تلميذا عنده .

وسافر الشافعى الى المدينة وقابل مالك . ثم أخذ يقرأ ومالك يستزيده فى القراءة وظل معه يروى عنه ويتفقه عليه ويدارسه المسائل التى يفتى فيها الامام الجليل الى أن مات الامام مالك سنة ١٧٩ هـ .

ولم يقعد شرف « نسب » الامام الشافعى عن العمل والسعى فى طلب الرزق ليأكل من كد يمينه وعرق جبينه ، وتصادف ان قدم الى الحجاز أحد ولاة اليمن فحادثه بعض القرشيين فى ان يولى الشافعى على عمل فى اليمن فقبل ورهن الشافعى دارا ليجهز نفسه للسفر ، ثم تولى عملا فى « نجران » ظهر فيه ذكاؤه وعدله وترفعه عن الظلم فرفض التملق والرشوة التى كانت تقدم لمن سبقه من الحكام وكان الامام الشافعى يذم الحكام الظالمين وينقدهم ويذكر ما أعده الله من العقاب للحاكم الظالم ثم ولى على اليمن ومن أعمالها « نجران » ، وال ظالم مستبد فكان الشافعى يأخذ على يديه ويمنع مظالمه أن تصل الى ممن تحت ولايته .

فلما بلغ ذلك والى اليمن ، كتب الى « هارون الرشيد » كتابا يتهم فيه الشافعى بالتشيع لعلى وآل بيته واتهمه بأنه يسعى سرا لنقل الخلافة من العباسيين الى العلويين واتهم معه تسعة آخرين ، وكتب فى الخطاب الى الرشيد (ان تسعة من العلوية تحركوا وأن هاهنا رجلا من ولد شافع المطلبى يعمل بلسانه مالا يقدر عليه المقاتل بسيفه فارسل هارون

الرشيد الى والي اليمن يأمره بأن يحضر أولئك النفر التسعة من العلوية ومعهم الشافعى .

أمر هارون الرشيد بضرب أعناق التسعة ثم جاء دور الشافعى فقال للخليفة : « مهلا ياأمير المؤمنين فانك الداعى وانا المدعو انت القادر على ماتريد منى ولست القادر على ماأريده منك . ياأمير المؤمنين ، ماتقول فى رجلين ، احدهما يرانى أخاه والآخر يرانى عبده ، أيهما أحب الىّ ؟

قال الرشيد : الذى يراك أخاه

قال الشافعى : فذاك انت ياأمير المؤمنين .

قال الرشيد : كيف ذاك ؟

قال الشافعى : ياأمير المؤمنين ، انكم ولد العباس ، وهم ولد على ، ونحن بنو المطلب فأنتم ولد العباس تروننا إخوتكم وهم يروننا عبيدهم .

فانشرح الرشيد لذلك ، وقال للشافعي : يابن ادريس ، كيف علمك بالقرآن ؟ فقال الشافعى : عن أى علومه تسألنى ؟ عن حفظه ؟ فقد حفظته ووعيته بين جنبى ، وعرفت وقفه وابتداءه وناسخه ومنسوخه وليله ونهاره ، ووحشيه وأنسيه ، وما خوطب به العام يراد به الخاص وما خوطب به الخاص يراد به العام .

فقال هارون : فكيف علمك بالنجوم ؟ فقال : انى أعرف منها البرى والبحرى والسهلى والجبلى والمغبق والمصبح وماتجب معرفته .

فقال الرشيد : فكيف علمك بأنساب العرب ؟ فأجاب الشافعى إنى لأعرف أنساب اللئام وانساب الكرام ونسبى

ونسب أمير المؤمنين

قال الرشيد : فهل من موعظة تعظ بها امير المؤمنين ؟ فوعظه بموعظة مؤثرة لطاووس اليماني ، فبكى الرشيد وامر للشافعي بمال كثير وهدايا ففرقها عند الباب . (انظر كتاب سعاد ماهر محمد : مساجد مصر واولياؤها الصالحون الجزء الثاني المجلس الاعلي للشئون الاسلامية ، عام ١٩٧٣ ، صفحات ١٤٠ ـ ١٤٤) .

وفى ضوء وقائع التاريخ ، وفى ضوء بعض ماسبق ، نجد أن الامام الشافعي بدأ دراساته الإولى فى الحجاز درس أولا على « مسلم بن خالد الزنجى » مفتى مكة ثم رحل الى المدينة حيث تفقه على الامام « مالك بن انس » .

واكمل الامام الشافعي دراساته فى العراق ، حيث قدم اليه وهو فى نحو الرابعة والثلاثين من عمره قدمته الاولى واتصل بمحمد بن الحسن الشيباني صاحب ابى حنيفة وناشر مذهبه .

وكان الامام الشافعي كثير الاسفار فى البلاد الاسلامية ليعلم أحوال الناس وأخبارهم وشئونهم الاجتماعية ، فضلا عن طلب الحديث . وقد انتهت أسفاره ورحلاته الى القدوم إلى مصر فى عام ١٩٩ هـ (٨١٤ ـ ٨١٥ ميلادية) وقيل بعد ذلك بسنتين . اى انه مكث فى مصر نحو خمس سنوات وقيل نحو ثلاث سنوات . ولم يزل بمصر ناشرا العلم ملازما للاشتغال بجامع عمرو الى أن تآمر عليه حساده فضربه جمع من السوقه بعد ان انتهى من إلقاء درسه واصيب بضربة شديدة مرض بسببها اياما ثم مات فى يوم الجمعة سلخ رجب سنة اربع ومائتين من الهجرة (٨١٩ ميلادية) وله من العمر نحو أربع وخمسين سنة (انظر كتاب سيد عويس : من ملامح المجتمع المصرى المعاصر : ظاهرة ارسال الرسائل الى

ضريح الامام الشافعي : القاهرة عام ١٩٦٥ ، صفحات ٥٣ ـ ٥٥) .

ولعلنى لا أبعد كثيرا عن الموضوع الذى انا بصدده وقد ذكرت ماجرى بين « الامام الشافعي » وبين « الخليفة هارون الرشيد » ان يسمح لى القارىء الكريم بالحديث عن المؤامرة السياسية الكبرى ، أقصد كما ذكرت فى كتاب (تاريخ الطبري ، الجزء الثامن ، القاهرة ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة منقحة ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، صفحات ٢٨٧ ـ ٢٩٤) تحت عنوان « ذكر الخبر عن ايقاع الرشيد بالبرامكة » والملاحظ ان هذه المؤامرة دبرها الخليفة نفسه أو اشترك فى تدبيرها ليسترد سلطات مغتصبة وليدعم هيبة محتضرة .

والبرامكة أسرة فارسية نابهة ، ظهرت الى ميدان الحوادث بقيام الدولة العباسية وكان عميدها ومؤسس سؤددها « خالد ابن برمك » من كبار الشيعة ولاه المنصور على الموصل وأذربيجان وولى « ابنه يحيى » على أرمينية ، ثم عهد اليه المهدى بتربية ولده الرشيد . فلما ولى الرشيد استوزر يحيى ، وفوض إليه فى مهام الحكم . وكان بنو يحيى وهم : جعفر والفضل ومحمد وموسى جميعا من أولى العزم والنباهة ، فظهروا جميعا بين رجالات الدولة ، وشغلوا أعظم مناصبها . فولى الرشيد جعفر حكومة مصر ثم خراسان ، واستوزر الفضل أخوه من الرضاع ، ثم استزور جعفر وبذلك اجتمعت السلطة كلها فى يد يحيى وولديه . وآلت اليهم مصائر الشئون العامة ، وغلب نفوذ البرامكة على كل نفوذ فى الدولة .

وكان البرامكة أصحاب فضل وجود وذكاء وعزم فلبثوا يديرون شئون الدولة فترة من الزمن (١٧ عاما) وكان نفوذهم

فى ازدهار والدولة على ايديهم فى تقدم وكانت سلطة الخلافة راسخة متمكنة ، ورضى عنهم الشعب المحكوم . ومع ذلك فقد كانت لهم المكانة العليا فى كل ناحية من نواحى الامور سواء كانت عامة أو خاصة ، وكانت الحال التى صار اليها اصحاب السلطة الحقيقية لم تلبث ان اثارت جزع الرشيد وتوجسه . وكان خصومهم لاينقطعون فى نفس الوقت عن الكيد والسعاية فى حقهم ، واحس الرشيد بأن بهاء البرامكة يكاد يغشى بهاءه وسلطانهم يكاد يمحو سلطانه ، وفى ضوء هذه الظروف والعوامل نشأت فكرة تحطيم البرامكة وسحق دولتهم التى كادت ان تكون صنوا للدولة الشرعية بل أقوى .

وكان للخليفة الرشيد اليد الطولى فى تدمير هذا السلطان غير الشرعى ، بل كان روح فكرة هذا التدبير .

والروايات عن نكبة البرامكة فى طوايا التاريخ عديدة منها قصة العباسة ابنة « المهدى واخت الرشيد » ومنها دخول يحيى بن خالد ذات يوم بغير اذن وعنده طبيبه ، ومنها ان الرشيد عهد بيحيى بن عبدالله وهو من ولد على بن ابى طالب وكان قد خرج بالديلم ودعا لنفسه فحاربه جند الرشيد وأسروه - الى جعفر ليسهر على اعتقاله ، فأطلق جعفر سراحه خفية .

واذا رجعنا الى ماذكره « العلامة ابن خلدون » فى هذا الموضوع ، ربما يستحوذ علينا الاقتناع بما ذكر :

« وانما نكب البرامكة ماكان من استبدادهم على الدولة واحتجابهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه فغلبوه على أمره وشاركوه فى سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف فى أمور ملكه ، فعظمت آثارهم وبعد صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم ، فأورث ذلك عند مخدومهم نواشى الغيرة والاستنكاف من

الحجر والانفة ، وكامن الحقود التى بعثتها منهم صغائر الدالة ، وانتهى بها الاصرار على شأنهم الى كبار المخالفة كقصتهم فى يحيى بن عبدالله »

(انظر كتاب : محمد عبدالله عنان ، تاريخ المؤامرات السياسية وتطوراتها الاجتماعية والقانونية ، صفحات : ١٠٨ ـ ١١١) ، (انظر أيضا كتاب : يوحنا اكباريوس ، قطف الزهور فى تاريخ الدهور ، صفحتا ١٠٩ ـ ١١٠)

واستأنف حديثى عن صراع « أحمد بن حنبل » الفكرى الذى قضى عليه كما تقضى على الأئمة ممن سبقوه : أبى حنيفة النعمان ومالك بن انس وابى عبدالله محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف . الذين كعلماء للاسلام قد سجلوا الاسوة الحسنة لمن يأتى من بعدهم ، فقد امتحنوا جميعا من أجل آرائهم .

وقد سجل فى كتاب « تاريخ الطبرى » الذى سبق ان ذكرته فى الحديث عن محنة البرامكة (انظر : صفحات ٦٣١ ـ ٦٤٥) تحت عنوان « ذكر خبر المحنة بالقرآن » وكان ذلك فى عهد « الخليفة المأمون » الذى مكر بأخيه « محمد الامين » على الرغم بما كان اخذ عليه لهما والدهما (الرشيد) من العهود والمواثيق .

وفى عام ٢١٨ هـ كتب الخليفة المأمون الى اسحق بن ابراهيم فى امتحان القضاة والمحدثين ، وأمر بأشخاص جماعة منهم اليه الى « الرقة » وكان ذلك أول كتاب كتب فى ذلك .

وكتب المأمون بعد ذلك الى اسحق بن ابراهيم فى

اشخاص سبعة نفر ، منهم محمد بن سعد كاتب الواقدى ، وابومسلم مستملى يزيد بن هارون ، ويحيى بن معين ، وزهير بن حرب أبوخيثمة ، واسماعيل بن داود ، واسماعيل بن أبى مسعود ، واحمد بن الدورقى ، فأشخصوا ، فامتحنهم وسألهم عن خلق القرآن ، فأجابوا جميعا ان القرآن مخلوق فاشخصهم الى مدينة السلام فأحضرهم اسحق بن ابراهيم داره فشهر أمرهم وقولهم بحضرة الفقهاء والمشايخ من اهل الحديث ، فأقروا بمثل ما أجابوا به المأمون ، فخلى سبيلهم . وكان مافعل من ذلك اسحق بن ابراهيم بأمر المأمون .

وكتب المأمون مرة أخرى الى اسحق بن ابراهيم آمرا آياه بأن يقرأه على جعفر بن عيسى وعبدالرحمن بن اسحاق القاضى ، ويعلمهما ان امير المؤمنين لايستعين على شىء من أمور المسلمين الا بمن وثق باخلاصه وتوحيده ، وانه لاتوحيد لمن لم يقر بأن القرآن مخلوق فان قالا بقول امير المؤمنين فى ذلك ، فتقدم اليهما فى امتحان من يحضر مجالسهما بالشهادات على الحقوق ...

فاحضر اسحق بن ابراهيم لذلك جماعة من الفقهاء والحكام والمحدثين . وأحضر أبا حسان الزيادى وبشر بن الوليد الكندى وعلى بن أبى مقاتل والفضل بن غانم والذيال بن الهيثم وسجادة والقواريرى واحمد بن حنبل وقتيبه وسعدوية الواسطى وعلى بن الجعد واسحق بن أبى اسرائيل وابن الهرش وابن عُليه الاكبر ويحيى بن عبدالرحمن العمرى وشيخا آخر من ولد عمر بن الخطاب ـ كان قاضى الرقة ـ وابانصر التمار وأبا معمر القطيعى ومحمد بن حاتم بن ميمون ومحمد بن نوح المضروب وابن الفرخان ، وجماعة منهم النضر ابن شميل وابن على بن عاصم وابو العوام بن البزاز

وابن شجاع وعبدالرحمن بن اسحق ، فادخلوا جميعا على اسحق ابن ابراهيم ، فقرأ عليهم كتاب المأمون هذا مرتين حتي فهموه ، ثم قال لبشر بن الوليد : ماتقول فى القرآن ؟ فقال : قد عرفت مقالتى لأمير المؤمنين غير مرة ، قال : فقد تجدد من كتاب أمير المؤمنين ماقد ترى ، فقال : أقول : القرآن كلام الله ، قال : لم أسألك عن هذا ، أمخلوق هو ؟ قال : الله خالق كل شيء قال : ما القرآن شيء ؟ قال : هو شيء ، قال : فمخلوق ؟ قال : ليس بخالق قال : ليس أسألك عن هذا ، أمخلوق هو ؟ قال : ماأحسن غير ماقلت لك ، وقد استعهدت امير المؤمنين الا أتكلم فيه ، وليس عندى غير ماقلت . فاخذ اسحق بن ابراهيم رقعة كانت بين يديه فقرأها عليه ، ووقفه عليها فقال : أشهد ان لا إله إلا الله احدا فردا لم يكن قبله شيء ولابعده شيء ، ولايشبه شيء من خلقه فى معنى من المعانى ، ولاوجه من الوجوه ، قال : نعم : وقد كنت أضرب الناس على دون هذا فقال للكاتب : اكتب ماقال ...

ثم دعا اسحق بن ابراهيم « احمد بن حنبل » فقال له : ماتقول فى القرآن ؟ قال : هو كلام الله ، قال : أمخلوق هو ؟ قال : هو كلام الله لاأزيد عليها ، فامتحنه بما فى الرقعة ، فلما أتى على « ليس كمثله شيء » قال : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) وأمسك عن لايشبهه شيء من خلقه فى معنى من المعانى ، ولا وجه من الوجوه . فقال اسحق بن ابراهيم لاحمد بن حنبل : مامعنى قوله : (سميع بصير) ؟ قال : هو كما وصف نفسه ، قال : فما معناه ؟ قال : لاأدرى هو كما وصف نفسه .

وقد ورد كتاب المأمون جواب كتاب اسحق بن ابراهيم فى امر من استجوبهم بعد أن مكثوا تسعة ايام . وقد تضمن

كتاب المأمون ضمن ماتضمن :

« ... واما احمد بن حنبل وماتكتب عنه ، فاعلمه ان امير المؤمنين قد عرف فحوى تلك المقالة وسبيله فيها ، واستدل على جهله وآفته بها »

وفى سنة مائتين وثمان عشرة أعاد اسحق بن ابراهيم القول عليهم الى أن القرآن مخلوق . فأجاب القوم الا أربعة نفر ، منهم احمد بن حنبل وسجادة والقواريرى ومحمد بن نوح المضروب . فأمر به اسحق بن ابراهيم فشدوا فى الحديد ، فلما كان من الغد دعا بهم جميعا يساقون فى الحديد ، فأعاد عليهم المحنة ، فأجابه سجادة الى ان القرآن مخلوق ، فامر باطلاق قيده وخلى سبيله ، وأصر الآخرون على قولهم فلما كان من بعد الغد عاودهم أيضا ، فأعاد عليهم القول ، فأجاب القواريرى الى أن القرآن مخلوق ، فامر بإطلاق قيده وخلى سبيله وأصر احمد بن حنبل ومحمد بن نوح على قولهما ، ولم يرجعا ، فشدا جميعا فى الحديد ، ووجها الى طرسوس . وهكذا كان من نصيب احمد بن حنبل ان يذوق بعض الموت فى خلق القرآن ، دفاعا عن فكره واصراره على رأيه فى قضية أثارها الخليفة دون مامبرر . ولكن يبدو لى أن الاذى الذى يصدر عن الطغاة هو الغذاء المستمر لمواهب الرجل الحر .

ومن الملاحظ اننا نجد فى ضوء حقائق التاريخ قد حكم مصر منذ عام ٥٢٥ ق . م حتى عام ١٩٥٣ ميلادية حكام أجانب . وقد انقرضوا جميعا وبقيت مصر الخالدة لاتزال ، انقرضت دولة اليونان ثم دولة الرومان التى اقامت البلاد تحت تصرف حكامهم نحو بسبع مائة سنة فكانت تحسب ولاية من الولايات الرومانية ، وفى ذروة الاضطهاد الوثنى كما سبق أن

ذكرت بقيت مصر المسيحية صامدة حتى فتحها « عمرو بن العاص » في خلافة « عمر بن الخطاب » سنة ٦٤٠ ميلادية وتولى بعد عزله غيره من العمال الى ان انتهت خلافة الخلفاء الراشدين (وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى) الى بنى امية . فكانوا يرسلون لها عمالا من طرفهم مدة خلافتهم ، وكانوا يسمون كما ذكرت من قبل عمال خراج مصر ، ثم جاءت بعدهم الدولة العباسية واستمرت تابعة لها الى سنة ٨٦٨ ميلادية حينما قام فيها « احمد بن طولون » وصار سلطانا ، وخلفته ذريته من بعده واستمر الحكم فى ايديهم ٣٨ سنة ، وانقرضت الدولة الطولونية بعد حدوث فتن عندما عصاه ابنه العباس ـ وقد نصح احمد بن طولون وليه فلم يذعن ، وانتهى الامر بقتل عدد كبير من اتباع العباس الذى شاهد مقتلهم وتعذيبهم على يد ابن طولون ، ثم حبس العباس بأمر أبيه ، وظل فى الحبس حتى مات (فى عهد اخيه خمارويه) . وفى عهد « خمارويه » تزوجت ابنته « قطر الندى » من ابن الخليفة العباسى ولكن الخليفة المعتضد اختارها لنفسه . وكان الاسراف فى جهاز العروس داعيا الى افقار خمارويه وحكومة مصر ، وقد قتل بدمشق .

وبعد سقوط الطولونيين سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٥ م) عادت مصر الى التبعية المطلقة للعباسيين ولكن الوالى اصبح من الضعف بحيث استبد به الجند . ولم تستفد مصر فى خلال الفترة التى تلت سقوط الطولونيين حتى وليها الاخشيديون . واستمرت هذه الدولة فى خلال الفترة ٣٢٣ ـ ٣٥٨ هـ = ٩٤٣ ـ ٩٦٩ ميلادية . وأسس الدولة الاخشيدية « محمد ابو بكر بن طغج » وعهد « الخليفة المتقى » لابن طغج بولاية مصر سنة ٣٢٣ هـ ـ ٩٣٥ ميلادية . على أثر انتصاره على

الفاطميين حين حاولوا غزو الديار المصرية سنة ٣٢١ هـ . ومن الغريب ولا غرابة فى ذلك ان علاقة الاخشيد بالفاطميين فى المغرب قد تجلت فى الحملات التى بعث بها الخلفاء الفاطميون لأخذ مصر وجعلها مقر خلافة فاطمية وطلبوا اليه نشر الدعوة الفاطمية فى مصر !

وقد اشترى محمد بن طغج الأخشيد « كافورا » الذى كان مجرد مملوك دميم الخلقة . وحكم كافور مصر فى خلال الفترة ٣٥٥ ـ ٣٥٧ هـ ـ ٩٦٦ = ٩٦٨ ميلادية .

ويكفينى أن اذكر بهذه المناسبة قصيدة الشاعر « ابو الطيب المتنبى » أشعر شعراء عصره ومنها :

عيد باية حال عدت ياعيد	بما مضى ام لامر فيك تجديد
جود الرجال من الايدى وجودهم	من اللسان فلا كانوا ولا الجود
لاتشتر العبد الا والعصا معه	ان العبيد لانجاس مناكيد
من علم الاسود المخصى مكرمة	اقوامه البيض ام اباؤه الصيد
من كل رخو وكاء البطن منفتق	لا فى الرجال ولا السنوان ومدود
اكلما اغتال عبدالسوء سيده	او خانه فله فى مصر تمهيد
صار الخصى إمام الابقين بها	فالحر مستعبد والعبد معبود
العبد ليس لحر صالح باخ	لو انه فى ثياب الخز مولود
ماكنت احسبنى احيا الى زمن	يسىء بى فيه كلب وهو محمود

(انظر كتاب : على ابراهيم حسن ، « مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى الى الفتح العثمانى ، القاهرة مكتبة النهضة ، الطبعة الخامسة ، ١٩٦٤ ، صفحات ٦٥ ـ ٩٨)

واستولت الدولة الفاطمية (٣٥٨ ـ ٥٦٧ هـ ٩٦٩ ـ ١٧٧١ ميلادية) على الديار المصرية بعد اشعال المؤامرات وانتشار المجاعة فى البلاد ، ومكث خلفاؤهم حوالى ١٩٩ عاما حاولوا

فى خلالها نشر الدعوة الشيعية ، ولكنهم ما أن انقرضوا وذهب ريحهم حتى عاد المصريون الى المذهب السنى كما كانوا منذ عام ٦٤٠ ميلادية . وكان عدد هؤلاء الخلفاء اربعة عشر نفرا منهم ثلاثة انفار ظهروا وماتوا فى بلاد المغرب واحد عشر بمصر ، وأول الاخيرين المعز لدين الله بن المهدى عبيد الله المغربى . ومن هؤلاء الخلفاء « الحاكم بأمر الله » وهو الخليفة الثالث .

ولى « الحاكم بأمر الله » الخلافة حدثا دون الثامنة عشرة . وكان مولده بالقصر الفاطمى بالقاهرة المعزية فى الرابع والعشرين من ربيع الاول سنه ٣٧٥ هـ (١٤ من شهر اغسطس سنة ٩٨٥ ميلادية) وامه أم ولد ، وقد كانت حسبما تقول الرواية الكنسية المعاصرة جارية رومية نصرانية من طائفة الملكية (الاقباط الكاثوليك) وكان لها أيام « العزيز » (ابى الحاكم بأمر الله) نفوذ عظيم فى الدولة ، وكان لهذا النفوذ أثره ولاريب فى سياسة التسامح الواضح التى اتبعها العزيز نحو النصارى وفى تقوية جانبهم ونفوذهم .

ومنح « الخليفة العزيز » ولاية عهده لابنه الحاكم منذ كان طفلا فى الثامنة (شعبان سنة ٣٨٣ هـ) وبويع بالخلافة فى « بلبيس » يوم وفاة أبيه : واوصى الخليفة العزيز قبل موته بولده ثلاثة من أكابر رجال الدولة هم : برجوان الصقلبى خادمه وكبير خزائنه ، والحسن بن عمار الكتامى زعيم كتامة أقوى القبائل المغربية وعماد الدولة الفاطمية منذ نشأتها ، ومحمد بن النعمان قاضى القضاة !!

وكانت أم الحاكم ، تشهد ولدها ينمو ويترعرع فى ظل هذه الوصاية .. الخطرة حيث كان التنافس بين الاوصياء يبدو

صراعا على السلطة .. وانتصر « برجوان » على منافسيه أو بالاحرى على مصارعيه . واستمر يعامل الحاكم (الذى أشرف على الخامسة عشرة) معاملة الطفل المحجور عليه . ومن ثم اضمر الحاكم التخلص منه اى من برجوان الوصى الطاغية . ودبر مكيدة أودت بحياة « برجوان » حيث أوعز لبعض مخلصيه فانقضوا عليه طعنا بالخناجر واجتزوا رأسه ودفنوه حيث قتل (ربيع الثانى سنة ٣٩٠ هـ - ابريل سنة ٩٩٩ ميلادية)

وكان الحاكم بأمر الله صبيا فى نحو السادسة عشر حينما بدأ يضطلع بمهام الدولة . وعلى الرغم من صغر سنه فانه كان حاكما حقيقيا يقبض على السلطة بيديه القويتين . وتقدم الرواية الاسلامية الينا الحاكم فى صور مروعة مثيرة . وقلما كان يغادر الحكم وزير أو كبير من كبراء الدولة إلا مسفوك الدم وفى الاحوال النادرة التى كان ينجو المعزول فيها بحياته ، كانت تلازمه نقمة الحاكم حتى يهلك . ومن حوادث القتل والسفك التى أمعن فيها الحاكم : فى سنة ٣٩٩ هـ قبض الحاكم على جماعة كبيرة من الغلمان والكتاب والخدم الصقالبة بالقصر ، وقطعت أيديهم من وسط الذراع ثم قتلوا . وهكذا استمر الحاكم فى الفتك بالزعماء ورجال الدولة والكتاب والعلماء حتى أباد معظمهم ، هذا عدا من قتل من الكافة فى خلال هذه الأعوام الرهيبة وهنا نجد اوضح مثال للارهاب فى نظر الحاكم كوسيلة للحكم ، وكان القتل المنظم دعامة هذا الارهاب الشامل . فاذا زعيم أو رجل من رجال الدولة وصل الى مدى خطر من السلطان والنفوذ ، فان القتل أنجح وسيلة لسحقه وسحق نفوذه ، واذا بدرت من فريق من الناس بادرة تذمر أو تمرد على أمر من الاوامر أو قانون من القوانين ، فإن ازهاق عدد منهم يكفل عودهم الى السكينة والخنوع . وكانت

هذه السياسة ال... ...حيط الحاكم بسياج منيع من الرهبة .

ولعلني اذ اذكر للقارىء الكريم أنى لا أبرر شيئا من اجراءات الحاكم بأمر الله وتصرفاته الدموية ، اذا لاحظنا فى عصرنا الراهن وفى أرقى الامم ، اقصد الامم المتقدمة غربية كانت أو شرقية واذا لاحظنا مايحدث فى الامم المتخلفة بانواعها ـ انها فى الاغلب الامم تعتمد على النظم الطاغية حيث ترتكب المذابح باستعمال أحدث الوسائل المدمرة باسم سلامة الدولة وسلامة النظم القائمة (لعل مايحدث فى العراق وايران وفى اسرائيل وفى معظم بقاع المعمورة فى زماننا الحالى خير دليل وشاهد على ما أقول) .

(انظر كتاب محمد عبدالله عنان : « الحاكم بأمر الله واسرار الدعوة الفاطمية ، القاهرة مارس سنة ١٩٣٧ ،صفحات ٤١ ـ ٥٨) .

واختفى الحاكم بامر الله ، أو فى قول آخر قتل ، وكان ذلك سنة ٤١١ هـ ٩٩٦ ميلادية ويرجع ذلك الى أن الحاكم وقع تحت تأثير جماعة من النفعيين أقنعوه بأن روح الله قد حلت فى جسده حتى أمر الناس بعبادته . وقد حاولت اخته « ست الملك » أن ترد أخاها الى الصواب فلم تستطع ونظرت الى الدولة فوجدت الشعب متذمرا والحكم منحلا ، والدولة مشرفة على الانهيار ، وقد اختلفت الروايات فى كيفية قتل الحاكم بأمر الله ، ولكن يقال ان اخته ست الملك كانت لها يد فى قتله .

(انظر كتاب : « مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى الى الفتح العثمانى » صفحتى ١٤٣ ـ ١٤٤)

وعبر القرون فى عهد المماليك البحرية (١٢٥٠ ـ ١٣٨٤ ميلادية) والمماليك البرجية (١٣٨٢ ـ ١٥١٧ ميلادية)

مرورا بالفتح العثمانى فى عام ١٥١٧ وحتى مذبحة القلعة فى يوم ٢ من شهر مارس عام ١٨١١ ميلادية ، كانت اعمال العنف سائدة وكان معظمها بين الحكام بعضهم البعض ، ومع ذلك فان حكمهم كان قاسيا جافيا من غير قاعدة وكانوا يظلمون الرعية ولايبالون بنجاح البلاد . واستمروا فى الظلم والطغيان الى سنة ١٧٩٨ ميلادية حين حضر « نابليون بونابرت » بأربعين ألفا من الجيوش الفرنسية الى مصر وقهرهم وفرقهم فى اقطار الصعيد والحجاز ، واستمرت احكام البلاد فى قبضته مدة ثلاث سنوات الى ان استخلصتها الدولة العثمانية (بالاتحاد مع الانجليز) سنة ١٨٠١ ميلادية واقامت عليها واليا وبقيت على تلك الحالة نحو ثلاث سنوات حتى تولى عليها « محمد على » وتسلم مقادير حكم البلاد فى عام ١٨٠٥ ميلادية .

وبعد أن استتب الحكم محمد على ، اى فى عام ١٨١١ ميلادية ، اقام حفلة لتناول القهوة فى سراى القلعة احتفالا بخروج « طوسون باشا بن محمد على باشا » لمقاتلة الارهابيين فى شبه جزيرة العرب ، وغدر محمد على بقتل من حضر من هؤلاء المماليك بقصد تصفيتهم حيث كان يرى أنهم اعداؤه الحقيقيون وكان عدد من من قتل فى هذه المذبحة مايربو على أربعمائة مملوك ، ولم يكتف محمد على بذلك بل قطع دابر كل من وقف فى وجهه حتى الذين ساندوه من المصريين وعلى رأسهم « عمر مكرم »

وقد علق « الجبرتى » على هذه المذبحة ذاكرا :

« وختم الله للجميع (من ذبحوا) بالخير ! فإنه بلغنى ممن عاينهم بالحبوس ، وفى حالة القتل ، انهم كانوا يقرأون القرآن ، وينطقون بالشهادتين والاستغفار ، وبعضهم طلب ماء

وتوضأ وصلى ركعتين قبل ان يرمى عنقه . ومن لم يجد تيمم »

(انظر كتاب : عبدالرحمن الجبرتى : تاريخ الجبرتى » القاهرة مطابع الشعب ، الجزء السابع ، عام ١٩٥٩ ، صفحة ٨١٤) .

والملاحظ انه فى ضوء تاريخ المجتمع المصرى الحديث والمعاصر نجد بعض الايام التى غيرت الى حد كبير وجه تطور هذا المجتمع ، ومن هذه الايام حادثة الاسكندرية فى ١١ من شهر يونيو عام ١٨٨٢ (هزيمة الثورة العرابية) ويوم ٤ من شهر فبراير عام ١٩٤٢ (الذى هدد فيه الملك فاروق بالتنازل عن العرش) ويوم ٢٦ من شهر يناير عام ١٩٥٢ (الذى احترقت فيه مدينة القاهرة) .

وكان حريق القاهرة فى يوم ٢٦ من شهر يناير عام ١٩٥٢ حادثا بالغ الخطورة فى مجال التآمر على الشعب المصرى ، فقد كانت الحركة الوطنية المصرية فى ذلك الحين مشتعلة ضد الاحتلال الانجليزى ، وكان الفدائيون المصريون يحيلون معسكرات الانجليز فى القنال الى جحيم ، وكانت حكومة « النحاس » قد أعلنت إلغاء معاهدة عام ١٩٣٦ ووقفت فى وجه الاحتلال موقفا وطنيا صريحا . من هنا بدأت المؤامرة لتصفية حركة الفدائيين ، ولاشعال فتنة طائفية بين المسلمين والمسيحيين المصريين كان ابراهيم فرج الوزير المسيحى فى وزارة الوفد قد رفض الاستقالة على الرغم من طلب بعض المسيحيين المصريين المتعصبين بايعاز من المستعمر الانجليزى ، ذلك منه وانتهى الحريق الى جانب ما أحدثه من خسائر اقتصادية فادحة وخسائر أخرى فى الارواح الى اسقاط الحكم الوطني بالفعل وإقالة وزارة النحاس بعد يوم واحد من الحريق ، ثم محاولة فرض حكم ارهابى على الشعب

لتنفيذ خطط الاستعمار والملك فاروق ، وانتهى الامر كله فى العام نفسه بقيام ثورة ٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ .

وقد كنت فى مدينة لندن عندما احترقت مدينة القاهرة فى يوم ٢٦ من شهر يناير عام ١٩٥٢ . وكنت أقرأ عن هذا الحادث الرهيب وماحدث بعده من حوادث فى جرائد لندن المختلفة الاتجاهات . واننى اذكر انه عندما تولى « على ماهر » الوزارة بعد اقالة « النحاس » اننى قرأت فى احدى الصحف « مانشت » يملأ نصف الصفحة الاولى يصفه « على ماهر » بـ « رجل الساعة » .

ويقول « محمد أنيس » فى كتابه « حوادث القاهرة » بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر شهر سبتمبر عام ١٩٧٢ مايلى :

. ان الاستعمار الانجليزى وبه « مخابراته » معروف بالتجائه الى مثل هذه الاساليب من حرق وقتل واتخاذها ذريعة لاحداث ثورة مضادة واخماد الحركة الوطنية ومن المسلم به تماما ان مصر عاشت فترة الثورة المضادة (القصيرة الان) منذ يوم ٢٦ من شهر يناير عام ١٩٥٢ حتى يوم ٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ .

وجدير بالذكر ان بيانات « الضباط الاحرار » عقب حريق القاهرة فى يوم ٢٦ من شهر يناير كانت تتضمن فى تحليلها « ان الانجليز والمخابرات الانجليزية » بصفة خاصة هى التى تقف وراء الحريق ... (انظر صفحتى : ٥٢ و٥٣) .

وقبل أن أختم الموضوع الذى اهتمت به هذه الدراسة عن « بعض المؤامرات السياسية » وبخاصة بعد حدوث بعض الوقائع الخطيرة التى كادت تؤدى بالقتل والدمار للسادة :

اللواء حسن أبوباشا واللواء محمد النبوى اسماعيل والصحفي الكبير الاستاذ مكرم محمد احمد - اجد انه من واجبى أن أدلى بدلوى فى موضوع الجرائم التى ارتكبت تحت تأثير المعتقدات الدينية . اننى لن أتحدث عن الوقائع الخطيرة السابقة فهى فى يد القضاء ولايمكن أن أتجاسر وأخوض فيها أو فى وقائعها حتى يقول القضاء كلمته .

ولكننى اهتم فى هذه الدراسة من الوجهة الاجتماعية بجماعتى « الفنية العسكرية » و « التكفير والهجرة » اللتين قد تم البت فيهما قضائيا فعلا وحقا وأرجو أن أن يعذرنى القارىء الكريم إذ انني لن أتحدث عن « تنظيم الجهاد » الذى صرع بعض أعضائه الرئيس انور السادات وآخرين فى يوم ٦ من شهر اكتوبر عام ١٩٨١ ، وذلك لأن المعلومات عن هذا الحادث لا أعرف عنها شيئا لأنها ليست في متناول يدى بدافع السرية التى فرضتها السلطات الرسمية عليها .

ومع ذلك فانه كان من حظى أن أشترك فى احدى الندوات التى قامت باعدادها وحدة من وحدات المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية فى عام ١٩٨٠ عن « الحركات الاجتماعية المتطرفة » فاننى اذكر ان تقرير هذه الندوة قد تبين ان الجماعتين من أولى الجماعات التي وصل فيها العنف الدينى الى أقصاه فلقد ذهب ضحية هذا العنف فى « قضية الفنية العسكرية » نحو أربعة عشر فردا من طلبة وحرس الكلية الفنية العسكرية . ويبدو هذا العنف ايضا جليا فى قتل « الشيخ محمد حسين الذهبى » فى قضية « التكفير والهجرة » .

وقد تبين أن لأعضاء « جماعة الفنية العسكرية » صفات مشتركة تتمثل فى ان عددا كبيرا منهم فى مرحلة الشباب ،

وان القلة القليلة منهم قد تجاوزت هذه المرحلة . وتبين ايضا ان اغلبيتهم من الطلبة الملحقين بمراحل التعليم الجامعى والعسكرى ، وان عددا قليلا منهم ملتحقون بمراحل التعليم المتوسط ، وان القلة القليلة غير ملتحقين بالتعليم وان كانوا يتمتعون بقدر لابأس به من الاستيعاب لمبادىء التعليم وقد تبين كذلك ان اعضاء الجماعة الملتحقين بمراحل التعليم العالى من المتفوقين .

اما « جماعة التكفير والهجرة » فاعضاؤها ممن لم يتجاوزوا مرحلة الشباب وتبين أن مستوياتهم التعليمية فى نطاق مرحلتى التعليم الجامعى والمتوسط ، وانه لايوجد بينهم اميون ويتميز أعضاء هذه الجماعة بوجود روابط قربى أو مصاهرة أو جيرة أو زمالة سابقة بينهم وقد أسهمت هذه الروابط فى توثيق روابط العقيدة وفى تجنب المخاطرة فى تجنيد أشخاص غرباء لاتكتمل عوامل الثقة بهم .

ويشترك أعضاء جماعة « الفنية العسكرية » فى الاهتمام والاستزادة من الثقافة الدينية معتمدين فى ذلك على الكتب والمجلات الدينية الشائعة ، وخاصة مايصدر منها عن المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ومجمع البحوث الاسلامية وبعض الكتابات الدينية الأخرى ككتابات « ابو الاعلى المودودى » فضلا عن الخطب التى تلقى ببعض المساجد والمناقشات الدينية التى تتم فى رحابها ، وخاصة ماتعلق عنها بنقد الاحوال الاجتماعية والسياسية للمسلمين (حكومات وشعوبا) والمطالبة باصلاحها .

وقد نشىء اعضاء جماعة « التكفير والهجرة » فى بيئات تتسم بالالتزام الدينى أصلا . ويتمتعون بقدر من الثقافة الدينية ، وهم يهتمون ثقافيا ودينيا ، فى دعم العقائد والاحكام

التى تؤيد فكر جماعتهم الذى يتضمن ضمن مايتضمن الحماسة بالآيات والاحاديث التى تدعو الى الجهاد وتكفير من يعارض هذا الفكر . وتراهم يدعون الى الانعزال عن المجتمعات الراهنة لانهم يرفضون أنظمتها وتشريعاتها . وتلعب المناقشات بين اعضائها فضلا عن التوجيهات التى تصدر من « أمراء » الجماعة ، دورا ملموسا فى بلورة فكر أعضاء هذه الجماعة وفى تكوينهم الثقافى . ومن ثم نجد المسئولين عن هذه الجماعة يوصون أعضاءها بترك الكليات والمعاهد التى ينتمون اليها بحجة عدم جدوى مايتلقون فيها من علوم فضلا عن مخالفتها لأحكام الدين . وهم اى أعضاء هذه الجماعة يقرأون أيضا الكتب والمجلات الدينية الشائعة ، وبوجه خاص تراهم يقبلون على مؤلفات « ابو الاعلى المودودى » .

ويبرر احد امراء « جماعة الفنية العسكرية » مااتخذته الجماعة من وسائل العنف الذى اتبعه اعضاء هذه الجماعة بأن الحوار مع السلطة كان قد فشل ويرجع ذلك الى أن الذى كان يدير هذا الحوار ضباط الشرطة ، ويتساءل الأمير قائلا : كيف يأتى اللقاء الفكرى بين عقلية ضباط الشرطة اى عقلية الموظف الروتينى السلطوى وبين عقلية المفكر المثقف العقائدى ؟ ثم اكمل حديثه قائلا : ان الجماعة (جماعة الفنية العسكرية) تطرح هذا التساؤل لتثبيت أن هدفها لم يكن العنف وانما هو توصيل الامانة (يقصد الدين الاسلامى) الى الناس وانها ليست مجموعة من الشباب المضلل أو المغرور الذى ينساق وراء شخص معين نجح فى الاستخفاف بها ! ودلالة ذلك ، كما يقول هذا الامير ، وجود المد الاسلامى رغم ان حسن البنا وسيد قطب وصالح سرية وشكرى قد قتلوا

وانتهوا ويكرر قائلا : خلاصة القول ان فشل الحوار مع السلطة أدى بالجماعة الى العمل « تحت الارض » والى استخدام العنف كبديل لحرية الكلمة وللوصول المعلن .

وارجو من القارىء الكريم أن اقف عند هذا الحد ، وارجو أن اكون قد ابرزت فيما ذكرت بعض الملامح الموضوعية التى وصل فيها العنف الدينى ، من وجهة النظرة الاجتماعية إلى اقصاه في نطاق « جماعة الفنية العسكرية » .

وانني اذكر انه عندما ظهرت « جماعة التكفير والهجرة » فى المجتمع المصرى ظننت ان التاريخ يعيد نفسه وهذا ما لااعتقده ، ظننت أن الاضطهاد الوثنى الذى نكب به المصريون المسيحيون فى خلال الفترة من عام ٢٨٤ ـ ٣١٣ ميلادية واضطرهم الى الفرار بعقيدتهم الى الصحراء (وقد ذكرت ذلك من قبل) وكانت فيافى مصر وقفارها حصنا أمينا وملاذا لهؤلاء الفارين بعد أن ضاقت عليهم الارض بما رحبت . ولكنى وانا المسلم الذى أخبر عن جده « سيدى عويس القرنى » أو « سيدى أويس القرنى » النبى صلى الله عليه وسلم سيدنا عمر بن الخطاب بأنه سيظهر فى زمانه اى فى زمان سيدنا عمر ، فاطلب منه أن يدعو لى . وظهر هذا الجد الاكبر لى ودعا للنبى صلى الله عليه وسلم (كما ذكر لى جدى لأبى) .. اللهم آت محمدا الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وابعثه مكانا محمودا الذى وعدته .

ومن ثم فاننى استبعدت أن تكون « جماعة التكفير » التى يكفر أعضاؤها المسلمين من الناس فى المجتمع ويفرون الى الصحراء قد فعلوا « أو يفعلون » ما فعله أجدادنا المصريون المسيحيون من قبل وقلت لعل هذه الجماعة احدى الفرق الاسلامية المتطرفة وقد تأكد لى ذلك عندما استعملوا العنف

بألوانه فى قتل احد رجال الازهر ، أقصد « الشيخ محمد حسين الذهبى » .

وليعذر لى القارىء الكريم اذا اكتفيت بالحديث عن فكر هذه الجماعة فيما يلى :

ـ تضع الجماعة قاعدة خطيرة تزعم فيها ان أية معصية يقع فيها المسلم هى بمثابة وقوع فى الشرك . وفى رأيها ان المعاصى شرك بالله تعالى ويتساوى فى ذلك عند أعضائها أى معصية سواء أكانت صغيرة أم كبيرة فكلاهما شرك بالله تعالى .

ويدعى اعضاء الجماعة ان عدم أداء طاعة واحدة مفروضة تسقط بقية الطاعات الأخرى التى يؤديها المسلم ، إذ لابد أن تؤدى جميع الطاعات المفروضة مجتمعة والا فكأنها لم تكن . ويقولون ان الاسلام ربط الطاعات المفروضة كشرط فيه . ففريضة الصلاة والزكاة والحج وفريضة الجهاد والتوكل على الله وكذلك فريضة اكرام الضيف واكرام الجار (لم تذكر فريضة صوم شهر رمضان المعظم) .. كل هذه الطاعات المفروضة شرط فى الاسلام وغياب اى طاعة منها محبط للجميع وكأنها لم تكن .

ـ وتقول الجماعة ان الاصرار على معصية واحدة كفر بالله العظيم ومحبط لكل أعمال البر وإن كانت كجبال تهامة

ـ تحكم الجماعة بالكفر على كل مسلم تبلغه دعوتهم ثم لاينضم اليهم .

ـ وقد وصل الامر بالجماعة ان رفضوا الاقرار بأن الامامين مسلم والبخارى من المسلمين وذلك ماتعتقده الجماعة ان مدار نقل الخبر ـ أى خبر ـ يبنى على الصدق وليس على الاسلام .

ـ وترى الجماعة ان الكافر أصل الحكم فيه انه حلال الدم والمال والعرض وان الكافرين مستحقون للقتل سواء أكانوا جماعة أم أفرادا .

وفى صدد الحديث عن الهجرة نجد أن جماعة « التكفير والهجرة » تدعى أن أرض مصر هى أرض كفر وأرض حرب . وانه تجب الهجرة منها الى الجبال والكهوف للاعداد لمقاتلة أهلها من أجل اقامة الاسلام أى ان خطة الجماعة تتمثل فى ضرورة الهجرة ثم يبدأ القتال دفاعيا ثم هجوميا تبعا للواقع . اما الدليل الذى تعتمد عليه الجماعة فى ضرورة وجوب هذه الهجرة فهو قوله تعالى :

« ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيما كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الارض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا » (٤ م سورة النساء : آية رقم ٩٧)

وهم أى اعضاء جماعة التكفير والهجرة يرون ان هذه الآية تعنى أن وجود الانسان فى ارض الكفار يدفعه الى الوقوع فى المعصية وممارسة الفحشاء فيكون مأواه جهنم . ولهذا فان الهجرة واجبة عليه تجنبا لذلك .

(انظر كتاب : حامد حسان وآخرون : « مواجهة الفكر المتطرف فى الاسلام : مناقشة موضوعية لافكار جماعة التكفير والهجرة من واقع سجلات المحكمة » ، (الطبعة الثانية) القاهرة ، مطبعة الجبلاوى ، عام ١٩٨٠ ، صفحات ٢٠ ـ ٢٢ و٤١) .

العمل من اجل السلام

١٢ - دور القادة الثقافيين :

يقصد بالقادة الثقافيين فى الدراسة الحالية اعضاء المجتمع .. أى مجتمع الذين يؤهلون تأهيلا مقصودا لكى يؤدوا دورهم أو أدوارهم الثقافية في هذا المجتمع . اى الذين اتخذوا العمل الثقافى (بمعناه العلمى) مهنة لهم فى المجتمع الذى يعيشون فيه والملاحظ ان هؤلاء القادة هم بعض اعضاء المجتمع الذين يعملون بالضرورة من اجل اعضائه وبهم ، والملاحظ ايضا ان ميادين العمل الثقافى فى المجتمع تكون ، بالضرورة ، أيضا ميادين شتى . واهم هذه الميادين هى ميادين الاعلام والخدمة الاجتماعية والوعظ الدينى والتعليم والتربية . فالصحفي والاذاعى ومن يعمل في مجالات التليفزيون والمسرح والشاشة الكبيرة هم من القادة الثقافيين والاخصائى الاجتماعى الذى يعمل فى ميادين الخدمة الاجتماعية العديدة ومجالاتها ، وامام المسجد وواعظ الكنيسة ومن فى حكمهما ، والمدرس والمربى هم ايضا من القادة الثقافيين ان كل هؤلاء من اعضاء المجتمع الذين يؤهلهم هذا المجتمع تأهيلا مقصودا لكى يؤدوا دورهم أو

أدوارهم الثقافية فيه . اى الذين قد يسمون أحيانا « بالعقلانيين » وأحيانا أخوى « بالانتليجنسيا » واحيانا ثالثة « بالمفكرين » الذين يعملون بالقلم أو ما فى حكمه بعقولهم وبأحاسيسهم ووجدانهم وخيالاتهم أكثر من أيديهم وفنوسهم هم حملة الاقلام وهم الممثلون والاذاعيون وهم حملة الفرشاة من الفنانين ومن هؤلاء أقصد الفنانين نجد الفنانين التشكيليين والمصورين والفنانين الموسيقين وغيرهم وغيرهم .

والقادة الثقافيون فى المجتمع .. اى مجتمع الذين ذكرتهم ليسوا بالضرورة هم القادة الثقافيون الوحيدون فى هذا لمجتمع إنهم بعض القادة الثقافيين فحسب . فالآباء والامهات ورجال الحكم والرؤساء وكبار السن في المجتمع وبخاصة فى الريف ، ورجال الطرق الصوفية وأمثالهم هم أيضا قادة ثقافيون أو هم فى الاغلب الأعم فى حكم هؤلاء القادة (بالمعنى العام) ومع ذلك فأننى أولى اهتماما كبيرا بالقادة الثقافيين الذين اتخذوا العمل الثقافى مهنة لهم . فهم عندى القدوة التى يجب أن تكون حسنة وهم اذا كانوا صادقين أقصد أعمالهم تكون صادقة نتوقع التعرف على الواقع الراهن ، بحلوه ومره ،كما نتوقع التعرف على المستقبل القريب أو البعيد ولايعنى هذا عندى اننى لا أهتم بالأخيرين . فالاخيرون وخصوصا رجال الحكم منهم لاهميتهم القصوى يجب أن يكونوا مجالات بشرية لدراسة أو دراسات خاصة .

ومهما يكن من الامر فالملاحظ أن فئة القادة الثقافيين فى المجتمع .. اى المجتمع .. فئة تؤدى بالضرورة واجبات خطيرة فى هذا المجتمع . فأعضاؤها هم ، كما سبق ان اوضحت فى حقيقة الامر ، الذي يقودون كل مايعمل فى

المجتمع ومن يعمله وكل مايقال فيه ومن يقوله ، وكل مايصنع فيه ومن يصنعه ، ويحددون وقت حدوث هذا العمل وهذا القول وهذه الصناعة كما يحددون الظروف التى تحدث فى ظلها اى هم فى حقيقة الامر بعض رموز النظام الاجتماعى فى المجتمع ، وهم أيضا لسان حاله . وهم بفضل ذلك يكونون جزءا من شخصيات أعضاء المجتمع الذى يعيشون فيه ويعملون اذا كانوا صادقين من أجل أعضائه وبهم . (انظر كتاب : سيد عويس : « عطاء المعدمين : نظرة القادة الثقافيين المصريين نحو ظاهرة الموت ونحو الموتى » بيروت ، ١٩٧٣ ، صفحة ١٥٦)

واذا درسنا المهام التى يجب على القادة الثقافيين المصريين أن يأخذوها على عاتقهم كواجب أو واجبات من الضرورة أن يقوموا بها من اجل مصر وبخاصة فى الوقت الراهن ، فاننى اتساءل ومن حق القارىء أن يتساءل كما اتساءل : هل هذه المهام تعنى مواجهة المشاكل العديدة التى تواجهها البلاد وبخاصة المشاكل الاقتصادية التى تواكبها عادة مشاكل اجتماعية وثقافية وسياسية وتحتاج الى حلول تتفق مع ظروف المجتمع المصرى النامى مع تميزه حيث انه مجتمع له أصالة ومراحل تاريخية لاينكرها إلا مكابر ـ هل هذه المهام تعنى أن المناخ الاجتماعى لهذا المجتمع يجب أن يتغير تغيرا مقصودا ؟ (يقصد بمفهوم « المناخ الاجتماعى » السمات العامة للاتجاهات الاجتماعية الشائعة وخصوصا تلك التى ثبتت منها نسبيا ، فتبلورت فى عادات اجتماعية مرعية : أعراف وقوانين) أو يجب ان يتغير بعض نواحيه ؟ وهل ذلك يقتضى بالضرورة وجود الاستعداد لهذا التغيير عند أعضاء المجتمع ؟ وكيف يوجد هذا الاستعداد عند اعضاء المجتمع

أو حتى عند قادته اذا لم يكن موجودا ؟ وهل يأتى الاستعداد عن طريق القهر ؟ وهل يحتاج تكوين الاستعداد للتغيير الى مدة ؟ وهل يحتاج تكوين الاستعداد الى ممارسة ؟ وهل يحتاج تكوين الاستعداد الى توعية معينة مستمرة ؟

وهل يكفى وجود الاستعداد للتغيير عند أعضاء المجتمع المصرى او حتى عند قادته ، أو الذين فى حكم هؤلاء القادة ، وحده ؟ واذا كان الجواب عن هذا التساءل بالنفى فهل لابد من وجود الامكانات التى تحقق مطالب الاستعداد ؟ وماهى هذه الامكانات ؟

ولكن لماذا غير المصريون ، على مدى تاريخهم الطويل الكثير من العناصر الثقافية المادية وغير المادية ؟ لماذا جدد الزارع المصرى فى الحقل لأدواته فى الزراعة والرى ونوع فيها على مر الزمن ؟ لماذا جدد أنواع الحيوان المستأنس وأضاف اليها مالم يكن معروفا من قبل ؟ ولماذا غير المصريون لغتهم التى يتكلمون والتى يكتبون بها اكثر من مرة فى خلال تاريخهم ؟ ولماذا استبدلوا بدينهم دينا آخر مرة أو مرتين ؟ هل الاستعمار الطويل الذى عاناه المصريون مسئول عن قهر وجود الاستعداد للتغير أو التغيير فى محيط بعض العناصر الثقافية ؟ هل كانت رواسب الظلم والقهر والاستبداد الناتجة عن هذا الاستعمار الطويل المستمر مسئولة عن معاناة الكثير من المصريين المستمرة من مواجهة المجهول ؟ ومن ثم نجدهم متمسكين بمواجهة الانتظار فى صوره المختلفة ؟

(انظر كتاب : « من ملامح المجتمع المصرى المعاصر : ظاهرة ارسال الرسائل الي ضريح الامام الشافعى » صفحات : ٣٨٥ ـ ٣٨٧ .

ان محاولة الخوض فى هذه الموضوعات كانت ولاتزال همي الاول . كما كانت حافزا لي لكى أنشر العديد من الكتب

عنها . وخاصة ماوصلت إليه حتى كتابة هذه السطور ان المجتمع المصرى على الرغم من كل شيء ، سواء أكان هذا الشيء ظلما أم ظلاما ، قد عاش أعضاؤه لايزالون وتجد الخريطة المصرية بين خرائط بلدان العالم باقية لاتزال صحيح ان الكثير من العناصر الثقافية المصرية القديمة بغثه وثمينه لايزال مستمرا معنا (أقصد مع المصريين المعاصرين) فى نفوسنا وفى وجداناتنا حتى الان لكن المجتمع المصرى بقدر ما أعطى الى الدنيا أخذ منها ما يرى الافادة منه ضرورية وغير ضارة فمصر كما أوضحت فى البحوث والدراسات العلمية التى قمت باجرائها والتى أشرفت على اجرائها والتى نشرت على الملأ أو تلك التى لما تنشر حتى الآن - قد أعطت وكانت تأخذ ، أعطت اليونان والرومان قبل أن تأخذ منهما وفى أثناء نير استعمارهما لها . فقد عب الاغريقيون من فروع العلم المقدس المصرى ونقلوا إلى بلادهم ماكانوا يرون أنها تحتاج اليه من علوم ومعارف . وقد أعطت مصر فى خلال حكم الرومان حيث غزت الرومان بثقافتها فى عقر عقولهم ، وحتى فى اللغة التى نتحدث بها ونكتبها نحن المصريين نجد العديد من الالفاظ الفارسية .

وقد ينسى البعض أو يتناسى ، ماسبق ان ذكرته ونشرته من ان العناصر الثقافية التى أتى الدين الاسلامى الحنيف بها الى مصر لم تكن غريبة عن العناصر الثقافية المصرية القديمة تماما مثلها مثل العناصر الثقافية التى أتت بها الديانة المسيحية ، وارجو أن يتذكر القارىء الكريم ماذكرته من قبل حول هذا الموضوع من حيث انه عندما دخلت الديانة المسيحية ثم الديانة الاسلامية الى مصر لم يجدا فى شعب مصر أرضا بكرا أو صحراء جرداء .

ويشهد التاريخ بان مصر فى ضوء اقتناع أبنائها ، قد احتفظت بالدين الاسلامى وتعاليمه وحفظته من الشوائب فى معظم الاحيان . وعلى الرغم من معاناة اللغة القبطية المصرية وكفاحها ضد تسلط اللغة العربية حتى القرن الثامن عشر ميلادية ، فإن مصر قد حافظت على اللغة العربية من الشوائب كذلك . ومع ذلك فاننى اعترف بان الدين الاسلامى دين متغير زمانا ومكانا . فالواقع يؤكد ان اسلام الخلفاء الراشدين غير اسلام العصر الحاضر ، وان الاسلام فى المجتمع المصرى غير الاسلام فى المجتمع الاندونوسى وان الاسلام فى السعودية غيره فى ايران .

وقد اثبت في بعض بحوثي ودراساتي العلمية ان مُصرنا الخالدة تمتاز تاريخيا بالاستمرارية ليس فقط فى العناصر الثقافية المادية (أدوات الزراعة بكل أنواعها من عهد « مينا » الى عهد « محمد على » بخاصة مثلا) وفى العناصر الثقافية غير المادية (التى لايمكن فى رأيى وضع فاصل بينها وبين العناصر الثقافية المادية) وذلك لان العنصر الثقافى المادى يؤثر فى العنصر الثقافى غير المادى والعكس صحيح . والامثلة فى الواقع الحى فى المجتمع .. أى مجتمع شاهدة على ما أقول . فجهاز « التليفزيون » (عنصر ثقافى مادى) فى المجتمع المصرى يختلف مايبثه اختلافا بينا عما يبثه التليفزيون فى المجتمع الغربى (عناصر ثقافية غير مادية) مثلا . (انظر دراسة سيد عويس عن موضوع « حول موضوع الهوية والتراث وجهة نظر ثقافية اجتماعية مصرية » بحوث ومناقشات ندوة « تكنولوجيا تنمية المجتمع العربى فى ضوء الهوية والتراث » المركز الاقليمى العربى للبحوث والتوثيق فى العلوم الاجتماعية ، العربية للدراسات والنشر ، ٩ ـ ١٠ من

شهر نوفمبر ١٩٨٥، صفحات : ٢٢١ ـ ٢٢٣ و٢٢٧ ـ ٢٢٩) .

وارجو من القارىء الكريم الا يمل اذا حاولت ان أحدد فى حدود قدراتى وخبراتى المحدودة بعض مهام القادة الثقافيين المصريين المعاصرين . ومن حق القارىء الكريم ان يوافق على ماوصلت إليه ومن حقه أيضا ان لايوافق . وانني بكل تواضع صادق أذكر مايلى :

ـ ان المجتمع المصرى المعاصر يواجه مشاكل عديدة منها واهمها المشاكل الاقتصادية . والملاحظ ان المجتمع المصرى ليس فريدا فى مواجهة هذه المشاكل بل ان العالم الغربى وبخاصة البلاد الرأسمالية المتقدمة اقتصاديا تعيش فى وجل منذ فترة طويلة حتى وقتنا الراهن من أن تحدث كارثة الركود أو الكساد الاقتصادى كما حدث ذلك فى أوائل الثلاثينيات من القرن الحالى ، صحيح ان التنبؤات بهذا الخصوص متضاربة ولكن لايخفى على المتتبع الواعى النظرة المتشائمة التى يحس بها المتخصصون فى ظل المناخ الاقتصادى ، فى الوقت الحاضر .

ـ والمعلوم ان المشاكل الاقتصادية اذا لم تحل حلا مواتيا يواكبها عادة مشاكل اجتماعية عديدة منها بل اهمها مشاكل الانحراف بأنواعه : فقد يكون هذا الانحراف سياسيا أو دينيا أو اجتماعيا .

ـ واذا كان مجتمع مصرنا الخالدة ، كما ذكرت ذلك مرارا ، مجتمع قديم (عجوز) فان هذا المجتمع فى الوقت الحاضر أصبح مجتمعا شابا ، فهو يموج بالشباب والاطفال . والاخيرون (اى الاطفال) من سن ١٥ سنة فاقل يكونون

مايزيد على خمسى أعضاء هذا المجتمع . وانني أرى ان هؤلاء الاطفال في مسيس الحاجة الى اهتمام القادة الثقافيين المصريين .

ـ ان اهتمام القادة الثقافيين المصريين بهؤلاء الاعضاء ، ذكورا كانوا أو اناثا ، يعنى الاهتمام بتكوينهم لكى يصبحوا مواطنين صالحين ، اى ليكونوا مواطنين يعرفون حقوقهم فيطلبوا تحقيقها ، كما يعرفون واجباتهم فيؤدوها فى ضوء مبادىء المجتمع المصرى وقيمه ومثله العليا . وارجو ان يلاحظ القارىء اننى طالبت فى الفقرة السابقة التعرف ، اقصد تعرف اطفال المجتمع على حقوقهم قبل التعرف على واجباتهم . وذلك لأنم كما ذكر غيرى مرارا وكما ذكرت أيضا مرارا وتكرارا ليسوا فقط فى حاجة الى الاهتمام الواعى ولكنهم ايضا يكونون تربة صالحة لتغرس فيها الاتجاهات القويمة التى ينبغى أن يشبوا عليها لكى يستطيعوا أن يواجهوا نتائج العلم العصرى فيستوعبوها والتكنولوجيا الحديثة فيطبقوها .

ـ واننى أؤكد على غرس الاتجاهات القويمة لمن هم فى سن ١٥ فأقل عن طريق أجهزة التنشئة الاجتماعية المختلفة التي توجد فى كل المجتمعات : البدائية منها والمتحضرة على السواء ـ لان اعضاء هذه الفئة من أعضاء المجتمع المصرى المعاصر سريعو الايحاء ومايرونه أو يمارسونه يكون لديهم اتجاهات وليس مجرد آراء وذلك لانهم مازالوا يواجهون مشكلة تكوين شخصياتهم بمحدداتها التكوينية والثقافية الاجتماعية فضلا عن النفسية والعقلية على عكس اعضاء المجتمع الكبار الذين قد اكتملت شخصياتهم ويقومون فعلا بتأدية أدوارهم

الاجتماعية التى نشئوا على ممارستها سلبا أو ايجابا فى المجتمع .

١٣ - غرس القيم ذات الاهداف الحميدة فى نفوس المواطنين :

لايمكن أن نغرس قيما ذات أهداف حميدة أو غير حميدة فى نفوس المواطنين الا بالتربية الخلقية (بمعناها العلمى) وحق القارىء الكريم على الكاتب ان يعرف اول مايعرف « معنى مفهوم التربية ومعنى مفهوم الاخلاق » فالملاحظ ان المفهومين من المفاهيم الانسانية التى تكون فى الاغلب الاعم مفاهيم غامضة اى لها معان عديدة وهى ايضا مفاهيم فضفاضة أى لها صور متعددة وقد تستخدم فى بعض الاحيان فى مواقف متناقضة .

ومفهوم « التربية » قد تعددت معانيه ودلالاته ومع ذلك فأننى أرى أنه ينبغى ان نفهم التربية على انها عملية تغيير بواسطتها ينمو الانسان وهو يبدأ دورة حياته (أدوار الطفولة والشباب والرجولة والكهولة والشيخوخة) : أى وهو فى دور الطفولة . ثم ينمو الانسان ويزدهر وتتفتح ملكاته وقدراته فى مراحل دورة جياته . وهو أى الانسان اذ يفعل ذلك فانه يكون نفسه ويتحول هو ذاته ، مع تكوينه وتحويله الاخرين والبيئة التى يعيش فيها . ان عملية التغيير هذه تهدف أولا وقبل كل شىء إلى إعداد المواطن (الانسان) لكى يستطيع أن يؤدى أدواره الاجتماعية التى يتوقعها منه المجتمع الذى ولد فيه ويعيش انها عملية تكوين الشخصية ، اى عملية جعل « الفرد » « شخصا » اى فرد له شخصية اجتماعية ، اى يكون المواطن شخصا ذا اتجاهات فكرية نحو من يحيط به من الناس سواء كانت هذه الاتجاهات مما يفيد أو يضر المجتمع

وجماعاته . وتكون فائدته للمجتمع وجماعاته في ضوء قيم هذا المجتمع ، ويكون ضرره فى نفس هذا الضوء . أى أن قيم المجتمع قد تكون قيما ايجابية (اى اهدافها حميدة) قيما بناءة تكون من وراء أفكار أعضاء المجتمع ومن وراء اتجاهاتهم ونظرتهم نحو الامور والاشياء والاشخاص اى نحو الحياة التى يعيشونها أو التى يصنعونها أو التى يحاولون صنعها على السواء . وهى قيم بناءة (بالمعنى السابق) لانها تدعو الى « الخير » ولاتدعو الى « الشر » وأعنى بالخير هنا كل مايعين على العمل الصالح من أجل الآخرين ، اى كل مايعين على التغيير الى الافضل والى الاقوى والى الاعظم . ومن ثم فهى قيم حميدة تدعم الروح المعنوية فى صفوف أعضاء المجتمع اى المجتمع « وترتفع » بهذه الروح وتثبتها وتقويهها . وقد تكون قيم المجتمع وجماعاته على عكس ذلك ـ قيما سلبية ـ اى قيم اهدافها غير حميدة لاتدعو الى الخير العام بل تدعو الى الشر العام ، أى تدعو الى مايعين على العمل غير الصالح من أجل الأخرين . (انظر : اولا ، « من مفاهيم الدراسة الحالية » ، بند رقم ٢) .

وفى ضوء ماذكر عن القيم الاجتماعية سابقا ، اجد من واجبى شرح مفهوم هذه القيم إنها فى بساطة الأشياء التى تكون ذات قيمة معينة عند جماعة من الناس ، مجتمعين أو موزعين ، وتنبت القيم الاجتماعية ، عادة عن طريق الرأى الجمعى لهذه الجماعة . اى ان هذه القيم لايمكن أن تفرض من الخارج على الجماعة فرضا ، ولكنها تتولد من الظروف المعاشية التى تحياها وتكون مقبولة ومعترفا بها عندها .

ويلاحظ ان الاشياء المادية تمثل أنواعا متباينة من القيم . ذلك لان هذه الاشياء هى فى الواقع موضوع اهتمامات

انسانية متباينة قد تكون اهتمامات مادية أو اقتصادية أو معنوية فقطعة الخشب إذا صنعها نجار صارت مكتبا تمثل قيمة مادية ، اى تصبح ذات قيمة نفعية . والمكتب ذاته كنتاج للعمل الانسانى يحتوى على قيمة اقتصادية . واذا عالج قطعة الخشب ذاتها فنان أصبحت قطعة فنية ذات قيمة جمالية . ونجد قطعة الخشب ، فى كل العلاقات السابقة ، ليست فقط شيئا ماديا بل ظاهرة اجتماعية كذلك ، أى انها شىء ذو منفعة وسلعة ونتاج عمل فنى جميعا . اى هى موضوع اهتمامات انسانية .

ويلاحظ أيضا أن ظواهر الوعى الاجتماعى وتتمثل فى الافكار لها كذلك قيم ، وعن طريقها يعبر الناس عن اهتماماتهم فى أسلوب أيديولوجى معين . فأفكار الكفاية والعدل والوسائل التى تحققها تتضمن فى الواقع اهتمامات فئات من أعضاء الشعب كما تتضمن اعمالهم ورغباتهم وارادتهم ، فضلا عن الاهداف العملية للمؤسسات السياسية أو الاجتماعية التى تضمهم . ثم نجد ان هذه الافكار كهدف لهذه الفئات من اعضاء الشعب أو كموضوع آمالهم أو كحلم يهدى أعمالهم هى .. أى هذه الافكار فى الواقع مثل عليا أو قيم من القيم المعنوية .

ويلاحظ كذلك انه بالاضافة إلى القيم المادية والاقتصادية والجمالية نجد أيضا القيم الاخلاقية . ونجد المجتمع أى مجتمع لكى يوجه أنماط سلوك أعضائه أو ينظم هذه الانماط ، يخلق عادة جهازا من المفاهيم الاخلاقية والمثل العليا وأساليب تقييم هذه الافعال ، وهذه كلها من قبيل القيم الاخلاقية .

واذا كان « مفهوم التربية » يعنى كما سبق أن أوضحت ، انه عملية تغيير الفرد فى المجتمع لكى يكون شخصا أو فردا

ذا شخصية له أدواره الاجتماعية التى يؤديها فى المجتمع . فان مفهوم « الاخلاق » هو انماط السلوك التى تصدر عن أنماط الشخصية الاجتماعية عندما تواجه الحياة بظروفها ومواقفها الاجتماعية .

والملاحظ ان أنماط السلوك البشرية عديدة ومتباينة ومتناقضة جميعا . وقد تكون انماطا فاضلة أو انماطا غير فاضلة . والخلق الفاضل هو ذلك الذى يرمى الى أفضل الحالات الاجتماعية وفى الوقت نفسه يسعى ويعمل بعقل وروية على تخير الوسائل التى يدرك هذا الغرض الاسمى . والخلق غير الفاضل يرمى الى العكس . اى يرمى الى أسوأ الحالات الاجتماعية التى ترمى بدورها الى السلبية والهدم ، اى إلى الشر ، أى ترمى الى مايعين على العمل غير الصالح من أجل الآخرين أى أننى لا أرى مايراه البعض أى أن الخلق شىء داخلى أو هو الدافع الذى يحرك الانسان للفعل وأما الفعل نفسه فهو السلوك . أى أن الخلق هو شىء باطنى فى الانسان لاعلاقة له بالبيئة الاجتماعة الا عن طريق شىء أخر هو السلوك . اى أن الناظر الى الانسان لايري الاخلاق وانما يشاهد العمل أو الفعل أو بعبارة أخرى أن أخذ هذين الامرين هو سبب والآخر نتيجة له . فالاخلاق هى السبب ، والسلوك أو العمل هو النتيجة ـ أن هذه فلسفة ثنائية ـ ولكن فلسفة الدين الاسلامى الحنيف هى التوحيد . وهذا بخلاف مايقبله اهل الغرب الذين وجدوا متسعا فى بيئتهم لجميع الفلسفات من توحيدية وثنائية وحتى جمعية . فالملاحظ أننا لو أمعنا النظر لوجدنا أن الامر بخلاف ذلك . فمثلا قد توجد حالة تطلب من الكائن الحى (الشخص) أن يعمل أو ينشط فترى هذا الشخص يأخذ فى التفكير ـ اى فى « غربلة » اختباراته السابقة بقصد اكتشاف الصلة أو المشابهة بين هذه الحالة التى تستدعى عملا ونشاطا وبين مامر عليه فى عهده

السابق . وبينما يكتشف المشابهة فى الحالتين يشرع فى البحث عما عمله فى الحالة الاولى اى أن يراجع استجابته السابقة لتلك الحالة ـ تلك الاستجابة التى أتت بالغرض فى الدفعة الاولى . ثم يتخيل انه عمل فى هذه الحالة الراهنة ماعمله فى الاولى . وبالطبع يقدر لفعله الحالى نتيجته التى قد تترتب عليه وبعد أن يفرغ من كل هذا يشرع فى العمل المادى الظاهر . ويتحول مجرى التفاعل فى نفسه من تفاعل نفسانى داخلى مستتر الى فعل ظاهر صريح (سلوك بشرى) وكل هذه العملية هى عملية متصلة ليس لها انقطاع وليس لجزئياتها انفصال . (انظر : يعقوب فام : « التربية والاخلاق » القاهرة : مطبعة المجلة الجديدة ، عام ١٩٣٠ صفحتى : ٢٦ ـ ٢٧) .

وفى ضوء ماسبق يمكن القول بانه اذا كان السلوك البشرى يصدر عن الشخصية الانسانية فى ضوء محدداتها ومنها خبراتها الثقافية الاجتماعية ، فالملاحظ أن القيم الاجتماعية تؤدى فى هذه العمليات دورا خطيرا . والملاحظ أيضا أن مصادر هذه القيم الاجتماعية بأنواعها العديدة ، عديدة كذلك منها وأهمها التراث الدينى (وبخاصة التراث المسيحى والتراث الاسلامى) والتراث التاريخى (التاريخ القديم والمتوسط والحديث جميعا) ، والتراث الادبى والفنى (بكل انواعهما وصورهما من شعر وادب وفنون تشكيلية وتصويرية ومسرحية وسينمائية وماتعلق بها) ومنها الامثال الشعبية (سواء كانت مكتوبة أو غير مكتوبة تحيا فى نفوس أعضاء المجتمع ووجداناتهم) .

١٤ - الوعى باستغلال مفهوم الوطنية فى سبيل مصالح تجار الحروب :

عندما تحدثت عن موضوع « مفهوم الضمير الانسانى فى التراث الثقافى الاجتماعى المصرى » من قبل تحدثت عن مفهوم « التربية » كما تحدثت عن مفهوم « القيم الاجتماعية » (انظر اولا - من مفاهيم الدراسة الحالية ، بند رقم ٢) كان حديثى فى هذا البند مقتضبا ولكنى توسعت فى شرح مفهوم التربية وأضفت اليه مفهوم « الاخلاق » فضلا عن مفهوم « القيم » سواء أكانت اهدافها حميدة أم غير حميدة . (انظر : خامسا - العمل من اجل السلام ، بند رقم ١٢) .

وأبدأ حديثى الآن عن « مفهوم الوطنية » على أساس انه من القيم الاجتماعية الاولى حيث نجد أن « ظاهرة الوطنية » تتضمن حب الوطن ، الشعور بالانتماء اليه والولاء له والوفاء بحقوقه . وقد تعمدت ذكر « ظاهرة الوطنية » على أساس انها فى رأيى (المتواضع) تعتبر « قيمة مركبة » ذات أهداف إيجابية (حميدة) أحيانا أو أهدفا سلبية (غير حميدة) أحيانا أخرى ، اى أنها صور عديدة من القيم ذات الاهداف الحميدة أو الاهداف السلبية فظاهرة الوطنية ليست فقط قيم حب الوطن والشعور بالانتماء اليه والولاء له والوفاء بحقوقه ، بل هى أيضا لكى تتحقق كل هذه القيم بالاضافة الى قيمة الايمان وقيمة العطاء وقيمة البذل وقيمة التضحية فضلا عن قيمة التعاون . أى أن هذه القيم اذا كانت أهدافها حميدة لابد ان تكون من وراء سلوك المواطن الصالح .

والملاحظ ان معنى ظاهرة الوطنية الذى أقصده فى هذه الدراسة لايعنى فقط مجرد حب مكان اقامة الانسان ومقره

واليه انتماؤه ولد به أو لم يولد وانما يعنى كذلك حب وطن الاسلاف والاخلاص لأرضه وتقاليده والدفاع عن سلامته . وان ظاهرة الوطنية ترتكز على التجارب التى تنمو بمرور السنين منذ الطفولة وعهد الشباب ، كما ترتكز ايضا على الارتباط بالارض والبيئة وهى أقصد ظاهرة الوطنية تثير عادة مشاعر عميقة فى نفس المواطن .

وفى ضوء وقائع التاريخ نلاحظ ان ظاهرة الوطنية ترتبط ارتباطا كبيرا بالحروب القومية وبالحروب الامبريالية . ونجد ان هذه الحروب تبرر باسم الوطنية ماتقوم به من استغلال باسم الوطنية التي يغرس قيمتها في نفوس المواطنين من أبنائه الذين يستعملون أدوات الدمار والعنف والقسوة ضد المواطنين المستضعفين الذين لايستطيعون مواجهة هذه الادوات المدمرة ليس فقط لانم لايملكونها ولكن أيضا اذا ملكوها لايستطيعون الافادة منها ، وذلك لأن التدريب عليها يكون عادة قاصرا وقد يرجع ذلك الى ان مستوى العلم يكون أيضا قاصرا فضلا عن المستوى العام لتطبيقاته من ثم يكون منخفضا .

ان الطرفين الاقوى والمستضعف قد غرست فى نفوس أعضاء مجتمعاتهم قيم ظاهرة الوطنية ولكن الاقوى (وهم المستعمرون فى كل زمان ومكان) يستغلون مفهوم الوطنية فى محيط اعضاء مجتمعاتهم ، جنودا كانوا أو مواطنين عاديين ، ليزدادوا قوة على قوة ، وليستغلوا ثروات المستضعفين واذ أقول المواطنين العاديين فاننى اعنى ماأقول . فقد يكون هؤلاء عمالا فيعملوا اكثر واكثر ، وقد يكون هؤلاء رجالا تحتاجهم ساحة الوغى فتحل محلهم النساء لكى يعملوا ماكان الرجال يعملون وقت السلام .. الخ كل ذلك

يحدث امام أعيننا فى الوقت الراهن ، كما حدث فى الماضى ، باسم الوطنية وحتى يستطيع بائعو الاسلحة ان يبيعوا اكثر واكثر ليربحوا اكثر واكثر وتؤكد ذلك اجابة أحد سفراء جمهورية الصين عندما عاتبه أحدهم للسماح ببيع الاسلحة لايران فقال له ان ٤٠ دولة أخرى تبيع لايران الاسلحة !

والدمار الذى هو وليد العنف يكون من نصيب كبار السن وغير القادرين وغير القادرات على خوض غمار الحرب او العمل فى المصانع تماما كما ذكر « قداسة البابا بول السادس » فى رسالته التى ألقاها بمناسبة الاحتفال بيوم السلام العالمى فى اول شهر يناير عام ١٩٧٨ .

« ... والسلام ماهو الا معادلة أو موازنة تحيا بالحركة وتعطى دائما الطاقة الروحية وطاقة العمل ، انه الذكاء والشجاعة الحية ومن ثم ونحن على مشارف عام ١٩٧٨ نرجو اعضاء المجتمعات الانسانية ؛ الرجال منهم والنساء وبخاصة أصحاب النيات الطيبة من القادة ذوى أنماط السلوك السوية الجماعية الذين يعملون من أجل حياة المجتمعات الانسانية سواء أكانوا من رجال السياسة أم من المفكرين ام من الناشرين ام من الفنانين ام الذين يعملون فى مجالات الرأى العام والاعلام أم من المدرسين فى مدارسهم ، أم من مدرسى الفن والدعاة إلى الصلاة فضلا عن « المخططين وعمال أسواق الاسلحة فى العالم » ـ نرجو الجميع بلا استثناء أن يبدأوا مرة ومرات فى التأمل الأمين الكريم من أجل سيادة السلام فى عالم اليوم » .

١٥ ـ دور الجماهير :

مفهوم « الجماهير » لغة هو من الناس جلهم ، ومن كل

شىء معظمه ويقال جمهر الشىء أى أخذ جمهوره وهو معظمه . (انظر كتاب : حسين يوسف مرسى وعبدالفتاح الصعيدى : الافصاح فى فقه اللغة ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٦٧ ، صفحتى ١٣٢ و١٣٧) .

وفى ضوء تراث « علم الاجتماع » و « علم النفس الاجتماعى » توجد مفاهيم أخرى عديدة حول المعنى السابق . مثل مفهوم « طبقات العامة » أو « عامة الشعب » أو « التكتلات البشرية » (The Masses) ومفهوم التجمعات (oggre gates) ومفهوم الحشد (Crowd) ومفهوم « الدهماء » أو « الرعاع » (Mobs) ومفهوم « الشعب » أو « الجمهور » (The Pu´lblic) والملاحظ ان هذه المفاهيم هى ، فى معظم الاحيان ، مفاهيم غامضة وفضفاضة .

ومنذ استخدام « ليبون » (Le Bon) لمفهوم طبقات العامة أو « عامة الشعب » أو التكتلات البشرية The Masses) نلاحظ استخدام هذا المفهوم فى عمليات وظواهر عديدة . فقد استخدم هذا المفهوم كل من « اورتيجاى جاست) (Orte gy g asset) « اميل ليدرر » (Emil Lederer روس (E. A. Rass)» وكارل مانهايم » (Rarl Mannheim) وغيرهم من الكتاب - فى اشكال مختلفة وبتعديلات مختلفة فنلاحظ ورود مفاهيم « مجتمع التكتل » (Mass Soeity) يقصد بمفهوم « مجتمع التكتل » المجتمع الغربى الحديث وبخاصة مجتمع الولايات المتحدة . حيث يتميز هذا المجتمع بالتصنيع الضخم ، وبالتطورات الحضرية الضخمة وبانتشار الادارة البيروقراطية ، وبازدياد الاشكال والنماذج الموحدة ،

وبالتوسط وبالتحرر من الاوهام وبالاغتراب ويتميز هذا المجتمع فضلا عن ذلك ، أو بسبب ذلك ، بضياع الحريات ووهن بالملامح التقليدية (أنظر : G . Dunean M . G . A, Dieitenary of Socialag, 198, P. 116

كما نلاحظ أيضا ورود مفاهيم « حركة الكتلة العاملة » (Mass Movement) و « وسائل الاتصال الجمعى » (Mass - media) و « جماهير الشعب » (mass Publics) و « البيع الاجمالى » (Mass SALE)و « مظاهرات الشعب » (Mass Demonstrations) و « العرض أو المشاهد الجماهيرية »-(Mass Specta-cles) وغيرها ـ وهى تعبر عن المدى العريض للظواهر التى يغطيها هذا المفهوم .

والملاحظ ان مفهوم « طبقات العامة » أو « عامة الشعب » أو « التكتلات البشرية » يعنى فى حقيقة الامر اعدادا ضخمة من الناس .

اما مفهوم « التجمعات » فيتضح معناه عندما نلاحظ الناس فى احد الشوارع ، فهم مجرد ناس يوجدون فى منطقة معينة ولكنهم يتصلون بعضهم ببعض ، ولايعيشون حياة مباشرة ، ولاتجمعهم أهداف أو قيادة مشتركة ، ولا تربطهم مشاعر تماسك معينة . ويدل مفهوم « التجمعات ـ على سبيل المثال ـ على جماعات الناس الذين يذهبون زرافات وهم يسوقون سياراتهم أو يمشون على الاقدام الى أعمالهم عند الصباح ، كما يدل على جماعات النساء اللاتى يذهبن الى محلات البيع فى المواسم . ان كل واحد من هؤلاء يعيش مع نفسه ولنفسه . وتراه ينافس الآخر فى الحصول على مكان مناسب فى « الاوتوبيس » يجلس فيه أو فى ركن من أركان الشارع يوقف فيه سيارته ، أو فى الحصول على سلعة من السلع بثمن

أرخص . ومع ذلك فإننا نلاحظ أن هؤلاء الناس يتفقون ـ على الرغم من اختلافهم ـ فى بعض أنماط السلوك مثل الاستجابة الى اوامر رجل المرور مثلا !

واذا وجدت هذه التجمعات موضوع اهتمام مشترك أصبحت « حشدا » أو أصبحت « رعاعا » فالحشد من النظارة الذين يجتمعون حول حادث من حوادث المرور مثلا ، هم بعض الناس الذين قد لفت انظارهم وانتباههم هذا الحادث . إنهم يقفون حول الحادث ينظرون دون أن يحدثوا شيئا . اما اذا أحدثوا هذا الشىء بأن تظاهروا مثلا ، أى أصبحوا ينشطون نوعا معينا من النشاط فان « حشدهم » يصبح « رعاعا » والحشد يطلق على الناس الذين يلتفون حول احد الخطباء أو حول احد الوعاظ ، أو الذين يشاهدون حادثا ما أو منظرا ما ، أو الذين يلاحظون أناسا آخرين ينشطون نشاطا معينا كأن يمثلون أو يرقصون أو يغنون أويتظاهرون ساخطين أو غير ساخطين .

وفى كل هذه المواقف نجد ان موضوع الاهتمام المشترك عند الحشد من الناس يؤدى الى استجابات ذاتية (اى ليست جماعية مشتركة) قد تكون استجابات مشجعة أو ساخطة أو قد تكون مجرد الصمت الغاضب .

والملاحظ ان الناس فى الحشد يكونون على اتصال بعضهم ببعض ولكنه اتصال عشوائى . على عكس « الدهماء » أو « الرعاع » فالاخيرون ينشطون فى ضوء شعارات معينة تدعو الى تحقيق اهداف معينة وهم يعملون تحت قيادة غير رسمية معينة . وقد ينشطون امام حشود صديقة تشجعهم أو امام حشود غير صديقة تعاديهم . وفى كلتا الحالتين فإن دور الحشد يكون مجرد دور المشاهد الذى

لاينشط نشاطا جماعيا مشتركا .

وكما تتحول « التجمعات » من الناس فى الشارع تحت ظروف معينة الى « حشود » مشاهدة فان هذه التجمعات والحشود قد تتحول الى « دهماء » أو « رعاع » اذا نشطت فى سبيل تحقيق اهداف اجتماعية أو سياسية معينة فى ظل قيادة منظمة .

وانني لا أرى مطلقا ان يطلق مفهوم « الدهماء » أو « الرعاع » (MOBS) اعتباطا على كل جماعة من الناس منظمة ولها أهداف معينة وتحت قيادة معينة . فان بعض هذه الجماعات ضرورى للغاية اذا كانت هذه الاهداف انسانية تحقق التقدم فى محيطها أو فى محيط المجتمع الذى تعيش فيه ، واذا كانت القيادة رشيدة مخلصة فى سبيل تحقيق هذه الاهداف . والملاحظ فى ضوء التجارب والخبرات أقصد تجاربى وخبراتى ان اعداء الحرية والذين يقفون فى سبيل تقدم الشعوب ، يعمدون الى اطلاق اسم الدهماء أو الرعاع على الكثير من الشرفاء الذين لايعيشون فى أوطانهم فحسب ولكن أوطانهم تعيش فى وجداناتهم وكياناتهم .

ويتكون « الجمهور » (The Public) عادة من أناس لايعيشون حياة الوجه للوجه ، ولكنهم مع ذلك يظهرون عيانا اهتمامات متشابهة . أو يتكون من أناس يعرضون إلى مؤشرات متشابهة على الرغم من أنها قد تكون مؤشرات بعيدة الى حد ما .

وجمهور القائد قد يكون القرينة الوحيدة على قيادته . فالقائد يقدم نفسه نموذجا رمزيا للجمهور ، أو يكون كذلك على أية حال .

وفى المجتمع الانسانى توجد أنواع عديدة من الجمهور .

وفي ضوء هذا التعدد يتحدد مضمون خاص لكل نوع . فهناك على سبيل المثال « جمهور الشباب » و « جمهور الطلبة » و « جمهور المسرح » و « جمهور السينما » و « جمهور القراء » و « الجمهور السياسى » .. الخ ويوجد الجمهور الأخير عادة عندما يكون للناس خارج الحكومة الحق فى اسداء النصيحة الى الحكومة أو فى نقد أعمالها .

وتتكون أنواع الجمهور حسب أنواع الناس وأعمارهم واهتماماتهم وقياداتهم وما يتعرضون اليه من مؤثرات متشابهة . فقد ينتظم بعض الناس في جماعات اختيارية اجتماعية أو علمية أو ثقافية أو ترفيهية . وقد تخلق وسائل الاتصال الجمعى أنواعا عديدة من الجمهور ، وفي هذه الحالة تكون القيادة فى العادة قيادة رسمية ، أى قيادة لم يتفق أعضاء الجمهور على اختيارها . وقد ترى الدولة ان تجعل من الجماعات الاختيارية السابقة جماعات منظمة تقوم هى (اى الدولة) بالاشراف عليها. (انظر كتاب : Hans gerth and I. Wright Mills, (Character and and Social Stra cture) New yark, Hartcourt, Brace And Co, 1953, p. p. 433 - 436 .

والملاحظ ان اعضاء المجتمع اى مجتمع لايعيشون فى فراغ أى انه لايتصور وجود فرد أو شخص (عادى) لايعيش فى علاقات اجتماعية دائمة . فهو يعيش فى جماعة أو فى جماعات . وهذه كلها تعيش فى المجتمع ، بل هى قوام المجتمع . كل واحد منا يبدأ ظهوره فى المجتمع ؛ اول مايبدأ ، فى الاسرة التوجيهية (اى اسرة ابيه وامه وابنائهما) أو فى أسرة بديلة اى فى جماعة . وهذه الاسرة

تعيش فى حى أو فى جيرة ، اى فى مجتمع محلى ، أو تعيش فى ناحية من نواحى القرية . وهذا الحى أو هذه الجيرة أو هذا المجتمع المحلى يرتبط بغيره من الأحياء أو الجيران أو المجتمعات المحلية فى المدينة (يلاحظ أن الجيرات فى مجتمع القاهرة الحالى كادت ان تتلاشى معاملها أو سماتها) . والملاحظ ان القرى قد تتصل بغيرها من القرى وان بعضها اصبح اتصاله بالمدينة (المراكز والمدن الأخرى) فى الوقت الراهن ميسرا .

واننى ارى ان كل جماعة من* الجماعات التى توجد فى المدينة أو المركز أو الكفر أو النجع ، ان هى إلا جمهور كل عضو فيها ، اى ان المفهوم « الجمهور » فضلا عن المعنى العام السابق ذكره عندى معنى آخر خاص . والمعنى الاخير هو ، بالضرورة كل جماعة من جماعات المجتمع الانسانى . ولعل اهم الجماعات الاجتماعية الاساسية التى يكون عضو المجتمع فى ضوء الضرورة الاجتماعية ، عضوا فيها ، هى الجماعات التى تقوم بعمليات التنشئة الاجتماعية لأعضاء المجتمع ليؤدوا أدوارهم الاجتماعية كما يتوقعها المجتمع الذى ولدوا فيه ويعيشون .

واهم الجماعات الاساسية التى تقوم بعمليات التنشئة الاجتماعية لاعضاء المجتمع يمكن ان نوجزها فيما يلى :

- الاسرة .
- الجيرة .
- المنظمة التربوية .
- المنظمة الدينية .
- منظمة شغل اوقات الفراغ .

وقد نلاحظ احيانا أن البعض يرى ان مفهوم الجمهور لايمكن ان ينطبق معناه على الاسرة فالجمهور يتكون عادة من اناس لايعيشون حياة الوجه للوجه - والجمهور يتضمن العمومية ، والاسرة تتضمن الخصوصية ، والعمومية ضد الخصوصية ، ويرى هذا البعض ان الجمهور هو الجماعة التى تتكون من أفراد خارج دائرة الاسرة الاليفة والدراسة الحالية فى ضوء طبيعتها لاترى هذا الرأى فالملاحظ ان الدراسة الحالية لاتهتم بأسرة معينة ، بل بالاسرة كاحدى الجماعات (المنظمات) الاساسية فى المجتمع . وان اطفال المجتمع الانسانى العادى فى الاغلب الأعم جمهور الاسر فى هذا المجتمع ، وهم أهم جمهور فيه . وان الاسر فى المجتمع لايمكن ان تعيش كلها حياة الوجه للوجه فى المجتمع وان الاسرة موجودة فى كل مجتمع ويندر أن يفلت منها الطفل العادى فى أى جزء من أجزاء العالم ، وذلك على الرغم من تعدد أشكالها وأحجامها وعلى الرغم من اختلاف التقاليد والعادات والقيم وحتى العقائد التى يمارسها أعضاء هذه الوحدة الاساسية (أقصد الاسرة) من مجتمع لآخر . وحتى الطفل غير العادى (اقصد الطفل غير الشرعى) فقد يعيش فى كنف اسرة بديلة وبالاضافة الى ذلك فان أطفال المجتمع ككل ، لايعيشون حياة الوجه للوجه وان كانوا قد يعيشون هذا النمط من الحياة فى كل اسرة على حدة .. ومع ذلك فاننا نلاحظ فى الكثير من المجتمعات وبخاصة المجتمعات المتقدمة (Developed Societies) أو التى تسير نحو التقدم ان الاسرة لم تعد وحدها تقوم بعمليات تنشئة اطفال المجتمع ، بل أصبح العديد من المنظمات والاجهزة

الاجتماعية (من خارج الاسرة) تسهم في هذه العمليات . واذكر في ضوء خبرتى المحدودة على سبيل المثال لا الحصر ، جماهير الاطفال التى خلقتها اجهزة الاعلام ، الاذاعة المسموعة والمرئية المسموعة ودور الحضانة والسينما والمسرح والملعب فضلا عن المدرسة وغيرها . ومن ثم أصبح اطفال المجتمع من وجهة نظر هذه المجتمعات (وهى وجهة نظر الدراسة الحالية) يعرضون فى معظم الاحيان الى مؤثرات متشابهة بعيدة الى حد ما (اى من خارج الاسرة الخاصة) .

ولكى نتحدث عن مفهوم « الجيرة » توطئة للحديث عن جمهورها ، نعود الى الوراء الى عام ١٩٢٣ . عندما صاغ « كلارنس يرى » (Clarence Perry) مفهوم الجيرة (NEIGHBOURH OOD) وعندما اقترح اهمية وجود وحدة محلية مخططة تتميز بالميزات المحلية المرضية ، حيث يعتنى بتخطيط طرقها ويعنى بصحة ساكنيها وراحتهم . واصبح بمرور الزمن لمفهوم الجيرة تعريفان : الاول وهو « تعريف مادى » يشير الى جزء من البلدة أو المدينة الذى يتميز بحدود معينة مثل الشوارع الرئيسية ، أو السكة الحديدية ، أو الانهار ، أو الترع ، أو الفضاء المفتوح . كما يتميز أيضا بتشابه مبانيه . ويوجد فيه عادة مركز للحوانيت وبعض المؤسسات المحلية كالمنظمة الدينية والمقاهى والحانات والمكتبات .. الخ .

اما التعريف الثانى لمفهوم الجيرة فهو « تعريف اجتماعى » يرى ان الجيرة تتميز بوجود سكان متشابهين اجتماعيا . ويكون هذا التشابه بخاصة فى الطبقة الاجتماعية أو فى السلالة .

والملاحظ انه فى ضوء درجة التحضر التى يصل اليها

مجتمع المدينة ، تتفاوت حياة سكان الجيران فى هذا المجتمع . فقد تكون هذه الحياة حياة الوجه للوجه احيانا . واذا بلغ التحضر في جيرة من الجيرات درجة عالية من التعقيد تنمو فى محيط سكانها العلاقات الثانوية أحيانا أخرى (انظر كتاب :
. (P. 124, Dictionary of SOEIOLGY)

ومهما يكن من الامر فسكان كل جيرة هم جمهورها . فهم وان عاشوا حياة الوجه للوجه احيانا تراهم يتعرضون ، فى الغالب ، وبخاصة فى المجتمعات المعاصرة الى مؤثرات متشابهة عديدة من خارج الجيرة .

والمنظمة التربوية بأنواعها ومراحلها من الاجهزة الهامة التى تسهم فى القيام بعمليات التنشئة الاجتماعية لاعضاء المجتمع (اطفاله وفتيانه وفتياته وشبابه) اى ان هذه المنظمة ، فى الوقت الراهن ، لايمكن ان تكون بناء يحتجز العديد من جماهير المجتمع من التلاميذ والطلبة والطالبات داخل اطاره بغرض تلقينهم بعض الدروس فحسب . بل ان هذه المنظمة يجب ان تكون بالضرورة الى جانب ذلك ومسايرة منها لتطورات الحياة الاجتماعية ومافيها من تيارات تستدعى تنمية الجوانب الاجتماعية والنفسية لاعضاء جماهيرها لكى يكونوا أقدر على مواجهة الحياة السوية ـ مؤسسة تربوية قبل ان تكون مؤسسة تعليمية تلقينية .

ولعل الهدف الاول من عمليات التربية بين جدران هذه المنظمة يكون الاسهام فى عمليات التنشئة . وذلك بقصد صياغة كل عضو من أعضاء جمهورها أو جماهيرها فى قالب جديد يدرك عن طريقه قيمة الحياة الاجتماعية وقداستها حتى يكون قادرا على تفهمها وتقبلها بروح مرنة غير متجمدة وهو

فى ذلك يسعى الى الانسجام الاجتماعى بصورة طليقة .

أى ان دور المنظمة التربوية يكون أو يجب أن يكون الاسهام فى تكوين المواطن الصالح ، وفى استمراره ليكون صالحا . وذلك لان هذه المنظمة تضم جماعات بشرية كبيرة نسبيا ، ويكون جماهير التلاميذ والطلبة والطالبات بالضرورة أعضاء فيها . وهم كأعضاء فى هذه الجماعات يحاولون وهم يمارسون الحياة فى المنظمة أن يوفقوا بين تحقيق حاجاتهم الشخصية الاساسية وبين كسب ثقة هذه الجماعات وموافقتها ، حتى يتمتعوا بالحياة الطيبة الخالية من العنف الذى يولد الشعور بالعداوة التى تكفلها لهم المنظمة ويؤدوا فى الوقت نفسه لها وللمجتمع الكبير خارج المنظمة أحسن ما يستطيعون أداءه .

أما « المنظمة الدينية » فهى تمثل فى أغلب الاحيان « الكنيسة » أو « المسجد » ومايتصل بكل منهما من نشاطات . والملاحظ ان جماهير المنظمة الدينية أناس شتى ، منهم الاحداث ومنهم الفتيان والفتيات ومنهم الشباب ومنهم الرجال والنساء . وأدوار المنظمة الدينية فيما يتعلق بجماهيرها التعاون الاكيد مع اسـر الحى « الجيرة وجماهيرها » وان تسهم هذه الادوار فى التعاون مع جماهير « المنظمة التربوية » وفضلا عن ذلك فأنها تتعاون تعاونا وثيقا مع اجهزة الاعلام فى المجتمع ومن ثم تكون المنظمة الدينية مكانا صالحا للقادة الثقافيين الحقيقيين من اعضاء المناطق التى توجد فيها ، حيث تتاح لهم الفرصة ليتدارسوا المشاكل الثقافية والاجتماعية التى توجد فى كل منطقة توطئة لايجاد الحلول المواتية لمواجهتها . اى ان تكون المنظمة الدينية فضلا عن أنها مكان للعبادة مركزا اجتماعيا يقوم ، فى جد

وإخلاص مع جماهيرها ومن تتعاون معه من جماهير المجتمع ، بالاسهام فى عمليات التنمية الاجتماعية فى محيط المادة البشرية فى محيط هذه الجماهير ، وفى عمليات وقاية هذه المادة البشرية وفى عمليات علاجها على السواء .

« ومنظمة شغل اوقات الفراغ » كاحدى الجماعات الاجتماعية الاساسية جهاز اجتماعى يسهم مع الاسرة والجيرة والمنظمة التربوية والمنظمة الدينية فى تكوين المواطنين . ومن ثم فهى تكون ، بالضرورة مؤسسة تربوية قبل ان تكون مؤسسة رياضية ترويحية أو حتى ثقافية . والملاحظ ان هذه المنظمة تعتبر مجالا هاما لرعاية الشباب فى المجتمع فالشباب فى الاغلب الاعم هم جمهورها . والملاحظ ايضا ان رعاية الشباب فى كل مجتمع لها اتجاهات ولها أساليب تحقق هذه الاتجاهات . ولكى نقى من الانحرافات بأنواعها (ومنها بالضرورة الجريمة والجناح) فان هذه الاتجاهات يجب أن تؤكد الرعاية المتكاملة ، كما تؤكد الرعاية الشاملة ، اى تهتم بجميع الفئات ويكون اهتمامها بالقاعدة الشعبية أول الاهتمامات ، وان تؤكد هذه الاتجاهات ايضا على ان تكون الرعاية على أسس علمية سليمة ، والتى تهتم بالخدمات الانشائية (التنموية) والوقائية أكثر من اهتمامها بالخدمات العلاجية فى ضوء تخطيط علمى سليم . كل ذلك بقصد اعداد المواطن الصالح (حسب ماعرف من قبل) فى كل القطاعات وفى محيط كل الجماعات ، مع استمراره مواطنا صالحا .

- ولعل القارىء الكريم قد شعر بنفورى من الرياضة كهدف ، لأنها عندى مجرد وسيلة وعن طريقها يمكن ان تسهم تربويا فى تزويد الاغلبية الساحقة من اعضاء الشعب (لامجرد بعض الاعضاء) ليس فقط باللياقة البدنية بل ايضا بالاخلاق

القويمة التى تيسر لهم القدرة على التكيف الاجتماعى إزاء المواقف الاجتماعية التى يواجهونها حيثما يكونون ، والتى تيسر لهم ايضا القدرة على التفاعل الايجابى فى سبيل المصلحة العامة والخدمة العامة مسلحين بالقيم ذات الاهداف الايجابية التى تتفق مع ظروف المجتمع المصرى فى الوقت الراهن . (انظر : خامسا ، البند رقم ١٣ من الكتاب الحالى) (انظر أيضا : سيد عويس « الدراسة التى قدمتها للمؤتمر الذى عقد فى جمهورية ليبيا فى ١١ ـ ١٥ أكتوبر عام ١٩٧١ ، وموضوعها « دور الجمهور فى الوقاية من الجريمة والجناح ») .

وأرجو أن يلاحظ القارىء الكريم ان هذه الدراسة قد طلب منى اعدادها على أساس أن أذهب الى هذا المؤتمر لعرضها حتى يناقشها اعضاؤه ـ ولكن ادارة المركز القومى البحوث الاجتماعية والجنائية أبت علىّ الذهاب دون ذكر الاسباب .

١٦ ـ دور رجال الشرطة :

لايمكن الا أن أتذكر المغفور له « اللواء عبدالعزيز مفرح » فقد كان رجلا شرطيا يعرف واجباته فى العمل الشرطى الى الدرجة التى يضحى من أجل واجباته نحو أسرته . ذكر لى هذا الرجل ذات مرة وسمات وجهه تنم عن خليط من الأسى والاهتمام بالواجب أن ابنة له كانت فى غرفة العمليات تجرى لها عملية جراحية عندما استدعى لأداء واجبه الشرطى . فما كان منه إلا أن لبى نداء واجب عمله تاركا ابنته فى غرفة العمليات .

ربما كان من حظى ان اعلم ذلك منه شخصيا ، فقد كان

علمى هذا دافعا لى لأن اكتب هذه الدراسة اقصد « دور رجال الشرطة » التى تعنى فى حقيقة الامر الشخصية الاجتماعية لرجل الشرطة ومايجب ان تكون عليه . واننى لايمكن أن أدعى فى ضوء خبراتى ومعاملاتى معهم فى مواقع أعمالهم ، أن كل رجال الشرطة مخلصون فى أعمالهم العديدة (والخطيرة ايضا) التى هدف أهدافها الامن والأمان للملايين من المصـريين . فهناك بالضرورة آخرون لايفعلون ذلك تماما ، كما نجد فئة من الاطباء أو أساتذة الجامعة أو المدرسين أو رجال الاعلام والثقافة وغيرهم وغيرهم من اعضاء الصفوة فى البلاد ، من لايؤدون واجباتهم كما ينبغى ان تؤدى .

وأننى أرى ان الانسان فى ضوء شخصيته الاجتماعية هو خلق تاريخى ، ويمكن فهمه بوضوح اذا عرفنا الادوار الاجتماعية المعترف بها والمندمجة فى ذاته . وهذه الادوار الاجتماعية محددة بحكم الانساق الاجتماعية التى حدث أن ولد وترعرع وصار بالغا في كنفها . فذاكرته وفهمه لمعنى الوقت والمكان ، وادراكه الحسى ، والبواعث التى تدفعه ، وحتى الفكرة المجردة عن نفسه ووظائفها النفسية .. كل ذلك تشكلها وتوجهها ، فى نسق معين ، الادوار الاجتماعية التى استوعبها وتمثلها الانسان من مجتمعه .

وعلى هذا فكون الواحد منا له « شخصية اجتماعية » يعنى انه بحكم كونه عضوا في جماعات تتكون له أدوار اجتماعية يؤديها . وعلى هذا يمكن القول ان الشخصية الاجتماعية لأى شخص فى مجتمع من المجتمعات هى مجموع الادوار الاجتماعية التى يؤديها هذا الشخص فى هذا المجتمع .

ورجل الشرطة هو شخص يعيش فى مجتمع . اى انه عضو فى جماعات وبحكم هذا الوضع الاجتماعى له ، تكون له أدوار اجتماعية يؤديها . وشخصيته الاجتماعية يحددها العدد الوفير لهذه الادوار الاجتماعية . فهو فى مجتمع كالمجتمع المصرى « رجل » وبحكم كونه عضوا فى عائلة يكون ابنا ، وقد يكون أخا أو عما أو خالا أو ابن عم أو ابن خال أو صهرا وقد يكون ربًا لاسرة فهو زوج وهو أب وفضلا عن كل ذلك هو مواطن وجار وهو ابن من أبناء مدينة معينة أو قرية معينة أو اقليم معين . وقد يكون عضوا في ناد أو أكثر أو فى هيئة اجتماعية معينة أو هيئة ثقافية معينة . وهو فى الوقت نفسه رجل شرطة . وكونه رجل شرطة فهو يقوم بأداء أدوار اجتماعية متعددة . منها على سبيل المثال لا الحصر قيامه بمنع المجرمين من ارتكابهم جرائم أو مخالفات قانونية ، والقبض على من ارتكب منهم جرائم أو مخالفات قانونية ، والعثور على الأطفال الضالين ، وتنظيم المرور ومراقبة الاندية وصالات « الرقص » ومنع واطفاء الحرائق وتنفيذ لوائح الرفق بالحيوان وغيرها من الادوار الاجتماعية الهامة التى لايستطيع القيام بها غير رجل الشرطة .

ورجل الشرطة ككل انسان يعيش فى مجتمع انسانى يهمه جدا معرفة صورته عن نفسه والفكرة التى يكونها عن شخصه . وانني ارى ان تحقيق هذا الهدف هو عبارة عن عملية البحث عن النفس (أقصد الذات) ، وهى عملية يشترك فيها رجل الشرطة مع غيره من الناس . وينعكس عليه كيانها الاساسى من استحسان ونقد الاشخاص المحيطين به والذين يقيم لآرائهم وزنا .

ان مانظنه فى أنفسنا متأثر حتما بما يظنه غيرنا فينا . فابداء موافقتهم أو عدم موافقتهم على تصرفاتنا يرشدنا ويعلمنا كيفية أداء الادوار الاجتماعية المكلفين بأدائها أو التى نأخذ على أنفسنا القيام بها . ونحن إذ نتأثر بآراء الناس ووجهات أنظارهم فينا وفى سلوكنا لانكسب فقط أدوارا اجتماعية جديدة ولكن نكسب بمرور الوقت صورة عن أنفسنا . ومن المسلم به أن هذه الصورة قد تكون انعكاسا حقيقيا او مشوها للنفس ذاتها . وعلى هذا فإن الناس الذين يسعى الشخص منها باستمرار إلى إرضائهم هم أناس لهم أهميتهم فى حياتنا ويتحكمون فى مصير أشخاصنا .

وكذلك رجل الشرطة يسعى باستمرار الى إرضاء من لهم أهميتهم فى حياته أو يتحكمون فى مصيره . وهؤلاء يكونون عادة رؤساءه . فرجل الشرطة الحديث العهد بوظيفته يحس بالغبطة من رضاء رئيسه عليه . واذا كانت كلمات الثناء التى يصف بها الرئيس سلوك رجل الشرطة الناشىء تهمه كثيرا ، فانه فى هذه الحالة يكون (أى رجل الشرطة الناشىء) تحت تأثير عملية توجيه نحو أدوار اجتماعية جديدة والى صورة جديدة لنفسه وتصبح القيم الرئيسية للرئيس بمرور الوقت قيما اخلاقية لرجل الشرطة الناشىء الذى سيقوم بتطبيقها لا على غيره من الناس فقط ، فى هذه الحالة الجمهور بل على اعماله الشخصية كذلك وقد قيل : « ان النفس مصنوعة من التقديرات المنعكسة من الناس الآخرين » .

والملاحظ أنه إذا كان الشخص الواحد يؤدى أدواراً اجتماعية مختلفة فان كل دور اجتماعى يكون جزءا من الانساق الاجتماعية المختلفة والمواقف الاجتماعية المختلفة التى يتحرك الشخص بينها . فنرى أن تصرف رجل الشرطة

مع زملائه يختلف عن تصرفه مع عملائه ، ويختلف عن تصرفه مع من هم أقل منه رتبة ، ويختلف عن تصرفه مع أبنائه فى المنزل . ونجد أن تصرف الفتاة وهى فى حفل بين قريناتها يختلف عن تصرفها بين ذويها وهى على مائدة الطعام .

وحتى فرصة التعبير عن العواطف والاحساس بها تختلف باختلاف مراكز الناس الاجتماعية والطبقية . لأن التعبير عن العواطف الذى نتوقعه من الآخرين ويتوقعه الآخرون منا يكون أوصافا مميزة للكثير من الادوار الاجتماعية . فالتعبير عن العواطف بين أبناء وبنات طبقة الكادحين غيره بين أبناء وبنات الطبقة الوسطى ، وهو بين أبناء وبنات الفلاحين غيره بين ابناء وبنات البدويين وهو بين رجال الشرطة غيره بين الأغلبية الساحقة من عملائهم !

والادوار الاجتماعية التى يؤديها أعضاء المجتمع ويتوقعونها ، وماتسبب من صور الاعضاء عن أنفسهم ، وتأثير هذه الادوار الاجتماعية والصور النفسية على اعضاء المجتمع - كل ذلك راسخ فى نسق اجتماعى معين . وعلى هذا فان التعبيرات النفسية الداخلية ونظم الضبط الاجتماعى فى المجتمع مرتبطة بعضها ببعض .

واذا سلمنا بأن أى نسق اجتماعى هو عبارة عن منظمة مكونة من أدوار اجتماعية ، ويعنى هذا أن الادوار الاجتماعية تحمل فى ثناياها درجات متفاوتة من السلطة نجد أن الادوار الاجتماعية المتعلقة بوظيفة رجل الشرطة وهى احدى وظائف الضبط الاجتماعى تحمل فى ثناياها درجة كبيرة من السلطة يجب أن يفهمها ويقبلها باقى أعضاء الادوار الاجتماعية الأخرى كضمان للدوام النسبى الخاص بالنماذج السلوكية الكلية للنسق الاجتماعى .

وانني ارى أن مهمة تفهيم باقى اعضاء الادوار الاجتماعية الأخرى فى أى نسق اجتماع للأدوار الاجتماعية المتعلقة بوظيفة رجل الشرطة ، بل بشخصية رجل الشرطة الاجتماعية المتكاملة وماتحمل فى ثناياها من سلطة ضرورية تقع على عانق رجال الشرطة أنفسهم . ومجرد التفهيم هو خطوة هامة بل ضرورة اجتماعية ، ولكن المهم ان تكون عملية التفهيم هذه بقصد تقبل باقى اعضاء الادوار الاجتماعية لها .

وتلعب الشخصية الاجتماعية لرجل الشرطة فى أى نسق اجتماعي دورا هاما فى الحياة النفسية للأعضاء الآخرين فى النسق الاجتماعى . فرجل الشرطة فى مجتمع كالمجتمع المصرى وخاصة فى المناطق الريفية يجب أن يكون بمثابة الرئيس فى جماعة . فما يظنه الرئيس باعضاء جماعته ، كل فى دوره الاجتماعي الخاص ، أو حتى مايتصورون ظنه بهم ، يعتبر جزءا منهم . وشخصية رجل الشرطة الاجتماعية يجب ان تكون لها ما للشخصية الاجتماعية للأب « الرئيس » فى الاسرة يتطلع عادة إليه كنموذج ولايخفى ما لنظرة الاب الى « طفله » من الأهمية وتتوقف على هذه النظرة نظرة الطفل الى أبيه والى سلوكه وربما الى نفس الطفل ذاتها . فباتخاذ هذه النظرة يبنى الطفل « آخر » فى كيان ذاته . وادراكه لنظرة هذا نحوه شرط لنظرته نحو نفسه . وللاشخاص « الآخرين » فى أدوارهم الاجتماعية الأخرى نظرات معينة إلى الطفل ويحتمل أن تكون كل من هذه النظرات جزءا منه ، وتكون فى النهاية أجزاء من صورته عن نفسه . ولكن نظرة الرئيس فى النسق الاجتماعى الذى فيه تؤدى دورا اجتماعيا هى نظرة حاسمة فى نضجنا الاجتماعى .. فان قال « هذا فعل محمود » فاننا

نشعر بالامن والطمأنينة فيما نفعل وفيما نتصوره لانفسنا . ويصبح الرئيس اذا ماقدرت نظرته الى نفس العضو حق قدرها « آخر خاص » وليس معنى هذا أنه ينظر اليه على انه شخص آخر ، بل هو رمز ولسان حال النسق الاجتماعى بأسره فهو البؤرة التى تجمع فيها النظرات النهائية لادوارنا الاجتماعية الرئيسية ولأنفسنا فى نطاق النسق الاجتماعى فهو يحمل هذه النظرات جميعا . وعندما نعتنق هذه النظرات ويتبع ذلك مايتوقعه الآخرون منا ومانتوقعه نحن من الآخرين فاننا بذلك نتحكم باسم هذه النظرات فى أمر سلوك النسق الاجتماعى ، وهكذا عن طريق جعل هؤلاء « الآخرين » جزءا منا يصبح سلوكنا وأداء أدوارنا الاجتماعية فى حدود النسق الاجتماعى محكوما حكما ذاتيا . (انظر : سيد عويس : الدراسة التى نشرت فى مجلة البوليس وموضوعها « الشخصية الاجتماعية لرجل البوليس » عام ١٩٥٧ ، صفحات : ٣٨ ـ ٤١) .

ولعله اذا تضمنت الدراسة الراهنة موضوع « السلطة » التى يتمتع بها رجل الشرطة وهو يؤدى ادواره الاجتماعية المتعلقة بوظيفته التى هى احدى وظائف الضبط الاجتماعى ، ارجو أن يتذكر القارىء الكريم الشعار القائل : « من الذى يستطيع أن يسيطر على رجال الشرطة » (Who can POLice the police) فرجال الشرطة وبخاصة فى المجتمع المصرى هم حكام هذا المجتمع الحقيقيون ، وهم يعلمون ذلك ويعرفونه حق المعرفة . كما أرجو القارىء الكريم ، ايضا ، ان يتذكر بعض ماتضمنه تقرير اللجنة الدائمة للمباحث الجنائية الذى نشر فى شهر سبتمبر عام ١٩٦٠ عن حالة « الشقى » محمود امين سليمان الذى اشتهر فى محيط

أعضاء المجتمع المصرى فى ذلك الحين باسم « السفاح » (انظر ثالثا « أمثلة حية معاصرة عن بعض أنماط العنف ، بند رقم ٦ من الكتاب الحالى) .

وقد تعمدت الدراسة المشار اليها ان اذكر بعض جهود رجال الشرطة المصريين وهم يؤدون وجباتهم ويتفرغون لهذا الاداء ، لكى أبين للقارىء الكريم بعض ماتعكسه هذه الجهود على الشخصية الاجتماعية لرجال الشرطة فضلا عن أهمية تعاون أعضاء الجمهور معهم حتى يسود الامن والامان فى المجتمع المصرى الذى ولدوا فيه ويعيشون .

وأود أن أؤكد للقارىء الكريم ماسبق أن ذكرته وأذكره دائما حتى كتابة هذه السطور ، من حيث ان رجل الشرطة كانسان فى ضوء شخصيته الاجتماعية هو « خلق تاريخى » اى انه يأخذ من المجتمع ويعطى مايأخذه الى المجتمع الذى فى ضوء سلطته وسلطانه قد يتحكم فى أعضاء هذا المجتمع كأحد موظفى الضبط الاجتماعى فيه .

وهذا التحكم فى ضوء ظروف المجتمع اى مجتمع سواء كانت ظروفا اقتصادية أو سياسية أو ثقافية أو اجتماعية قد يكون ظالما قاسيا وعنيفا فى بعض الاحيان ، وقد يكون عادلا انسانيا مسالما فى أحيان أخرى . والمعروف ان المجتمع المصرى فى ضوء تاريخه الطويل وخصوصا فى مراحل استعماره الطويلة الطويلة ، لايعتبر رجل الشرطة صديقا فى معظم الاحوال . وانا لا ألقى الكلام على عواهنه ، ففى ضوء خبراتى فى التدريس لكبار رجال الشرطة وصغارهم كنت أسأل سؤالا فى أول حصة أحضرها عن العدو اللدود لرجل الشرطة فيكون الجواب عن هذا السؤال فى كل مرة : انه المتهم : وان وسيلتى « المنع والقمع » اللتين يستخدمهما

عادة أو فى بعض الاحيان تؤكد ان هذا الشعور بالعداوة وبخاصة عند استجواب المتهم وقبل ذلك لان اكبر مايهتم به رجل الشرطة هو ان تتحول التهمة إلى ادانة .

والملاحظ ان ردود الفعل عند اعضاء المجتمع المصرى المتهمين ومن يلوذ بهم ردود تشع ، بالحق أو بالباطل الكراهية لرجل الشرطة المصرى ويضرب بها الامثال . وربما يرجع ذلك الى ان مايراه رجل الشرطة « باطلا » يرونه « حقا » وان مايرونه « حقا » يراه رجل الشرطة « باطلا » ففى ضوء المنهج العلمى « لاشىء مطلق » وحتى فى الحياة التى يحياها الناس نجد ظاهرة الازدواجية الثقافية سائدة فى كل المجتمعات وان تباينت عواملها ، باسم الدستور وباسم القانون ، وباسم الوطنية (كما ذكرت ذلك من قبل أنظر : خامسا ، الوعى باستغلال الوطنية فى سبيل تحقيق مصالح تجار الحروب : بند رقم ١٤ من الكتاب الحالى).

الخـاتمـة

أود أن أعترف للقارىء الكريم بأنني مجرد شخص مصرى يحب أن يحيا الناس فى ربوع مصر بل فى ربوع العالم قاطبة حياة السلام . واعترف اعترافا لا لبس فيه ولا ابهام بأننى لست اهلا ، فى ضوء كتابة الدراسات التى يضمها الكتاب الحالى ، الا أن أدعو الى سيادة الخير فى محيط بنى البشر . اى الا أن أدعو إلى السلام العادل وان انفر من العنف والظلم والاستبداد والاستعباد .

واذا كان هذا هدفا أو أهم أهداف الكتاب الحالى ، فاننى لايمكن ان أدعى اننى « رسول » أو « نبى » أو « فيلسوف » ولكنى اظن ان من حقى أن لا أعيش فى رهبة مستمرة لانتشار الاسلحة النووية التى تملأ « ترسانات» الدول الغربية والشرقية وخاصة الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الامريكية وتتملكنى الرهبة ايضا اذا نظرت الى مناطق المعمورة حيث توجد الدول التى تنظر إلى بعضها البعض كأعداء محتلين ولاتدعم رسميا عدم انتشار الاسلحة (بلدان شرق آسيا وبخاصة الصراع بين الهند والباكستان مثلا) وتتملكنى الرهبة كذلك إذ أجد كما يجد غيرى ادخال الصواريخ المتطورة فى حرب الخليج ، ومايرى كل ذي بصيرة ، بالفعل بوادر سباق التسليح الخطير الذى قد يعرض للخطر بلدانا بعيدة جدا عن منطقة الخليج .

وفضلا عن كل ذلك ، فأننا نلاحظ أستخدام الاسلحة الكيميائية فى خلال السنوات الاخيرة الأمر الذى يشكل انتهاكا لاتفاقية جنيف لعام ١٩٢٥ . كما نلاحظ ان الدول النامية استوردت فى خلال الفترة من عام ١٩٧٧ الى عام ١٩٨١ أسلحة قيمتها حوالى ١٢٨ مليار دولار أمريكى وان البعض ذكر ان هذا الرقم سوف يرتفع فى السنوات الخمس التالية التى انتهت فى عام ١٩٨٦ الى ١٨٠ مليار دولار امريكى بزيادة قدرها ٤٠ ٪ .

ونجد فى ضوء الواقع المر أن البلاد الصناعية أو المتقدمة هى أكبر مصدر للسلاح بأنواعه الى البلاد النامية وغيرها وحتى التى لم تلتزم باتفاقية الانتشار النووى .

واذا كنت لا أدعى اننى « رسول » أو « نبى » أو « فيلسوف » فاننى لا أدعى أيضا أننى أدعو الى « يوتوبيا » ذات أيديولوجية معينة . ومع ذلك فأننى أدعى بحق اننى واحد من ابناء مصر دون ماتعال أو غرور هؤلاء الابناء الذين يعيشون فى أواخر القرن العشرين حيث توجد الظروف التى أوضحتها من قبل ، وينظرون بلهفة الى القرن الواحد والعشرين وما سيأتى به من معجزات قد تمهد لألوان العنف والظلم والاستبداد والأستعباد أو قد تحد من هذا العنف حتى لايتفشى وتيسر فى ضوء ماوصلت إليه البلاد الصناعية مايعين على سيادة السلام العادل والحياة السوية . وذلك لاننى أرى انه لاشىء مطلق ؛ وان مايصل اليه العلماء على اختلاف مشاربهم فى أثناء الحروب يفيد حتما البشر فى مراحل السلام وقد تكون رؤيتى هذه وهما ولكنى أجد نفسى مع المتفائلين من بنى البشر . وذلك لاننى أنظر بفرح انسانى الى التجارب الانسانية التى نحس بها ونراها بأعيننا فى علوم الفيزياء والكيمياء وفى مجالات الطب والهندسة الوراثية

والتحكم فى الظاهرة الفلكية والتطبيقات العلمية التى توفر عناء الانسان وتقرب المسافات والتى تنمى ذاكرة الانسان وتفكر من أجله (الكمبيوتر المفكر مثلا) .. الخ .

واذا كنت احد ابناء مصرنا الخالدة ، التى صنعت الحضارة الانسانية الاولى ، والتى ادركت منذ الماضى السحيق ان الحياة تمنح للمسالم (الذى يحمل السلام) ويحيق الموت بالمجرم (الذى يحمل الجريمة) والتى عرف مفكروها القدامى ان « المسالم » هو الذى يفعل ماهو « محبوب » وأن المجرم هو الذى يفعل ماهو « مكروه » وان كل ماهو محبوب « ممدوح » وكل ماهو مذموم « مكروه » ومن ثم استطاع الانسان المصرى منذ الماضى السحيق ، التمييز بين « الخلق الحسن » و « الخلق السيىء » ثم بين قيما « الحق » التى يكون هدفها حميدا وقيمة « الباطل » التى يكون هدفها ايضا حميدا ـ فاننى فى ضوء خبراتى المحدودة أجدنى منساقا لكى ادعو دعوة السلام العادل وارجو أن لايدهش القارىء الكريم اذ أقول ان أهداف كل من قيمة الحق وقيمة الباطل يجب ان تكون بالضرورة حميدة . فالملاحظ ان من يرى الحق لايراه حقا على وجه الاطلاق فقد تكون قيمة الباطل حقا عند بعض الناس وقد تكون قيمة الحق باطلا عند آخرين فأنا أرى وقد ذكرت ذلك فى بعض البحوث والدراسات العلمية التى أجريتها أو قمت بالاشراف على اجرائها المنشورة منها وغير المنشورة . وإننى اكرره الآن وارجو ان لا يمل القارىء الكريم هذا التكرار .

ومصرنا الخالدة ، كما يعلم القارىء الكريم ، فى ضوء مراحل تاريخها الطويل الطويل هى مهد العقائد بأنواعها ، وهى ايضا مهد الاديان السماوية . ومن قبل كانت جامعة

الجامعات التى عب العلم المقدس فيها فلاسفة اليونان وغيرهم ممن نقلوا المناهج المتعددة لهذا العلم إلى الدنيا بأسرها على الرغم من مكابرة المبطلين والمزيفين .

وارجو أن يلاحظ القارىء الكريم ماتجاسرت وأطلقت عليه « متصل السلوك العدوانى » (انظر : ثانيا دراسة عن السلوك الانسانى بند رقم ٣ فى الكتاب الحالى) . ان هذا المتصل كما ذكرت ، هو احد مفاهيم « علم الاجتماع الحضرى » وقد شرحت هذا المفهوم فى مكانه المناسب فى الكتاب الحالى ، واذا كنت قد استعرته كيما أطبقه على « السلوك العدوانى » فاننى رغبت فى شرح تدرج هذا السلوك فى محيط البشر ، أقصد السلوك العدوانى . ولعل ذلك ان يكون أمرا جديدا لم يفعله أحد من قبل ورجائى الحار أن يتقبله القارىء المدقق فى سهولة ويسر واذا عنّ له أن يرفع لواء النقد فحبا وكرامة . وذلك لاننى إذ فعلت مافعلت لا أقصد سوى الاجتهاد فى هذا المجال وأرجو أن أكون قد وفقت .

ولعل ماكتبته فى صدر هذه الخاتمة يؤكد علي أن « منظمة الامم المتحدة » وبخاصة « مجلس الامن » لم يؤديا واجبهما الاداء الكامل وذلك بمكافحة العنف الانساني والعمل علي نشر السلام ، وتقارير « لجنة لحقوق الانسان » وتقارير « منظمة العفو الدولية » شاهدة على ذلك . ويبدو لى أن الخير والشر فى حياتنا البشرية باقيان وتجدهما فى صراع دائم . وقد ينتصر الخير احيانا وقد ينتصر الشر احيانا أخرى . ان كل ما نرجوه هو أن نحيا حياة مطمئنة وان يسود السلام فى كيان البشر .

واننى اعترف للقارىء الكريم بأننى لا أملك صيغة تحقق هذا الهدف الكبير أو حتى تحد من أضرار العنف وشروره غير

الانسانية فانا لا أدعى بانني « غاندى » أو « جيفارا » أنني فى ضوء مهمتى أعرض افكارى للسادة المنفذين كل فى موقعه . صحيح ان التاريخ قد سجل المهام الرائعة التى حققها « المهاتما غاندي » كما سجل المثل العليا التى ضحى من أجلها « جيفارا » ولكن التاريخ قد سجل أيضا سطورا تبدو ناصعة لكل من « نابليون بونابرت » و « ادولف هتلر » وهما كما يعلم القارىء كانا المحرضين لاستعمال ادوات الدمار فى الحروب التى اندلعت وقتل فيها الملايين من الخلق محاربين كانوا أو غير محاربين من الرجال والنساء والشباب والاطفال . وقد اصبح الجميع مجرد ذكرى وبمرور الزمن وضعوا فى كفة واحدة فى تقدير شعوبهم وربما فى تقدير غير شعوبهم فى الوقت الراهن .

واننى اذ قلت ان مهمتى هى مجرد عرض أفكارى وبخاصة ماتضمنتها دراسات الكتاب الحالى ، اعترف وانا لا أتواضع بأننى فى ضوء خبراتى المحدودة ، مجرد " ياء » المفكرين المصريين الحاليين .

لقد تضمن الكتاب الحالى : « لا » للعنف و « نعم » للسلام : دراسة علمية فى تكوين الضمير الانسانى » موضوعات شتى ويخرج منها القارىء المتشائم بأن « القوة هى الحق » وليس « الحق هو القوة » وقد تعمدت ان تبين هذه الموضوعات الشعور بالعدواة الذى هو وليد « العنف والظلم والقسوة والاستبداد » كما تبين الشعور بالامن والامان والاستقرار النفسى التى هى وليدة « السلام » وأكدت على ان السلام بألوانه يجب ان يسود فهو ليس مطلبا مستحيلا بل ميسورا . واننى وقد انتهيت من كتابة هذه الموضوعات أسائل نفسى وقد قلت اننى لا أملك « صيغة » لمواجهة العنف

الانسانى بالوانه واشكاله وانني اعرض افكارى للسادة المنفذين ، رموز السلطة والسلطان فى المجتمع ، كل فى موقعه ، وانني مجرد « ياء » المفكرين المصريين الحاليين - أسائل نفسي هل أنا واهم ؟ أو أنا جبان ؟ أو أنا عاجز عن أفعل شيئا لتحقيق هدف اهداف الكتاب الذى كتبته عن وعى بقلمى . وكانت الاجابة عن هذه الاسئلة بالنفي . وذلك لان الذى يقوم بالتغيير هم شباب مصرنا الخالدة .

فالملاحظ أنني اكتب للشباب المصرى العربي دائما . فهم العدة والعتاد والحاضر حاضرهم ، والمستقبل مستقبلهم ، وهم صرعي الحروب وقتلاها ، وهم آباء وامهات المستقبل القريب أو البعيد ! وهم فضلا عن ذلك ، الذين قد خدعوا فى الماضى القريب فاعطوا المكانات الاجتماعية الرفيعة دون ضرورة بقصد درء ماقد يصدر عنهم من آثار القلق المرضى من أجل مصالح حفنة من المنفذين اصحاب السلطة والسلطان (رموز السلطة والسلطان) فى المجتمع المصرى فى ذلك الحين .

وقد تضمن الكتاب الحالى على وجه الخصوص الصراعات الفكرية ، ومانتج عنها من عنف وقتل وتدمير . لقد اهتممت بالصراعات الفكرية التى حدثت فى وجود « الامام ابو حنيفة ابن النعمان » و « الامام مالك بن أنس » و « الامام أبو عبدالله محمد بن ادريس الشافعى » و « الامام احمد بن حنبل » ويبدو أن هذا الموضوع قد أخذ بلبى لما حدث فى ثناياه من صراع ليس فقط بين مفكرين ومفكرين ، ولكن بين المفكرين واصحاب السلطة والسلطان - صحيح لقد شاهدت وقرأت النقد اللاذع بين المفكرين والكتاب المصريين فى العشرينيات ومابعدها من القرن الحالى . ولكن كان هناك من صارعوا السلطة وصرعوها احيانا وصرعتهم احيانا أخرى .

ومن هؤلاء اذكر الامام محمد عبده وعبدالله النديم ومحمد فريد والقاياتي وسعد زغلول وصحبه وطه حسين وسلامة موسى واحمد لطفى السيد وعبدالرزاق السنهورى وعلى عبدالرازق ومصطفى لطفى المنفلوطي وعباس العقاد، والشيخ حسن البنا وبيرم التونسى وغيرهم وغيرهم .

وارجو ان يلاحظ القارىء الكريم ان بعض من ذكرت قد حكم عليه بالنفى أوالسجن أو النقل الى وظيفة غير الوظيفة التى أؤهل لها وكان يشغلها أو سحبت منه الشهادة العالمية أو ضرب وأهين أو الذى اضطر لكى يعيش فى المنفى وعاد إلى أرض الوطن أو توفاه الله فى منفاه أو من نجح التدبير لقتله .

وصحيح ايضا اننى شاهدت وقرأت المذكرة التى قدمها نخبة من المفكرين والكتاب المصريين وعلى رأسهم « توفيق الحكيم » الى « محمد انور السادات » الذى كان يتربع على كرسى الرئاسة ويقول عن نفسه انه « وجمال عبدالناصر » آخر الفراعنة ! ثم كيف انتقم من بعض هؤلاء المفكرين والكتاب وغيرهم بعد ذلك واعتقلهم ولم يفرج عنهم الا بعد أن صرعه أعضاء « تنظيم الجهاد » فى يوم ٦ من شهر اكتوبر عام ١٩٨١ .

ويبدو لى وهذا مجرد رأى يلاحظه القارىء المدقق لدراسات هذا الكتاب ان الغنى الفاحش والفقر المدقع لايمكن

والانحرافات الدينية والانحرافات الاجتماعية واقصد بمفهوم الانحرافات هنا مفهوم « التطرف » والتطرف الاجتماعى نجده

ان يكونا على وئام أو يؤكدان السلام فالملاحظ ان الغنى الفاحش وبخاصة اذا كان غنى غير مشروع (من تجارة المخدرات بأنواعها أو الاتجار فى الاعراض مثلا) وظاهرة البطالة وبخاصة فى محيط القادرين من اعضاء المجتمع لها علاقة متينة بظاهرة الشعور بالعداوة . وظاهرة الشعور بالعداوة تعنى ردود افعال اهمها الانحرافات السياسية

واضحا فى محيط الحصول على عمل فنجد الوانا من الجرائم المنظورة وغير المنظورة ترتكب فى سبيل تحقيق هذا الهدف ... وكل قارىء لاية جريدة أو مجلة يجد ذلك مؤكدا .

كما يبدو لى كذلك ان التفرقة اللاإنسانية ، فى ضوء خبراتى الواقعية التى عشتها فى مجتمع الولايات المتحدة مصدرها ان لم يكن من أهم عواملها المستوى المنخفض الذى يعيش فى ظله زنوج الولايات المتحدة وقد سجلت هذه الخبرات فى الكتاب الحالى (انظر رابعا : أمثلة حية تاريخية عن بعض انماط العنف بند رقم ٨) ولعل ذلك أيضا يوجد فى محيط زنوج جنوب افريقيا . علما بأن زنوج الولايات المتحدة الامريكية يمثلون اقلية فى المجتمع وان زنوج جنوب افريقيا يمثلون الاغلبية فى مجتمع جنوب افريقيا .

والعمل من أجل السلام له نصيب فى الكتاب الحالى (انظر : خامسا بنود ١٢ و١٣ و١٤ و١٥ و١٦) وقد تعمدت ان اذكر دور القادة الثقافيين . واقصد بهم المفكرين حملة الاقلام والفنانين والموسيقيين وذلك لاننى أرى أن أدوار هؤلاء جميعا هامة فى اى مجتمع انسانى فهم فى الأغلب

الاعم أقرب الى الوصول إلى الحق ان كانوا صادقين اى إنهم يعكسون واقع حياة الناس ويرنون الى مايجب ان يكون عليه مستقبلهم المشرق . فهم بصدقهم يغرسون في نفوسهم الحب والخير والجمال وفي ضوء ظروف مجتمعنا المصرى المعاصر اعتقد ان تحقيق كل ذلك أمر ضرورى ولاينكره إلا معتوه .

ولذلك خصصت بندا سميته « غرس القيم ذات الاهداف الحميدة فى نفوس المواطنين » ولن يغرس هذه القيم الا القادة الثقافيون الواعون الصادقون غير المتلونين .

أما البند الذى يلى ذلك فهو يتعلق باستغلال الناس المحاربين وغير المحاربين باسم الوطنية أى يتعلق بتجار الحروب والذين لاهم لهم الا أن يربحوا بالضرورة ويزيدوا من أرباحهم بكل انواع الاساليب غير المشروعة . وهؤلاء التجار ليسوا بالضرورة ان يكونوا أفرادا ، بل هم الدول التى يعتنق حكامها وساستها الذين يؤمنون بأن « القوة حق » فتراهم يستعبدون الشعوب الضعيفة المستضعفة بقوتهم ، أقصد عدتهم وعتادهم واختراعاتهم التى تشيع العنف والدمار لكى يفرضوا تبعية الشعوب كل الشعوب لهم . ويبقى أمامهم فرض المذلة عليهم فهم الاقوى والأغنى ، والآخرون هم الأضعف والأفقر . ولن أنسى ماحييت الشعار الذى ملأ آفاق مجتمع الولايات المتحدة الامريكية يوما من الايام الذى يقول : « كل مايفيد شركة (چنرال موتورز) يفيد أميريكا » وليس كما يجب ان يكون العكس وذلك لأن اصحاب هذه الشركة وغيرها هم اصحاب المصالح الحقيقيين الذين يقفون من وراء الساسة والحكام ، وكأن الاخيرين مجرد خيالات مآته فى هذا المجتمع أو ذاك . ونحن نلاحظ فى الوقت الحاضر ظاهرة وجود الشركات العملاقة متعددة الجنسيات وفروعها عبر القارات .

وفى ضوء مراحل التاريخ البشرى نجد ان الاستعمار يتبع رؤوس الاموال . والاستعمار يعنى العنف ولايمكن ان يعنى السلام .

ويبقى بندان آخران وهما بند ١٥ وبند ١٦ . والبند الاول يهتم بدور الجماهير ، اما البند الثانى فيتعلق بدور رجال الشرطة وقد تعمدت ان اتحدث عن دور الجماهير قبل ان أتحدث عن دور رجال الشرطة . وذلك لان الجماهير الواعين اى الذين يحرصون على اخذ حقوقهم ويحرصون على اداء واجباتهم هم صمام الامان فى مجتمع كالمجتمع المصرى ذى التاريخ القديم قدم الدهر والمستمر استمرار الحياة . ويؤكد ذلك أن الشعب المصرى على الرغم مما بذل وضحى وعانى ، نجح فى ابقاء خريطة مصرنا الخالدة على خريطة الحياة ولن يتأتى ذلك إلا اذا عاشت هذه الجماهير الاساليب الديمقراطية بأنواعها سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو علمية . لقد رأينا فى ثنايا دراسات الكتاب الحالى كيف يهدر حكم الفرد آدمية الانسان ، وكيف يشيع ضروب العنف والفوضى . وكيف يقف حائلا بين اعضاء المجتمع وبين ازدهارهم وتحقيق نضجهم السياسى والاجتماعى والعلمى .

والقارىء الكريم المتتبع لبحوثى ودراساتى التى أجريتها أو اشرفت عليها المنشور منها بخاصة يتجلى له هذا الرأى الذى لا يمكن أن أحيد عنه وبخاصة فى ضوء ظروف المجتمع المصرى الراهنة اننى إذ أدعو لا أدعو الى الحرية المطلقة ولكنى أدعو الى التربية التى تيسر للانسان المصرى ان يثق فى نفسه ويحترم ذاته ويعرف حقوقه وواجباته ويؤديها عن طواعية وأن يكون واعيا بالأمور التى تدور من حوله وان يسمع الاحاديث أو الخطب من رموز المجتمع على اختلاف مواقعهم من السلطة والسلطان فيصدقها لان مضمون هذه الاحاديث

وهذه الخطب ينفذ فعلا ولايضيع فى الهواء سواء صدر هذا المضمون عن طريق أجهزة الاعلام بأنواعها أو صدر فى جلسات خاصة أو فى جلسات عامة . ان ظروف المجتمع المصرى تنفر حتما من المثقفين المصريين (بالمعنى العام) الذين لديهم القدرة على التكيف فى كل عصر وأوان . اقصد الذين يتلونون كالحرباء فى سبيل تحقيق مصالحهم التى تنتهى حتما بمرور الوقت الى زوال .

وفى بند ١٦ وهو البند الاخير من دراسات هذا الكتاب تحدثت عن « رجال الشرطة » وانني أرى ان رجال الشرطة هم فى حقيقة الأمر الحكام الحقيقيون فى مجتمعنا واننى أقول مجتمعنا وذلك فى ضوء تجاربى وخبراتى معهم وبخاصة فى قاعات المحاضرات أو فى الاشتراك فى القيام ببعض البحوث والدراسات مثل جرائم المخدرات وجرائم الاحداث أو جرائم السرقة عن طريق اسلوب النشل أو جرائم المرور .. الخ . ومن ثم فان واجباتهم كبيرة بل هى أيضا خطيرة .

ومع ذلك فاننا نجد أنهم بشر يخطئون ويتجنبهم الصواب أحيانا سواء كانوا يعملون فى المطافى وفى السجون وفى الاقسام أو فى طرقات المدن أو فى غيرها . واننى مع ذلك ألتمس لهم الاعذار أحيانا . وذلك لأنهم من الفئات اللامعة اجتماعيا ، فى أيديهم السلطة هذا صحيح ، ولكن أعضاء الفئات الأخرى الذين على شاكلتهم ليسوا ملائكة . أى أنهم يرتكبون الاخطاء ضد المواطنين أيضا . وقد ينبذونهم فى الكثير من الاحيان فينشروا الذعر والهلع فى نفوس الآمنين باسم الوطنية أو باسم أمن الدولة وأمانها نجد ذلك فى محيط الذين تكون مواقع أعمالهم « المخابرات » أو « المباحث » ونجد المجنى عليهم وهم مظلومون حقا ، كما ذكرت من قبل رهن السجون والاعتقالات والملاحظ أن المجنى عليهم هؤلاء

ليسوا فقط من سجنوا أو اعتقلوا وانما يضاف إليهم ذووهم المقربون من الآباء والامهات والابناء وربما بعض الاصدقاء أو بعض الجيران .

واذا كنت قد ذكرت أن واجبات رجال الشرطة فى معظم الحالات خطيرة لأنهم يواجهون الاخطار الجسيمة فى معظم الاحيان ، فأننا يجب ان نعترف بأن رجال الشرطة على اختلاف رتبهم هم من أعضاء الشعب المعاصر . اى انهم يتأثرون بالضرورة بالعناصر الثقافية المادية وغير المادية التى توجد فى مناخ هذا المجتمع إنهم عندى مثل المجرمين تماما . اى انه اذا كانت لديهم الاستعدادات للقيام باعمال القمع والمنع فأن ذلك يرجع الى الظروف الاجتماعية الثقافية والسياسية والاقتصادية التى عاشوا فى كنفها . كلنا لدينا الاستعداد لارتكاب الجرائم العنيفة وغير العنيفة جميعا ، ولكن البعض منا وبخاصة الذين عوملوا فى بيئتهم الصغيرة (الاسرة) أو فى بيئتهم الكبيرة (المجتمع) باساليب التربية السوية قد ينفرون من ارتكاب الجرائم أيا كان نوعها .

وقد ذكرت فى البند المشار اليه فى مضمونه مالى وما لرجال الشرطة وماعليهم فى صراحة وفى صدق . ذكرت ماحدث لاحد اللواءات عندما ترك ابنته فى المستشفى لاجراء عملية لها من اجل تلبية واجباته الشرطية واذكر الآن أحدهم وكانت رتبته رتبة « الرائد » ويشغل وظيفة « كاتم اسرار وزارة الداخلية » التى يشغلها عادة شرطى تكون رتبته « اللواء » كان يجلس هذا الرائد وبجواره تليفونات عديدة تتصل بكل اركان الجمهورية . كان الكرسى الذى يجلس عليه وثيرا وكانت الغرفة التى يحتلها واسعة ومؤثثة بافخر الاثاث ، وكنت أجلس بجواره كى اترجم له خطابا من اللغة الانجليزية الى

اللغة العربية ، فيجيء اللواءات والعمداء تلو اللواءات والعمداء ويحيونه « التحية العسكرية » وهو جالس على كرسيه لايتحرك . كان هؤلاء اللواءات والعمداء يدخلون عليه نفاقا أحيانا أو كانوا يطلبون منه مطالب خاصة إحيانا أخرى وكانت المطالب الاخيرة تحدث عادة ، فى أثناء وضع حركة التنقلات أو حركة الترقيات الى مناصب أعلى . كان هذا الرائد يحس وكأنه ملء السمع والبصر وكان يجد الاحترام والتقدير المزيفين فى كل مكان وكان يجالس الوزراء والكبراء فى عهده الذى كان . وتراه عضوا فى لجان عديدة ليس لأن لديه مايفيد مايعرض عليها من موضوعات ولكن لانه « كاتم اسرار وزارة الداخلية » .

وكنت اسافر فى مؤتمر من المؤتمرات خارج الجمهورية فى صحبة عدد من رجال الشرطة ورجال القضاء والمتخصصين فى علوم الاجرام والنفس . كنا ندخل المطار فلا تفتح حقائبنا سواء كان ذلك ونحن فى طريقنا الى المؤتمر أو فى أثناء عودتنا « بالسلامة » من هذا المؤتمر . كان المسئولون لايرون داعيا إلى فعل ذلك أى الى أداء واجباتهم مادمنا فى صحبة عدد من رجال الشرطة بل كنت أجد من يرفع يديه بالتحية لهؤلاء الرجال .

انهم كما ذكرت آنفا من الفئات اللامعة اجتماعيا فى المجتمع المصرى . وبحكم وظائفهم ومستوى رتبهم يعتبرهم العديد من اعضاء هذا المجتمع « الشومة » المسلطة على أعناقهم من أجل تحقيق مصالح أصحاب السلطة والسلطان .

ومع كل ماذكرت انظر الى الواحد منهم بعد أن يحال الى « المعاش » أو الى « الاستيداع » نجد ان هيلمانه ، الذى كان يسقط « كجلمود صخر حطه السيل من على » وأنا لا أبالغ

فيما أقول أو أذكر . وذلك لان كبار رجال الشرطة لهم « مراسلة » أو اكثر من « مراسلة » وتحت أيديهم عربات المصلحة التى يعملون فيها . والتليفونات تحت إمرتهم يتحدثون منها الى من يشاءون وقت مايشاءون فضلا عن الصحافة والمجلات الصادرة يوميا أو اسبوعيا تكون فى حوزتهم دائما ولايدفعون من ثمنها دانقا .

وارجو من القارىء الكريم أن لايستهين باعمال « المراسلات » فهم يعملون لرؤسائهم كل مايطلبون ان يعمل . ولايمكن الا أن اذكر ماقاله لى احد اللواءات الذى يشغل منصبا كبيرا وهو يعد السنين التى بقى فيها منذ الترقية إلى رتبة اللواء . قال مستنكرا : أفرض اننى خرجت من الخدمة اليوم أو غدا فمن يأتينى بالتموين مثلا ، هل عندئذ اقف فى الطابور كما يفعل الآخرون ؟ ان اعمال المراسلة أو المراسلات قد تكون فى ساحة العمل وقد تكون فى ساحات بيوت الرؤساء ومن ثم فاننا نجد أن اختيار المراسلة يعتبر من سيادة الرئيس اللواء ، لانه لايعمل شيئا الا مايطلبه هذا الرئيس وتراه مميزا عن غيره من المجندين الآخرين الذين ليس لديهم « الشرف » العمل كمراسلة .

وقد تحدثت كثيرا عن واجبات رجال الشرطة عندما كنا نبحث « مشكلة المخدرات » بأنواعها وكنت اقول ان الفئات التى يجب ان نهتم بها هى المهرب والتاجر والموزع والمستهلك وان مكافحة المخدرات بأنواعها فى مسيس الحاجة الى رجال الدين والى الاخصائيين الاجتماعيين والى رجال القانون والى رجال علم النفس الطبى والى علم النفس الاجتماعى والى رجال الشرطة والعبرة اننا لايجب ان نتخذ سياسة المنع والقمع فحسب . ربما تصلح هذه السياسة مع

المهربين والتجار والموزعين . ولكننا لكى نقضى على هؤلاء جميعا فانه يجب أن نبحث عن عوامل الطلب أو خلق هذا الطلب ، على المخدرات بانواعها ان هذه العوامل ستكون بالضرورة عديدة . ولكننا يجب التعرف عليها موضوعيا . وذلك لانه اذا لم يوجد طلب لايوجد عرض . والطلب على المخدرات فى رأيى يرجع الى الظروف التى يحياها أعضاء المجتمع المستهلكين لهذه الآفات .

وأرجو ان يغفر لى القارىء الكريم اذا استعرت زجل « بيرم التونسى » عن رجال الشرطة الذين كان يسميهم « العساكر » إذ يقول :

أربع عساكر جبابرة يفتحوا برلتين
ساحبين بتاعة حلاوة جاية من شربين
شايلة على كتفها عيل عنيه وارمين
والصاج على مخها يرقص شمال ويمين
ايه الحكاية يابيه ؟ جال خالفت الجوانين
اشمعنى مليون حرامى فى البلد سارحين ؟
يمزعوا الجيوب ويفتحوا الدكاكين
أسأل وزير الشئون ولا اكلم مين ؟

ومهما يكن من الامر فأننى لم أحاول فى هذه الخاتمة أن ألخص مضمون دراسات الكتاب الحالى . ولكن رأيت أن اختار عينة منها فتحا لشهية القراء الكرام لكى يقرءوا هذا المضمون فى تؤده وفى روية . ولعل ذلك يثير فى نفوس هؤلاء القراء بعض الانتقادات أو بعض التساؤلات وذلك لإن هدف اهداف هذا الكتاب ان يجعل هؤلاء القراء الكرام يفكرون معى لا من أجل القضاء على العنف الانسانى قضاء مبرما ولكن للحد من هذا العنف حتى يتغلب السلام عليه لا لكى يسود

على وجه الاطلاق ولكن لكى يسود نسبيا . وهذا الرأى لايعنى أبدا عدم قدرة الانسانية على التغلب على العنف الانسانى على وجه الاطلاق ولكننى أبديه فى ضوء الظروف العالمية التى نشاهدها ونسمع عنها فى كل لحظة فى هذه الايام . ومع ذلك فاننى جد متفائل فى المستقبل أقصد مستقبل الانسانية . واذا كان القارىء الكريم متفائلا مثلى على الرغم من كبر سنى فاننى ارى كما كان يرى المغفور له الاستاذ الكبير احمد امين عندما كان يحاضرنا فى معسكر « جماعة الرواد » فى منتصف الاربعينيات من هذا القرن بأن الحاجة ماسة الى خلق « حكومة عالمية » تضم شتات البلدان على المعمورة التى هى فى واقع الامر مجرد قرية صغيرة .

كنا فى مدينة الاسكندرية فى ذلك الحين وكان المغفور له استاذنا الكبير يدعو هذه الدعوة وكان الحماس يملأ كيانه وكنا نحن الحاضرين المستمعين لمحاضرته نأمل فى ذلك ، وفى ضوء الظروف الانسانية القائمة مازال الأمل يداعبنا ! ولعل ذلك ان يرجع الى ماكتبه المغفور له « الاستاذ سلامة موسى » فى كتابة (هؤلاء علمونى) عن الاديب الكبير « هـ . ج ويلز » الذى ألف فى عام ١٩١٩ تاريخا للعالم كله يقول فيه :

« اننا أمة واحدة وان هذه الدنيا قريتنا الكبرى التى يجب ان ننظمها وان نخطط حركة المرور فيها . واننا يجب ان نتهيأ لايجاد حكومة واحدة مع ادارة عامة موحدة للتعليم فى دول الدنيا » وكان ويلز كما يذكر الاستاذ سلامة موسى فى كتابه المشار اليه يدعو : « الى ارتباطات ونظم عالمية لاتزال فى نمو وارتقاء حتى تتقلص الحكومات العديدة القائمة وتزول فى حكومة عالمية واحدة . وهو يدعو الى ايجاد قانون عام لصيانة

الثروات العامة باعتبارها ملكا مشاعا للامم ، للبشر . اى يجب ان يحافظ على مناجم الفحم في انجلترا أو عيون البترول في ايران ، وغابات افريقيا والهند ، ووحوش الغابات باعتبار ان كل هذه الكنوز انما هى ملك عام مشاع للبشر وليس لأمة ان تستأثر بواحد منها »

وايمان وديانة ويلز كما يراها "الاستاذ سلامة موسى" في ضوء مؤلفاته العديدة ، هما : العالمية البشرية . وكانت النبرة العالية فى صوته هى : هذا العالم هو عالمنا هو قريتنا هو حديقتنا . وعلينا ان نصلحه وننظمه .

ويقول الاستاذ سلامة موسى إذ يختم الحديث عن ويلز مايلى :

« وانى اكتب هذه الكلمات فى صبيحة أول يناير من عام ١٩٥١ اليوم الاول من النصف الثانى من القرن العشرين فاحس كلمات ويلز بل أحس قوة الصدق فيها . ذلك اننا قبلا اربعين أو خمسين سنة كنا نقول ان حربا تقع بين دولتين أو ثلاث دول لاشأن لنا بها ، ولكن هذا القول لم يعد يصدق في أيامنا فان حربا تقع بين روسيا وامريكا هى حرب أهلية للعالم كله ، « هى قتال جنونى يشتبك فيه جميع سكان هذه القرية هذا العالم ، فى تشنجات دموية تزلزل وتحطم ... هذه هي عبرة ويلز وهذه هى رسالته » .

(انظر كتاب : سلامة موسى « هؤلاء علمونى » اقرا ٣٤٩ ـ دار المعارف ـ شهر يناير عام ١٩٧٢ ، صفحات : ٢٢٢ و٢٢٥ و٢٢٧ و٢٢٨) .

روايات الهلال تقدم

الجـــان

على أوتار عربية

مسرحية سياسية استعراضية

جـواز

على ورقة طلاق

مسرحية اجتماعية

بقلم : الفريد فرج

تصدر ١٥ أكتوبر ١٩٨٨

رقم الايداع : ٥٩٨٠ / ٨٨
الترقيم الدولى : ٩٧٧ - ١١٨ - ٢٨٦ - ٩ SBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول ـ الصفاة ـ ص. ب رقم ٢١٨٣٣

13079 ـ تليفون ٤٧٤١١٦٤

أسعار البيع للعدد الممتاز فئة ١٥٠ قرشا للقارىء فى مصر : ـ

سوريا ٧٠ ليره لبنان ١٠٠٠ ليره الأردن ٨٠٠ فلس الكويت ٧٠٠ فلس العراق ٦٠٠٠ فلس السعودية ٧ ريالات الدوحه ١٠ ريالات البحرين ١٢٠٠ فلس دبى ١٠ دراهم ابوظبى ١٠ دراهم الحديدة ٦ ريالات تونس ١٧٥٠ مليما مسقط ١ ريال المغرب ١٨ درهما غزة والضفة ١ دولار لندن ١٢٥ بنسا



هال-الدكتور سيد عويس ما يحدث فى العالم من ألوان عديدة من العنف الذى هو وليد الشعور بالعداوة ، لا فى هذا العالم فحسب بل أيضا فى المجتمع المصرى المعاصر .

وقد حاول المؤلف أن يظهر ألوان العنف ويعدد أشكالها واوقاتها وأهدافها وأساليبها ، واقتصر على ألوان العنف الانسانى الذى هو فى حقيقة الامر ضد "السلام" .

والمؤلف ، مع ذلك ، لا يدعى انه "فيلسوف" ولكنه يرى ان من حق الناس قاطبة ، وهو منهم ، أن لا يعيشوا فى رهبة مستمرة لانتشار الاسلحة النووية التى تملأ ترسانات بعض الدول وبخاصة التى ينعتها الناعتون بأنها الدول المتقدمة أو الدول الصناعية التى تعتبر اكبر مصدر للسلاح بأنواعه الى البلاد النامية والى البلاد التى لم تلتزم باتفاقية الانتشار النووى .

والرجاء أن يلاحظ قارىء هذا الكتاب ان موضوعاته كتبها المؤلف "ككل عضوى لا يتجزأ" ، اى أن كل موضوع يكمل الموضوع الآخر . فقراءة كل الموضوعات أمر محتوم .

والرجاء ايضا أن تقرأ مضامين هذه الموضوعات فى تؤدة وروية . فلعل ذلك يثير فى نفوس السادة القراء بعض الانتقادات أو بعض التساؤلات . وذلك لان هدف هذا الكتاب ان يجعل السادة القراء يفكرون مع المؤلف لا من أجل القضاء على العنف على وجه الاطلاق ولكن لكى يسود نسبيا .. وهذا الرأى لا يعنى أبدا عدم قدرة الانسانية على التغلب على العنف الانسانى على وجه الاطلاق .

ومهما يكن من الامر فان قارىء هذا الكتاب يلاحظ تفاؤل المؤلف فى مستقبل الانسانية على الرغم من الظروف العالمية التى نشاهدها ونسمع عنها فى كل لحظة فى هذه الايام .